مذكرات رجل أسود

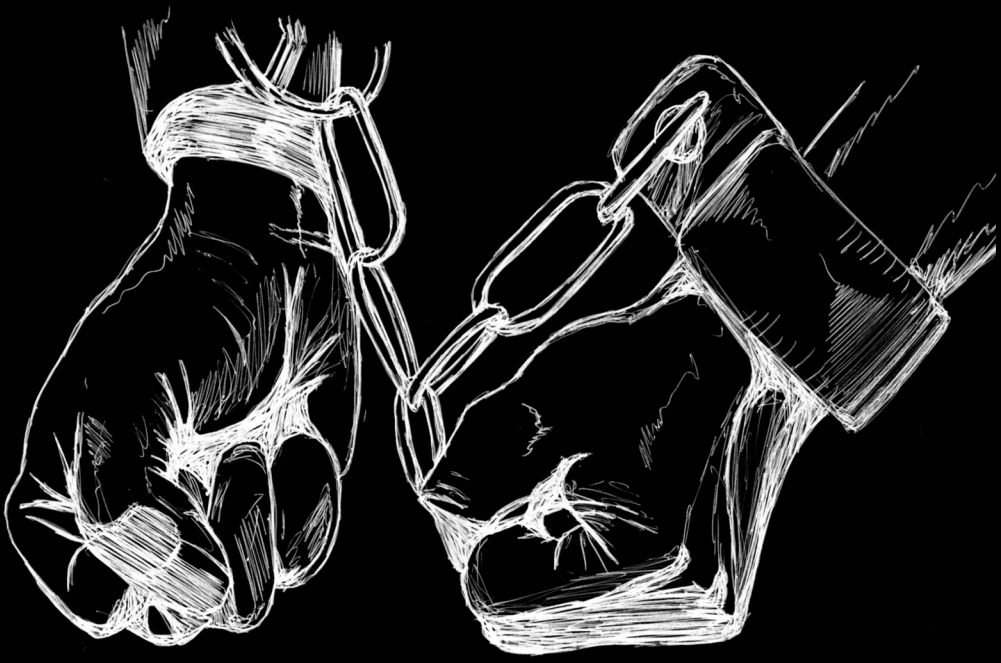

المحرر
رجل أسود آخر

مذكرات رجل أسود

يحررها

رجل أسود آخر

جميع الحقوق محفوظة 2015–2017م.

مذكرات رجل أسود (رواية)

د. محمد عصام محمد عبد الماجد

الترقيم الدولي:

ISBN-13: 978-1548975562
ISBN-10: 1548975567

Printed by CreateSpace, an Amazon.com Company

Available from Amazon.com, CreateSpace.com, and other retail outlets

مقدمة الكاتب

هذه مذكرات طبيب سوداني لف نصف العالم ثم انتهى به المطـــاف في الولايات المتحدة، حيث لقي حتفه..

والحقيقة أنني لم أعرف الرجل إلا لفترة قصيرة حينما قدم إلينا فـــي ولاية فرجينيا كلاجئ في عام 2015م..

وكيفية حصولي على المذكرات قصة عجيبة ولكني لن أحكيهـــا الآن لئلا أفسد متعة القصة..

والحقيقة أنني بعد أن قرأت المذكرات اكتشفت أنني لم أكن أعـــرف شيئًا عن هذا الرجل غير اسمه! وحتى اسمه الكامل لم أكن أعرفـــه حتى قرأته على غلاف المذكرات..

وقصة الرجل كما ستقرأونها في هذه المذكرات هي مزيج عجيب من سوء الحظ والقرارات الخاطئة، والتصوف والإلحـ اد، والرومانسـ ية والقسوة – لا تستغرب من هذه المتناقضات فبعـ د أن تقـ رأ القصـ ة ستدرك أنها كذلك – وأسوأ..

وقد قمت بتعديلات كثيرة على المذكرات – فهي لم تكتـــب بغـــرض النشر بداية رغم أن الكاتب يخاطب فيها نفسه أو شخصاً غيره طوال الوقت – والمذكرة الأصلية التي احتفظ بها هي عبارة عن خـــواطر غير مرتبة مكتوبة بخط دقيق تصعب قراءته، ويبدو أن الدكتور كان ينفعل أحياناً أثناء كتابتها حيث أن هناك الكثير من الحوادث المكتوبة

بلغة لا تصح للقراءة دعك من النشر.. كما أن بها الكثير من الألفاظ الخارجة – رغم أن معرفتي بالرجل تؤكد أنه من أكثر الناس دماثة أخلاق – والحق أنني لم أقابل رجلاً بنفس الخلق وطيب المعشر كهذا الرجل مما يؤكد لي أنه كان يمر بضغوط نفسية رهيبة جعلته يكتب بتلك اللغة الغريبة عليه..

كما أن المذكرات تحتوي هنا وهناك على رسومات واسكتشات خارجة – فمنها اليد التي ترفع أحد الأصابع في حركة بذيئة، ومنها صورة شيطان ذي قرنين يغرز شوكته في مؤخرة أحدهم، وهكذا – أعتقد أنك ترى الصورة الكبيرة هنا..

لا أدري هل ستستمتع بقراءة المذكرات أم لا..

لا أدري هل ستصدق هذه الوقائع أم تظن أنها خيالات مريضة لرجل مجنون..

لا أدري هل ستتعاطف مع الرجل أم تتحامل عليه كما فعل بقية العالم..

ما أعرفه هو أن المذكرات بين يديك ولديك حرية الحكم عليها.. ما أنا إلا رسول أبلغ الرسالة..

الكاتب

(أنا رجلٌ أسود، يعيشُ في عالمٍ أبيض)..

د. خالد أبنعوف

(1)

(فرجينيا).. الولايات المتحدة الأمريكية في عام 2015م..
لا أصدق أنني قد صرت مواطناً أمريكياً حراً أخيراً!
في الحقيقة لا أصدق أنني هاجرت لأمريكا أصلاً!.. فأنا كنت طبيباً محترماً وصاحب خبرة وشهادات عالمية: لدي ماجستير أمراض وراثية وهندسة جينية – نعم هندسة! فأنا طبيب ولكن ميولي مختلفة نوعاً ما..
وفوق هذا فقد انتهيت من زمن من برنامج التخصص في الطب الباطن وحزت الزمالات البريطانية والكندية وعملت بعدة دول مختلفة، فيمكنك إذاً أن تقول أنني جبت نصف العالم.. نعم؟ ماذا تقول؟ لو كنت عظيماً كما أقول فما الذي جاء بي لبلاد العم سام؟ أصبر يا أخي لم أنت متعجل؟ ستعرف كل شئ في حينه..
كنت أستفيد من كل لحظة تمر بي.. منذ أن تخرجت بدأت في استثمار وقتي، فدخلت في برنامج الماجستير وسجلت للزمالة البريطانية في وقت واحد.. في نفس الوقت الذي كنت أمارس فيه عملي كطبيب امتياز.. وهو ما يفسر لك كيف حزت كل تلك الشهادات في عمر صغير نسبياً..

المهم أنني لم أكن أبداً من أنصار الهجرة، فلست أتخيل أن أرمي سنين الدراسة والتخصص والعمل بالمستشفيات والسهر في النوبتجيات مع السكارى والمرضى النفسيين وحوادث الطرق، أرميها

كلها في البحر لأبدأ حياتي من جديد كغاسل أطباق أو موزع صحف أو بيتزا بوي.. هذا ظلم في حق والدي الذين تعبا حتى أوصلاني لهذه المرحلة من النضوج والعلم..

ولكن كالعادة – تجري الرياح بما لا تشتهي السفن كما تعلم (هل كانت سفن بالفتح أو الضم؟ لا يهم)..

والنتيجة كانت أنني وصلت مرحلة من اليأس اضطرتني لتقديم الهجرة لأمريكا، ولهذا قصة طريفة..

* * *

كنا جالسين في ذلك المقهى الذي كنا من زبائنه الدائمين في قلب الخرطوم، قريباً من شارع الستين.. كنا رواداً للمقهى من أيام الجامعة – أنا وشلة الأنس وهم أربعة أنا خامسهم – وكنا لا نفوت يوماً واحداً من دون أن نلتقي مساءً في المقهى.. تقول ماذا كنا نفعل؟ ندخن الشيشة طبعاً! يا لك من ساذج يا أخي..

خمسة شباب يلتقون يومياً على مدى عشرة سنوات، ماذا تعتقد أنهم يفعلون؟ في رأيي إما أنهم يعاكسون البنات أو يمارسون الرذيلة – ولحسن الحظ لم نكن أياً من النوعين، على العكس تماماً كانت لنا لقاءات – صدق أو لا تصدق – ثقافية فكرية! أي والله، كنا نتقابل ونقوم بطلب الشيشة والقهوة والسحلب والشاي ونبدأ الونسة –ثم يدور الحوار بصورة ما لنجد أنفسنا نتحدث عن الدين أو السياسة أو التاريخ أو الثقافة أو المزيكا أو أي شئ آخر يخطر ببالك.. والغريب أننا كنا نتحاور ونصيح وربما تشابكت الأيدي وارتفعت أصوات من شاكلة (صلوا على النبي يا أخواننا انتو أخوان) ولكن النهاية تكون الوداع بالأحضان كأننا لن نلتقي مجدداً، نفترق أصحاباً كما التقينا!

والغريب أن جميع أفراد الشلة كانوا أذكياء بصورة غريبة – وكـــان يجمعنا شئ مشترك أننا جميعاً لا نأبه كثيراً لدراسة الطب! ليس ذلك وحسب بل كنا "نصيع" طوال السنة الدراسية ثم نحمل مذكراتنا لأيـــام الإمتحانات ونأتي بشيخ (محمود) (وشيخ كلمة "تريقة" لو لـــم تكـــن لاحظت) نجلسه فيقرأ لنا المذكرة ونحن نسمع، وربما تخلل الجلسة حوار جانبي في موضوع آخر، ثم نذهب للامتحان بعد يومين وننجح جميعاً!

تقول حظ؟ أمرك غريب يا أخي! أقول لك نحن نفعل ذلك من الســـنة الأولى للجامعة وحتى أكملنا تخصصاتنا بعد إحدى عشرة سنة وتقول لي حظ؟ لن أرد عليك حتى لا أسبك.. المهم..

ماذا كنت أقول قبل أن تفور لي دمي؟ نعم.. كان أقل ما يقـــال عـــن أفراد الشلة أنهم عباقرة.. خاصة شيخ (محمود) الذي كان يقال له في الدوائر الداخلية (Triple P)، وهو كناية عن معدله الثابت منذ السنة الأولى وحتى التخرج، حيث كان يحرز درجة النجاح فقـــط (Pass) في كل مادة، ويقسم أنه لن يحرز أكثر من ذلك ولا أقل، وكان هـــذا ما يحدث بالفعل!..

أما بالنسبة لتسجيل الحضور والغياب فأمره محسوم: لا يحضر غير ممثل واحد من الشلة لحضور المحاضرات (غالباً يكون هو محمـــود نفسه) ويقوم بتوقيع الحضور لجميع أفراد الشلة.. كنا نحفظ توقيعات بعضنا البعض، لأن كل فـــرد كـــان متطوعـــاً لحضـــور سلســـلة المحاضرات التي تروق له.. مثلاً كان (محمود) يحضر محاضرات الباثولوجي لأنه يحب القرف (مثلاً توجد صورة في الكتاب لنســـيج متعفن يسميه علماء الباثولوجي: الخبز بالجبن!)، أما أنا فكنت أحضر

محاضرات المايكروبايولوجي لأن الدكتور كان رجلاً نكتة طويل اللسان كما أنه كان صديقي.. كنا كذلك إلا صاحبنا (وليد) الذي أكاد أقسم أنه لم يحضر محاضرة واحدة حتى التخرج لأنه كان يحب (نومة الصباحية).. أما لو قررت في يوم من الأيام أن أحضر محاضرة الباثولوجي لسبب ما، فإنني لن أوقع بنفسي حضوري، لأن شيخ (محمود) هناك وسيقوم باللازم!..

كنت جالساً في المقهى مع صديقي (وليد)، وهو أحد أفراد الشلة الذين بقوا في السودان بعد أن هاجر البقية، والذي كان في هذه الأثناء يجر نفساً عميقاً من الشيشة ثم ينفثه في الهواء ويقول لي وهو يحدق في الدخان:

– الحاصل شنو يا (ميسي)؟..

و(ميسي) هو لقب "تريقة" من الشباب أطلقوه علي لأنني لا أفقه شيئاً عن الكرة! لدرجة أنني لا أعرف هل كان الكرت الأحمر أم الأصفر هو علامة الطرد؟ وقد كان اشتراكي في دوري الجامعة في السنة الثانية من الجامعة حدثاً مشهوراً، فقد قمت لوحدي بإحراز تسعة أهداف – كلها في مرمانا!

* هممممم؟..

هذه كانت مني أنا، فالتفت لي (وليد) وقال مرة أخرى:

– مالك يا مان؟ شكلك *تيبيبيت* جداً؟..

* بفكر لي في فكرة مجنونة كدة..

حينها اعتدل (وليد) فأخذ نفساً عميقاً من الشيشة وسأل:
– فكرة شنو؟..

تناولت منه خرطوش الشيشة وأخذت نفساً عميقاً وصمت لحظـــة – لزوم الدراما – ثم قلت:
– بفكر أهاجر لأمريكا..

وصاحبي طبعاً يعلم بفكرتي عن السفر لذا فقد كان رد فعله طبيعياً:
– إنت *تيييت* ولا شنو؟ مش كنت بتقول ما مهاجر؟..
* صح.. لكن إنت عارف أخوك اتبل قدر شنو في الخليج ياخ.. ياخ أنا لفيت الخليج كلو ويا طلعت مطرود يا شارد من كل بلد دخلتها.. الشغلة كترت علي وهنا ماف شغل والبلد كل يوم ماشة فـــي غلا.. وصراحة بعد أمي ما ماتت بقى ما عندي أي ولاء لا لي ســودان لا غيرو..

استعاد (وليد) الخرطوش وقال من خلال الدخان مفكراً:
– هممممم.. كويس ما كعب.. أنا من زمان رليـــي الهجـــرة ولجـــب وطني بس أنت كنت بتتـــ*تيييت*.. بس حتمشي كيف وبياتو فهـــم؟ الأمريكان ديل بقو بتلاءموا مع السودانيين بصورة غريبـــة.. مـــش متذكر صاحبك عبدو؟..
* هممممم؟..
– ياخ عبدو الدفعة الورانا الطويل أب شلخة داك.. تتذكر قلت ليـــك شاف ليهو مؤتمر سافر أمريكا وأول ما وصل مطار واشنطن قطـــع الجواز وعمل فيها أهبل..

* أيوااااا صح صح.. حصل ليهو شنو هو؟..

- ولا حاجة.. الجماعة الأمريكان مسكوهو ستة شهور دخلـــومفـــي بيت إسكان وكل يوم يرسلو ليهو جماعتك ناس للبـــدل والنضـــارات السوداء بتاعة الأفلام ديك.. كل يوم استجواب حكوها معاهو لحـــدي ما جاب الدم.. دايرينو يغير كلمة واحدة في قصتو عشان يركـــ(..) ليك طوالي.. عمك لكن طلع مفتح وثبت على كلامو..

* وبعدين؟

- وبعدين فكوهو وأدوهو الإقامة.. أصلاً هو كان ممتحـــن البـــورد الأمريكي.. فتش ليهو أي شغلة اشتغلها وبعد سنة كان دخل المعادلة ولقى شغل..

* اشتغل دكتور؟..

- لا اشتغل عاهرة ياخ! ياخ مالك داير تشلني؟ طبعاً اشتغل دكتور ياخ الله يحرقك..

أطلقت ضحكة قصيرة وقلت:

- وسع مقاساتك يا ويللي.. وفك الشغل دة ياخ..

وبعد أن استلمت الخرطوش قلت:

- المهم.. أنا فكرت في الموضوع وما لقيت غير حل واحد..

* أها؟..

- أقول للناس ديل أنا Gay!!..

* نعم؟..

- أقول ليهم أنا *تيييت*!!!..

لن أصف لك منظر (وليد) وهو يفتح فمه ويتدلى فكه ببلاهة، ثم هز رأسه وحرك يده لإبعاد الدخان ونظر للأرض مفكراً، ثم رفع رأسه وسألني سؤالاً منطقياً:

– انت جادي ولا بتهظر؟..

* جادي جداً..

صمت مرة أخرى ثم سأل:

– كيف يعني؟ اشرح لي ياخ أنا غبي.. معليش بالراحة بالراحة علي..

استعدلت في جلستي وحركت الخرطوش حركة دائرية وأنا أقول:

– شوف يا سيدي.. حنك تقول لي مضطهد سياسياً ما بينفع لأنهم دايرين زول معارض ولا شيوعي أحمر عديل عشان يثبت إنو معارض للنظام وأنا ما حأقدر أمثل كدة.. وحنك مضطهد عشان قبيلتي شنو ما بعرف داك ما حينفع لأنو أولاد الكلب ديل حيجيبو خبري ويعرفو إني جعلي وحيركبوني حينها.. وحنك مضطهد عشان لوني ما حينفع لأنو في ناس أسود مني هنا بعدين حيقولو لي انت مشيت الخليج ورجعت خليتو مالك؟ فأحسن حاجة موضوع المثلية ده خاصة إنهم الأيام دي طالعين في الكفر..

(في ذلك الوقت لم يكن قانون جواز زواج المثليين في أمريكا قد صدر بعد)..

في هذه اللحظة قرر (وليد) أن الموضوع أخطر من أن يتم نقاشه باستخدام حجر شيشة واحد فنادى على المعلم:

– يا (سامي)! جيب حجر تاني..

وبعد دقائق جاء المعلم حاملاً رأس معسل وبعض الفحم يحمله بماشة بيده اليسرى وهم بفك الرأس القديم وتركيب الجديد حينما صاح (وليد):

– يا سامي انت مالك راجل *تيبت* كدة؟ أقول ليك شيشة يا بشر تجيب لي راس؟ الله يحرق شيطانك ياخ جيب شيشة سريع راسنا داير يطق..

وبينما انطلق (سامي) ليجلب الشيشة استلم (وليد) الخرطوش وسأل:

– أها يا مفتح ولو قامو جابو ليك واحد من الزنوج ديك قالو ليك أثبت كلامك؟ انت عارف النقرز ديك الله شال منهم الراس وأداهم راس تاني..

هززت رأسي متعجباً من سذاجته:

– حأقول ليهم ده موضوع شخصي ونفسياتي ما بتسمح لي أمارسها مع زول غير زولي – البارتنر بتاعي وكدة..

* طيب لو قالو ليك وينو؟..

– عادي حأقول ليهم ما قدر يسافر من السودان لأنه مضطهد بس أنا قدرت أزوغ..

همهم (وليد) مفكراً:

* هممم.. ما بطال.. الفكرة عايزة شوية شغل لكن مبدياً كدة ممكن تمشي..

وقبل أن أعلق كان يرفع عقيرته صائحاً:
– يا (سامي) الحجر وين الله يحرق أبو أهلك ياخ.. كرهتنا الشيشة ذاتو..

* * *

في هذا الوقت كنت أنا قد بدأت استقر في (ريتشموند) عاصمة ولاية (فرجينيا).. وهي من المدن المعروفة أنها تنتمي للزنوج أو كما يسمونهم (الأمريكان من أصل أفريقي أو African-Americans).. وأنا عامة أحس بالانجذاب التلقائي نحو أي شخص غير أبيض (لن أقول أسود لأن هذه الكلمة صارت غير واضحة المعالم بعد الانفتاح الثقافي واختلاط الأنساب، من الصعب أن تجد أسوداً كامل السواد ذي ملامح زنجية مكتملة وأنف أفطس وشفتين غليظتين-بدون أن تكون بعض جيناته بيضاء في هذه الأيام – يبدو أن الرجل الأبيض كان مصراً تماماً على غزو أفريقيا من كل النواحي، لماذا لتذكر مصطفى سعيد[1] ولكن بالاتجاه المعاكس؟) – المهم..

كما كنت أقول فأنا أرتاح للون الأسود لأنه يشبه لوني، ولكن الغريبة أنني لم أستطع أبداً أن أحس بهذه الطريقة نحو الزنوج الأمريكان!!.. هؤلاء قوم آتون من كوكب آخر.. إنهم سود ولكنهم يتحدثون عن (الأفارقة) بمنتهى القرف والاحتقار بالإضافة طبعاً لكثير من الـ(تبأ) و(اللعنة) و*تييت*.. هم لا يعتقدون أنهم سود سواداً أفريقياً، بل هم سود أمريكان، وأكثر ما يغيظهم هو عندما يتحدث للبيض عنهم

1 بطل قصة (موسم الهجرة إلى الشمال)، من تأليف الأديب السوداني (الطيب صالح).

باعتبارهم أفريكان–أميريكان، هنا يكادون يشدون شعور رؤوسهم من الغيظ..

كما أن لونهم الأسود ليس أسوداً كلوننا نحن الأفارقة، بل فيه لمعة غريبة تجعلك تحس أنهم مصقولون (أو يصقلون أنفسهم؟)، وربما كان هذا أيضاً من أسباب عدم ارتياحي لهم فمنظر الواحد منهم يبدو كأنه خارج من بوستر شريط غنائي لـ Shaggy حالاً..

طبعاً لن أتحدث عن الزنوج ذوي العيون الخضراء (كممثل سي أس آي لاس فيجاس الذي لا أنفك أنسى اسمه) أو الشعر الناعم أو اللون الفاتح قليلاً فهؤلاء يرون أنهم آلهة بالنسبة للزنوج الآخرين!..

نعود لقصتنا.. فـ(ريتشموند) كما كنت أقول تابعة للزنوج، فحوالي 50% من سكانها زنوج[2]، وهو رقم كافٍ تماماً لأن يسيطر هؤلاء على المدينة ويمتدوا منها لولاية (فرجينيا) كلها، خاصة لو عرفت أن (ريتشموند) هي بلد تاريخية كان لها دور مهم جداً في حرب أمريكا للاستقلال من الحكم البريطاني حيث يقولون أن باتريك هنري[3] قال عبارته المشهورة: "أعطني الحرية، أو أعطني الموت!"[4] في كنيسة (سانت جون) والتي كان لها دور كبير في إثارة الجموع وإشعال

---

2 أكثر مدينة بها أغلبية زنوج هي ديترويت بولاية متشيجان حيث تصل نسبة السود فيها لـ 82%!

3 أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، كما كان أول وسادس حاكم لولاية فرجينيا. ورغم كونه أحد الآباء المؤسسين إلا أنه كان من المعارضين لفكرة تأسيس حكومة موحدة ولدستور الولايات المتحدة، وبالتالي تأسيس الولايات المتحدة من أساسه!

4 Give me liberty, or Give me death!

فتيل الثورة ضد الحكم الانجليزي (لا تنس أن أمريكا كانت مجـــرد مستعمرة انجليزية كبيرة).. هذا غير دورها كمركز اقتصادي مهـــم للجنوب لتوافر أعمال الحديد ومصانع الغلال فيها..
وما يهمني هو التغير الذي حدث في المدينـــة فـــي بـــدايات القـــرن العشرين، حيث كانت تجمعات الزنوج الهاربين والعبيد المحرريـــن تتكاثر فأنشأوا "منطقتهم" في المدينة، وصار لهم بيوت ومتاجر، حتى أن المنطقة (والتي تسمى حي جاكسون[5]) صارت مركزاً اقتصـــادياً مهماً، وصار اسمها (وول ستريت أمريكا السوداء[6])..
لماذا أخبرك بكل هذا؟ يا أخي اصبر وسيأتيك رزقك..

كنت قد قمت بخطتي التي دبرتها مع صديقي (وليد) والتي تتلخـــص في أن أدخل أمريكا باعتباري من "الأقليات" المستضعفة.. والوصول لأمريكا ليس صعباً للغاية كما تتصور، فلحسن الحظ أنني طبيب ورجل محترم جداً في مجالي وشهاداتي تشهد لي، فلـــم يكـــن مـــن الصعب علي أن أتحصل لنفسي على دعوة لحضور مؤتمر (البطيخ والعنب في علم تخطيط القلب) أو أي شيء آخر بولاية نيويورك في أواخر سنة 2015م، كما ساعد جوازي المختوم بأختام متعددة مـــن دول خليجية مختلفة على مدى السنين لإثبات أنني رجل متحرك كما أنني أكسب الكثير من المال، وهي عوامل مهمة لمـــن أراد الســـفر للعالم الأول حيث أنهم ينظرون إليك على أنك آتٍ بنظـــام (عمـــرة وزوغة)، ولمن لا يعرف فإن هذا النظام كان مفعلاً بشـــدة أواخـــر التسعينات وأوائل القرن الحالي، حيث كان الذهاب للسعودية صـــعباً

5 Jackson Ward
6 Wall Street of Black America

خاصة للفئات غير المرغوبة (تقريباً كل شئ ما عدا الأطباء وكبار المهندسين!) فكانت النظرية أن تستخرج فيزا للعمرة، وتذهب فتعمر، ثم تكسر الفيزا وتهرب لأي مدينة (غالباً جدة لأن بها أكثرية من السودانيين) وتبحث عن عمل، وقد يقبض عليك ويعاد تسفيرك للسودان أو تكون محظوظاً وتظل تحت الرادار، حتى يقبض عليك ويعاد تسفيرك للسودان!..

نعود فنقول أن نظرة الخواجات إلينا هي أننا آتون لنظل (We come to stay)، أي أننا سندخل بلادهم ولن نخرج منها، وهم لا يمانعون ذلك لو كانوا سيستفيدون شيئاً من وجودنا، لما أن ندخل لنملأ البلد ثم نطالب بحقوق المواطنة ثم نعلم أولادهم المخدرات والسرقة فهذا غير مقبول (نعم هذا ستيريوتايب Stereotype – لا أعرف ترجمة الكلمة – للرجل الأسود وهو غير مقبول ولكنه للأسف حقيقي لحد كبير).. ولذلك فإن الخواجات ينظرون بشك كبير لمن يقدم فيزا لأول مرة وهذه معلومة يعرفها كل من قدم لفيزا لبريطانيا أو غيرها لامتحان أو زيارة من قبل..

وقد حملت أوراقي ودعوة المؤتمر وذهبت للسفارة الأمريكية (أم هي قنصلية؟) الجديدة بسوبا ودخلت لمبنى لا أظن أنه يقل فخامة عن غوانتانامو.. يا رجل إن كمية الأسلاك الشائكة المحيطة بهذا المكان كافية لحبس الشيطان ذاته من الدخول، وعدد السواتر الترابية والبلوكات الخرسانية كافٍ لإعادة تعمير سوريا بعد الحرب، دعك من عدد العيون خلف النظارات السوداء واللتي يمكنك أن ترى نظرات الكراهية والاشمئزاز فيها حتى خلف الزجاج الأسود

للنظارة، وهي لعبة نفسية يجيدها الأمريكان جيداً.. هؤلاء القوم يكرهونني تماماً دون أن أعرف السبب!.. كنت كما غنى العظيم بوب مارلي:

(الشريف جون براون كان يكرهني
لماذا؟ لا أدري..
في كل مرة أزرع بذرة
يقول: اقتلوها قبل أن تكبر..
يقول: اقتلوهم قبل أن يكبروا..!!)[7]

على كل حال كانت هناك تلك الفتاة الشقراء النحيلة ذات العيون الزرق الجاحظة والتي ذكرتني بالسحلية (يبدو أنها مثيرة في نظر الأمريكان فهذا اللزج ظل يدخل للغرفة كل خمسة دقائق يسألها من شئ ما – غالباً هو شئ تافه – ويخرج)، وقد عرفت نفسها لي على أنها (سارا) – نعم (سارا) وليس (سارة) فقد أصرت على مط الحرف الأخير من اسمها ومد الألف للأعلى، مما جعلني أشك في أصولها اليهودية، فالأمريكان عادة يسمونها (سيرا) بالكسر كما في الأغنية – كي سيرا سيرا[8] (أعلم أن الأغنية لا علاقة لها باسم سارة! إنني أعلمك النطق يا بني آدم).. ولكنها كانت رقيقة ومهذبة بجفاف (أو جافة بتهذيب؟) بتلك الطريقة الآلية الرتيبة والعيون الزجاجية الخالية من التعبير والتي يجيدها الأمريكان (يبدو أنهم يجيدون كل

7 "I Shot the Sheriff", by Bob Marley.

8 Que Sera Sera (meaning Whatever will be, will be – a Spanish phrase).Written by Jay Livingston and Ray Evans. Sang by Doris Day.

شئ في هذه القصة حتى تحضير المحشي)..
كانت تسألني بجفاف مهذب:
– مستر (إين).. (أبن).. (إينا أووف)؟..

أجبتها بتهذيب جاف:
– أبنعوف..

أجابتني بـــ.. لا لن أتسبب لك بجلطة بسبب (التهذيب الجاف) مـــرة أخرى، أجابتني بفضول:
* أكسكيوز مي؟ هل يمكن أن تعيده مرة أخرى؟..
– أب.. نا.. أوف..
* أهاااا أوكي.. I get it.. أنا متأسفة للغاية ولكنني جديدة على الأسماء السودانية..
– لا بأس.. الكثير يخطئون في الإسم حتى العرب أنفسهم..
* بهذه المناسبة سيد أبنعوف، ذكرت في تاريخ سفرك أنـــك كنـــت تعمل بالمملكة العربية السعودية؟..
– نعم.. وكذلك بالإمارات العربية المتحدة وقطر وسلطنة عمان..
* أوكي.. ولكنك قضيت في المملكة سنة واحدة فقط علـــى عكـــس البلدان الأخرى التي قضيت في أقلها سنتين لثلاث سنوات؟..
– يب..
* هل لي أن أسال لماذا؟..

وهذه طريقة مهذبة لتقول لي: أي جريمة قذرة قمت بها هناك جعلتهم يطردونك، أو جعلتك تهرب منهم؟

ورغم أنها أجادت إخفاء نظرات الشك في عيونها ولكن كما أخبرتك من قبل فهؤلاء القوم يرونك متهماً حتى بعد أن تثبت براءتك، وعلى ذلك فأنا بالتأكيد قد فعلت مصيبة في السعودية وإلا لماذا غادرتها بسرعة؟ الفتاة لها منطق لو أردت رأيي..
وعلى كل حال فقد كنت أتوقع هذا السؤال بالذات فقد سئلت عدة مرات عندما قدمت لفيزا الزيارة لأخي في أستراليا قبل عدة سنوات وأيضاً عندما قدمت لألمانيا لمؤتمر ما لا أذكر متى، فقلت بهدوء ضاغطاً على حروف الكلمة:
- العنصرية..

وهنا لم تستطع البنت (سارا) أن تحافظ على هدوئها فسقط القناع الآلي من وجهها، وتوقفت عن الكتابة ورفعت رأسها لي بحركة حادة وهي تقول بصوت أقرب للصياح:
- أكسكيوز مي؟.. هل يمكنك إعادة ما قلت؟..

وأنا حقيقة أتفهم موقف الفتاة، فكون أمريكي ينظر لأفريقي باحتقار هذا طبيعي، وكون أمريكي ينظر لأسترالي أو كندي باستخفاف بسبب لهجته غير الأمريكية فهذا طبيعي أيضاً، ولكن أن يحتقر عبد عبداً آخر (فجميعنا في نظرهم عبيد أو بالأصح غير بيض) فهذا ما لا تستطيع أن تفهمه!.. نفس احساس الاستغراب الذي يراودهم حينما يحتقر زنجي أمريكي شخصاً مكسيكياً، فهذا غير مفهوم لهم على الإطلاق!..

ولأنني أتفهم موقف الفتاة كما قلت (لم أقل أوافق عليه بل أتفهمه) فقد

أجبت بهدوء أكثر:

– العنصرية.. التفرقة.. Looking down at someone..

* نعم.. I get it.. هل يمكنك أن تشرح قليلاً؟..

– سأكون أكثر من سعيد لأشرح لك.. أنا رجل أسود كما تريـــن، والإخوة في السعودية لا يعتقدون أنني بني آدم من لحم ودم مثلهـــم، فأنا كما قال لي أحدهم من قبل حينما رفضت فعل شئ ما: أنت تقول لي لا؟ أنا أبي كان يروح يجيب عشرة عبيد مثلك بعشرة ريالـــ مـــن بلادكم المعفنة هاذي!.. فهذا يا سيدتي هو الملخص: عبودية بســـبب لوني الأسود.. ولذلك انتظرت سنة واحدة حتى أكملت الحج وهو من أركان الإسلام ولكنه صعب المنال من هنا.. حججت للمسجد الحرام ثم لملمت أشيائي وغادرت..

* هممممم.. I see..

– وبعدها رجعت للسودان ولم أتمكن من الحصـــول علـــى وظيفـــة محترمة..

وهنا قاطعتني بعصبية:

– كيف يا دكتور (أبناءوف)؟ أنا أنظر لسيرتك الذاتية وقد كتبت فيها ما لا يقل عن خمس شهادات تخصص مختلفة في الطب!..

* حقيقة.. ولكن الحقيقة أيضاً أن بلادي لا تقدر المواهب.. لا تحترم الكفاءات.. لا تكافئ المنتجين.. بلادي كالأم التي تخطف الأكل مـــن أيدي أطفالها! نفس الأكل الذي تعبوا هم في توفيره وهـــي جالســـة تصبغ أظافرها!..

– لا أصدق ما أسمعه! يا إلهي! حسناً، واصل الحديث..

طبعا ستستغرب أننا نتحدث بهذه الأريحية لأكثر من سبع دقائق رغم أن المتعارف عليه أن المقابلة لا تزيد على الدقائق الخمس، أليس كذلك؟ وهذا ما كان سيحدث لو لم أقم بإثارة فضول الفتاة عبر عبارتي الافتتاحية عن العنصرية، فلو لم أقل ذلك لكانت اختصرت المقابلة ورمتني في الشارع غير مأسوف لي بعد دقيقة ونصف فقط!..

أنا نفسي لم أكن أتوقع أن تعطيني (سارا) كل هذا الوقت رغم أننا تدربنا مراراً أنا و(وليد) على المقابلة واتفقنا على بعض الكلمات المفتاحية التي يجب أن أقولها – كعنصرية مثلاً..

تقول أنني أتاجر بقضية لوني الأسود؟ يا عزيزي الجميع يتاجر بقضية لوني الأسود لفائدتهم الشخصية، فلم لا أفعل أنا ذلك لفائدتي أنا الشخصية؟

ونرجع لمقابلتي مع (سارا) حيث كنت أقول:

– وبعد أن تعذر عليّ الحصول على وظيفة محترمة – حصلت على وظيفة ولكن راتبها لا يتجاوز المئتي دولار..

وهنا قاطعتني (سارا):

– مائتي دولار في..؟

* في الشهر طبعاً!..

وهنا كانت (سارا) تتمتم شيئاً لا بد أنه المرادف الأمريكي لـ(حسبي الله ونعم الوكيل) أو (الله يقرف وشك يا أخي) وهي تشير بيدها للمتابعة فواصلت:

– لم أستطع أن أتحمل المعيشة هنا فقد صارت البلاد مختلفة،

الأسعار في ارتفاع مستمر، الخضار يساوي خمسة أضعاف ما تركته عليه قبل سفري، الفاكهة صارت حكراً على ميسوري الحال، حاولت شراء أرض بمالي الذي وفرته من السعودية ولكن أسعار الأراضي طارت للسماء، غير أن مصلحة الأراضي تبيع شهادات تسجيل الأراضي لعدة أشخاص في نفس الوقت! وفوق كل هذا الأطباء يهاجرون والحكومة تقف لهم بالمرصاد رغم عدم توفر الوظائف.. لا تسأليني كيف لا توجد وظائف رغم الهجرة السنوية الثابتة لخمسة آلاف طبيب ولكن هذه هي الحقيقة..

وطبعاً لم أكن أكذب في ذلك، فأرقام الهجرة بالنسبة للأطباء تزايدت بصورة مخيفة في السنين الأخيرة.. ويكفي أن تعلم أن كليات الطب السودانية (التي تقارب الثلاثين بين حكومي وخاص) تخرج سنوياً ألفين وخمسمائة طبيب، في حين يهاجر سنوياً ثلاثة لخمسة آلاف طبيب! هذا يعني أنه بعد عدة سنين لن تجد طبيباً واحداً في أي مستشفى حكومي كان أو خاصاً!.. والحكومة بدلاً عن أن تحاول فهم سبب المشكلة أو تساعد في حلها تخرج كل يوم بمصيبة جديدة:

- وزير المالية يقول أن السودان أكبر مصدر لـ(النبق) والأطباء!..
- وزارة الصحة تمنع الأطباء من السفر للخارج!..
- إيقاف استخراج تأشيرة الخروج للأطباء للحد من هجرة الكوادر الطبية!..

هذا غير المصائب التي "تتحدف" على دماغنا من المرضى ومرافقيهم:

– مرافق مريض يطلق الرصاص على المدير الطبي بمستشـــفى أم درمان التعليمي!..

– مرافق مريض يتحرش بطبيبـــة ومستشـــارة الشـــئون القانونيـــة للمستشفى تخبر الطبيبة أنها لا تستطيع عمل شئ لها لأن المتحـــرش (واصل) ولديه واسطة!..

– الإعتداء بالضرب على طبيب بالحوادث!... يمكنني أن أواصـــل يوماً كاملاً في قراءة المانشيتات فقط!..

ونعود لحديثي مع (سارا) فقد كنت أقول:

– ذهبت من هنا لأربع دول أخرى للعمل وهي التي ذكرتهـــلـــك.. والحقيقة أنني لم أتعذب في بقية الدول كما تعذبت في السعودية،بـــل إنني صراحة ارتحت للعمل تماماً في سلطنة عمـــان وربمـــا كنـــت سأنتظر المعاش هناك، ولكن الضرورة الاقتصادية اضطرت البلـــد لتسريح العديد من الكوادر ومنهم أنا..

* لماذا أنت بالذات؟..

– رئيسي كان يكرهني كالطاعون (ابتسمت سارا هنا) فقام بوضـــع اسمي أعلى قائمة المرافيد..

* إذاً أنت لست مثيراً للمشاكل؟..

– إطلاقاً.. ولدي خطابات تزكية من أربعة استشاريين بالسلطنة تؤكد ذلك..

* واصل..

– وعندها رجعت واستقريت في السودان..

هنا كان القلم يهرش في شعر (سارا) وهي تسأل:
– وما الذي تغير؟ ما الفرق بين then و now؟..

ورميت الكرت الذي أعددته مسبقاً مع (وليد):
– الفرق أنني اكتسبت كل الخبرات التي يمكن أن اكتسبها، نلت كل الشهادات، واقتنعت أنني مهما فعلت فأنا سوداني وسأعود يوماً ما لبلدي حتى لو كنت جثماناً، ففتحت عيادتي الخاصة وعملت بمستشفى قوى الأمن حيث استفدت من سفر زملائي وتوفر بعض الوظائف الخالية لأتحصل على هذه الوظيفة..

هنا كانت (سارا) تفكر بعمق.. من الواضح أنني أكره السودان بشدة وأكره وجودي هنا، وأنني أبحث عن أي طريقة لأسافر.. ولكنني عملت في عدة دول مختلفة ورجعت.. هل أنا نصاب أم مصاب بانفصام الشخصية؟.. السؤال الذي يؤرق كل موظف في أي سفارة: هل هذا العبد الأسود ينوي الهروب لبلدي وتقديم اللجوء؟.. وقد كانت (سارا) واضحة تماماً حينما قالت:
– دكتور (أبناءوف).. أجد في نفسي ميلاً لتصديقك.. ولأنا أريد مساعدتك ولكن كيف أضمن أنك ستغادر الولايات بعد دخولك أراضينا؟..

أجبت بهدوء:
– لأنني سافرت لأكثر من عشرة دول في مؤتمرات مختلفة وغادرت أراضيها بما في ذلك الولايات المتحدة التي زرتها لمؤتمر قبل عدة سنوات، كما أنني استقريت هنا ومعي ما يثبت عملي الثابت لمدة

سنتين في مستشفى قوى الأمن، كما لديك تصاريح عيادتي وتفاصيل حسابي البنكي الذي يوضح..

قاطعتني هنا بنفاد صبر:
– نعم نعم أرى كل ذلك.. دكتور (أبناءوف) سوف أقوم بقفزة إيمانية هنا (leap of faith) وأصدق لك على طلب الفيزا.. عادة هذا لا يحدث بهذه السهولة ولكن قصتك أكثر خيالية من أن تكون خيالاً! كما أن أختام السفارات المختلفة بالجواز تؤكد لأنك رجل صادق وتغادر أراضي البلاد بعد الزيارة..

وهذا بالضبط ما كنت أرمي إليه.. أن تقدم قصة صعبة التصديق لدرجة أن الموظف لن يصدق أنك قد قمت بتأليف هذه القصة بكل هذا التعقيد! وهذه بالطبع مخاطرة كبيرة، ولو سألت أي شخص له خبرة بالسفر للخارج سيخبرك أن كل ما قلته لـ(سارا) خطأ تماماً وطريقة مضمونة لرفض طلبك للفيزا!..
وهنا دخل ذلك اللزج مرة أخرى وقال شيئاً ما لـ(سارا)، غالباً هو سألها لماذا أخذت معي كل هذا الوقت لأنها أجابت:
– إنه حالة خاصة..
وبعد خمس دقائق كنت أغادر السفارة تاركاً جواز سفري لتكملة الإجراءات التي تستغرق أسبوعين على الأقل..

(2)

(فرجينيا) يا عزيزي! بلاد العشاق والمحبين!..
كنت قد وصلت للولايات حاملاً دعوة حضور مؤتمر (تذليل الصعاب في علاج المريض بالشاورما والكباب)، وكانت تذكرتي عبر مطار (دالاس) بواشنطن.. ولو أردت رأيي حول السفر لأمريكا عبر مطار (دالاس) فنصيحتي لك هي: فر فرارك من الأسد!..
إن مطار (دالاس) من أكبر المطارات في العالم.. وهو المدخل الرئيسي لواشنطن والولايات المتحدة ككل.. ولذلك فإن العاملين في المطار يتعاملون بعنف وقسوة مع كل من يأتي للمطار طالباً الدخول للولايات، خاصة لو كانت الطائرة قادمة من الشرق الأوسط..
في صالة الوصول توجد أكثر من عشرة كاونترات لموظفي الجوازات، أمام كل كاونتر ستجد صفاً ملتفاً كالأفعى به ما لا يقل عن مئة شخص يقفون لمدة ساعات بانتظار مقابلة الموظف.. هذا الانتظار لا بد أن يكون وقوفاً فالجلوس غير مسموح، خاصة لو ألقيت نظرة على الكلاب البوليسية التي يقودها رجال الشرطة والتي تحيط بكل صف على حدة لضمان عدم الخروج من الصف أو الجلوس أرضاً..
لا زلت أذكر تلك المرأة (تخميني أنها سورية – بعد انفجار سوريا) والتي كانت تحمل طفلاً بيدها وتمسك اثنين آخرين بيدها الأخرى.. ويبدو أن الانتظار قد طال لأن أحد أبنائها صار يتململ و(ينقنق)، يبدو أنه في حاجة ماسة لدخول الحمام..

وحاولت المرأة بتهذيب ومسكنة أن تسأل أحد أفراد الشرطة السماح لولدها بدخول الحمام ولكن زمجرة الكلب والرجل معاً جعلتها تغلق فمها وتطبق يدها بشدة على الفتى..

ويبدو أن الولد قد وجد لحظة غفلة من أمه ففك يده من يدها وجرى بعيداً، ليس بعيداً جداً لأن كمية الكلاب البوليسية التي أحاطت به كانت كافية ليرجع إلى أمه باكياً، وأعتقد أنه قد قضى حاجته في سرواله فلا حاجة للحمام بعد الآن!..

وبعد ساعات طويلة جداً من الوقوف الصامت المحروس بالكلاب والشرطة، تمكنت المرأة من الوصول هي وأطفالها للكاونتر.. كنت أراها من مكاني في مؤخرة الصف وهي تتحاور مع الموظف على الكاونتر بعصبية.. هذه المرأة ليست (وش بهدلة) وقد تمت بهدلتها تماماً في هذا المطار.. لا أدري قصتها ولا أعلم ما جاء بها للغرب رغم أن إخوتها كلهم فروا نحو الشرق؟..

على كل حال كانت المرأة تتحدث بعصبية، ويبدو أن الرجل لم يعجبه كلامها فأشار لشخص خلفه.. كان هذا الشخص هو فتاة زنجية تلبس ملابس البوليس – أقول فتاة فقط لأن وجهها أوحى لي بذلك، أما بقية جسدها فهو ينتمي لطرزان لا محالة.. وتم اقتياد المرأة وأولادها لغرفة على اليمين عرفت من ذوي العلم أنها واحدة فقط من غرف الكشف العاري، حيث تقوم بنزع كل ملابسك وتقف (مولاي كما خلقتني) ليتم فحصك فحصاً شاملاً..

ولم أر المرأة بعد ذلك ولا أدري ما حدث لها.. وواصلنا نحن زحفنا المقدس حتى وصلت للكاونتر أخيراً..

وقفت أمام الموظف وقلت:

– مساء الخير..

لم ينظر لي الموظف حتى وهو يمد يده برتابة:

– الباسبورت..

* ليس معي باسبورت..

رفع رأسه وأعاد يده لجواره وهو يسأل بروتينية:

– كيف وصلت إلى هنا؟..

أجبته بهدوء:

– عبر الرحلة (...) من مطار الدوحة الدولي..

* وكيف صعدت إلى الطائرة؟..

هنا رميت الورقة التي كنت قد حضرتها من قبل:

– باستخدام الباسبورت الذي مزقته عندما وصلت.. أريد التقديم للجوء..

لم يطرف للرجل جفن مما يدل على أنه تعود مثل هذه الحركات من المسافرين الواصلين للمطار.. أشار بيده بحركة جانبية لأحد الغوريلات الواقفة خلفه.. أقول غوريلا لأن هذه البنية الجسدية لا يمكن أن تنتمي لإنسان.. جاء الغوريلا في صمت وأشار لي في اتجاه معين.. حملت حقيبتي اليتيمة وتحركت أمامه حتى وصلنا أمام فردين من أفراد الشرطة.. سلمني لهما وعاد لمكانه فيما أدخلني الرجلان غرفة صغيرة على الجانب الأيسر من الممر..

* * *

انتظرت في الغرفة ساعات وساعات دون أن يأتي أي شخص ليقول لي (الله يجيرك).. كنت أفهم أسلوب العمل الأمريكي في التعامل مع الأجانب، وهو يتلخص في كلمة واحدة: الإرهاب.. ومن الطريف أن الكلمة صحيحة من الجهتين: فمن جهة هم يعتبرون الأجانب سبب الإرهاب، ومن جهة أخرى هم يمارسون عليك الإرهاب.. أنا لا أتحدث عن الإرهاب العسكري وحروب الشرق الأوسط ومثل ذلك، أنا ببساطة أتحدث عن الإرهاب النفسي.. وكما يقول جورج بوش الإبن: إما أنك معنا أو علينا![9]..

الإرهاب.. كأن يتركوك في غرفة خالية لمدة تزيد على السبع ساعات وأنت لا تعلم ما هم فاعلون بك..

أو أن يتفرجوا عليك وأنت جالس في هذه الغرفة طوال هذه الساعات السبع ليدرسوا حركة جسدك ونفسيتك ويفهموا طريقة تفكيرك، ويحطموا أعصابك.. أنا أعلم هذا لأنني لست أحمقاً، كما أن الكاميرا الموجودة في الركن كانت أكبر من أن لا ألاحظها..

ولما طال الانتظار تلفتت يميناً ويساراً فلم أجد أي إشارة تشير لعدم التدخين، فأخرجت علبة سجائري والولاعة وأشعلت سيجارة أخذت منها نفساً طويلاً و.. كح كح كح!.. نعم فنحن منذ فترة طويلة تركنا السجائر وأدمنا الشيشة كما قلت لك من قبل..

ويبدو أن هذه كانت هي الإشارة فقد انفتح الباب فجأة ودخل منه رجلان يلبسان البدل والكرافتات ويبدوان تماماً كما تخيلت الـ(إف بي آي) أن يكونوا من مشاهدتي للأفلام.. كان أحدهما يحمل منفضة سجائر وضعها أمامي في إشارة بليغة فأطفأت فيها السيجارة..

---

9 You are either with us, or against us!

جلس الأول وعرف نفسه:
– هالو مستر (أبنووف).. أنا العميل (جون) وهذا العميل (بيكر) من الإف بي آي..
بالله؟ الـ(إف بي آي) مرة واحدة؟ لم أكن أتوقع ذلك!
ظللت صامتاً أنتظر ما يقول الرجل، ولكنه ظل صامتاً ينظر لي بعينين كالصقر، فقلت:
– دكتور (أبناءوف)..
* اكسكيوز مي؟..
– دكتور.. أنا دكتور (أبناءوف)..

فتح الرجل الملف أمامه وقال:
– نعم أعرف.. دكتور (أبناءوف).. ما الذي جاء بك لبلاد العم سام؟..

هذا الرجل مباشر بصورة مستفزة.. وضعت كلتا يدي على الطاولة وأجبت:
– أريد التقديم للهجرة..

سأل بدون أن يرفع رأسه عن الملف:
* وما أسباب ذلك؟..

أجبت وأنا أحاول ألا أبدو مذنباً:
– لأنني Gay والقانون في بلادي إسلامي وهو يعاقب مثل هذه التوجهات..

صمت الرجل قليلاً وهو يقلب في الملف أمامه ثم أغلقه وقال:
– حسناً..
وحمل الرجلان بعضهما وغادرا الغرفة.. هل الموضوع بهذه البساطة؟؟!!..

* * *

الحقيقة: لا!..
هل تذكر أغنية (أحمد مكي): جدعان طيبين وبقلب أبيض كبير؟ حسناً، هؤلاء لم يكونوا جدعاناً ولا طيبين!..
هذه كانت فقط البداية لسلسلة طويلة من العذاب الصيني[10].. تخيل أيام زمان حينما كانوا يعاقبون شخصاً بأن يربطوا أطرافه الأربعة في أربعة جياد يتجه كل منها في اتجاه مختلف (شرق–غرب) و(شمال–جنوب)، ثم يأمروا الجياد فيتحرك كل منها في اتجاهه في نفس الوقت؟ يمكنك أن تتخيل أنسجة الأطراف والأعصاب وهي تتمزق والأوعية الدموية وهي تتفجر، وكل ذلك بمنتهى البطء والروية!..
هذا هو بالضبط ما يمارسه مكتب الهجرة الأمريكي مع المهاجرين الجدد ولكن بدون إراقة قطرة دم واحدة.. هؤلاء القوم يرتقون بالإرهاب النفسي لمستوى جديد تماماً..
كانت الإجراءات في المطار بسيطة جداً: قام الـ(إف بي آي)

10 العذاب الصيني المائي: هو أن يصب الماء قطرة قطرة على جبهة السجين لفترة طويلة جداً حتى يصاب بالجنون من صوت القطرات وملمسها على جلده.

بتسليمي لمكتب الهجرة، والذي قام بوضعي في بيت من بيوت الإسكان وهي شقة متواضعة تتكون من غرفة وحمام وصالة تمثل المطبخ.. أخبروني ألا أغادر الشقة ما لم يسمحوا لي بذلك، ولم أكن أحتاج لذلك التحذير فأنا أعلم بوجود الضابطين الواقفين خلف الباب أربعة وعشرين ساعة في اليوم إذ تصلني أصواتهما يضحكان ويتحدثان، كما أشم رائحة الدخان خاصة في نبطشية الليل..

ولمدة خمسة أيام لم يدخل علي أحد ولم يسألني أحد عن أي شئ.. خمسة أيام ليبعدوا تفكيرك عن القصة التي أعددتها لهم حتى إذا ما هجموا عليك تكون قد نسيت تفاصيل كثيرة من القصة ويستطيعوا هم أن يثبتوا كذبك.. ثم ماذا؟ لا أدري فلا خبرة لي في هذه الأمور، ربما قاموا بترحيلك لبلدك، ربما قاموا برميك في غوانتانامو، ربما أدخلوك السجن، كلها احتمالات لا أستبعد أياً منها على هؤلاء القوم..

وفي هذه الأثناء كنت آكل الكورن فليكس والبسكويت الذي كانوا قد وضعوه في الكورنر/المطبخ، كما أنني اكتشفت تلك الثلاجة الصغيرة المدفونة داخل الحائط.. وللأسف لم أجد بها سوى بعض الماء والبيرة.. ألم يسمع هؤلاء القوم عن البيبسي؟..

كنت أعلم أنهم يراقبونني بالطبع.. أنا لست (جيمس بوند) لأستطيع أن أخمن أين توجد كاميرات المراقبة ولأين توجد ميكروفونات التسجيل، ولكن أقطع ذراعي لو لم تكن الشقة تحتوي على عشرة منها على الأقل.. هؤلاء القوم لا يمزحون لو أردت رأيي..

حاولت أن أتصرف بصورة طبيعية وكأنني فعلاً قد نسيت لماذا أنا هنا.. كنت أتناول الطعام وأفتح كتاباً ضخماً موضوعاً على الكومود بعنوان (الأعمال الكاملة لأجاثا كريستي – الجزء الأول) ولأقرأ

بمزاج.. إما أن هؤلاء القوم بارعون بصورة مخيفة حيث عرفوا أنني أعشق أجاثا كريستي، وإما أن المحلل النفسي لدى مكتب الهجرة بارع بصورة مخيفة لينصحهم بوضع كتاب لأجاثا كريستي!..

المهم أنني كنت أمارس كل ذلك وأدخن وأدخل الحمام وأنام بصورة طبيعية جداً طوال هذه الأيام الخمسة.. كما أنني شربت البيرة الموجودة في الثلاجة.. نعم؟ تقول الخمر حرام؟ يا حبيبي أنا قد تجاوزت هذه الأمور منذ زمن بعيد، كما أنها ليست المرة الأولى التي أشرب فيها الخمر لو كنت مصراً أن تعرف.. كل الموضوع أنني لم أنبهر بطعمها من قبل كما أنها لم تؤثر فيّ لذلك لم أواظب على شربها..

وفي اليوم السادس دق الباب فرفعت عقيرتي صائحاً لأنني كنت في الحمام:

– أدخل..

وسمعت صوت الباب يفتح ويغلق وصوت أنثوي من الصالة يقول:

– مستر (أبنووف)؟..

هؤلاء القوم سيضطرونني لتغيير اسم (أبنعوف) هذا لمستر (أكس)! كرهتموني في الإسم بطريقة نطقكم له.. المشكلة أن اسمي (خالد) لكنهم يصرون على مناداتك باسم العائلة أو السيرنيم Surname..

أجبت من داخل الحمام:

– نعم أنا في الحمام.. دقائق فقط وأكون معك..

بعد دقائق كنت أخرج من الحمام لأجد عميلة مكتب الهجرة، وهي فتاة زنجية على قدر كبير من الجمال، تلبس بذلة عمل وكعب عالي

جداً لا أدري كيف تسير به (فكر في بيونسيه ببذلة سوداء وستفهم ما أعني).. لا أدري سبب اختيار الأمريكان للزنوج في كل النقاط التي تشتمل على احتكاك مع الغرباء: صالة الوصول بالمطار (تحديداً وليس صالة المغادرة)، مكتب الهجرة، مكاتب الشرطة على الحدود المكسيكية.. في كل هذه الأماكن يبدو أن الأمريكان يصرون على أن يكون منفذو القانون من الزنوج، وأنا متأكد أن هذا ليس من طيبة قلب الأمريكي الأبيض ولا لأنه يفخر بهم ولا لمساواتهم مع البيض، الموضوع ببساطة أن أكثر شخص سيقسو على الأسود هو الأسود مثله!.. هذا ليس تنظيراً مني صدقني بل ملاحظات عامة قمت بها في كل البلدان التي زرتها.. يا أخي دعك مني، هل تذكر فيلم (جانقو بلا قيود)[11]؟ هل تذكر شخصية (ستيفن) رئيس الخدم للتي أداها (ساموبل جاكسون) ببراعة منقطعة النظير؟ هل تذكر كيف كان رئيس الخدم (ستيفن) – وهو أسود لو لم تكن تعرف (ساموبل جاكسون)! – أكثر قسوة على الخدم السود ويضربهم ويؤذيهم أكثر بكثير مما يفعل السيد الأبيض (كالفن كلندي) والذي أدى دوره باقتدار (ليوناردو ديكابريو)؟ وفي نفس الوقت هل تذكر كيف كان (ستيفن) يتذلل للسيد الأبيض، وحينما يعود للخلف يفرد ريشه

11 فيلم من كتابة وإخراج المخرج المجنون (كوينتن تارانتينو – Quentin Tarantino) أنتج عام 2012م وفاز بجائزتي أوسكار رغم أنه من نوعية الأفلام التي تتسامى فوق الجوائز في رأيي. الفيلم من بطولة جيمي فوكس (جانقو)، كرستوف والتز (د. كنج شولتز)، ليوناردو ديكابريو (كالفن كاندي)، ساموبل جاكسون (ستيفن) وكيري واشنطن (برومهيلدا). لو لم تكن قد حضرت الفيلم فأنا أنصحك أن تضع الكتاب جانباً وتحضر ثم تأتي لتواصل!.

ويتحول لأسد جسور في مقابل العبيد السود؟ رغم أنه أسود مثلهم بل أنه كان – ولا يزال – عبداً؟.. هكذا صرت تعرف لماذا كانت فتـــاة مكتب الهجرة سوداء تحديداً وليس أي لون آخر..

المشكلة أن الأبيض يستخدم كرت العبودية لصالحه في الحالتين: فهو عامل الأسود كعبد لقرون من الزمان حتى تأصلت الفكرة في ضمير السود أنهم عبيد وحمقى ومتخلفون وقباح، ومن الناحيـــة الأخـــرى فالأبيض يلعب ورقة العنصرية والمساواة حينما تكون رابحة ويجني من وراءها مكسباً ما.. وصارت أحلام الشاب الأسود أن يجد فتـــاة شقراء زرقاء العيون تنظر إليه ليقع في حبها من النظـــرة الأولـــى، بينما تتعطف هي عليه لتصادقه فقط لأنها (سئمت من الشباب البيض الوسيمين مفتولي العضلات!)..

أما إحساس الأسود بأنه عبد وبالتالي فالمعادلة هي:

(الأسود = أبيض – مخ)

فقد تجذرت لدينا حتى صرنا نمارسها لا شعورياً!.. فكرفـــي ذلـــك وأنت تزاحم إخوتك السودانيين في الصف وتسبهم وتقـــذفهم وتلعـــن اليوم الذي جمعك بهم، بينما تترك مكانك في الصف ليدخل السعودي أمامك وأنت تحني رأسك، هذا ليس احتراماً يا صديقي – لا تخـــدع نفسك – فلو كنت بهذا الاحترام لاحترمت بني جلدتك في وطنك!..

وعلى الرغم ن غرابة التفسير لظاهرة (تسليم الأســـودبـــأنه عبـــد) والذي طرحه (كالفن كاندي) في الفيلم إياه (جانقو بلا قيود)، حيـــث كان يحكي لـــ(جانقو) وهو يحمل جمجمة بشرية مفتوحـــة ويشـــير داخلها لنقطة في مؤخرة تجويف الجمجمة:

– كان لأبي عبد أسود يجلس في هذه الشرفة على مدار عشرين سنة

ليحلق له ذقنه بموسى حاد.. وكنت دائماً أتساءل لماذا لا يذبح العبد أبي باستخدام الموسى ويفر هارباً؟.. ووجدت الإجابة.. هل ترى هذه الحفرة؟ لو قمت بتشريح دماغ (نيوتن) لوجدت المنطقة المقابلة لهذه الحفرة في الدماغ متضخمة، وهي المنطقة المسئولة عن الإبداع.. أما لو قمت بتشريح دماغ العبد لوجدت أنها المنطقة المقابلة للتسليم والعبودية.. هذا هو السبب!..

أقول على الرغم من غرابة التفسير إلا أنه يؤكد النقطة التي قلتها سابقاً: نحن نتعامل بدونية نابعة من لاوعينا، والأسود يتذلل للأبيض لا شعورياً فقد صار إحساس العبودية متأصلاً فينا منذ قرون..

يا أخي أنا قرأت كثيراً في كتب التاريخ والسير، ووصلت للحقيقة المرعبة: لا أحد أعطى الأسود حقه من الإنسانية وعامله كما يعامل الأبيض خلال التاريخ المكتوب سوى الأنبياء والرسل! وربما كانت حكمة ربنا كبيرة في أن أغلب الأنبياء كانوا سمر اللون، بما فيهم آدم وموسى ومحمد (ص)!..

ثم إن واحدة من أعظم الحضارات التي قامت على وجه الأرض – وهي الحضارة الفرعونية – كان الملوك فيها سوداً! أنظر إلى أي مومياء أو تمثال لفرعون وركز في تقاطيع الوجه القاسية والخطوط العميقة والشفاه الغليظة والأنف الأفطس!.. والدراسات التي قامت قد أكدت أن حضارة (كوش) التي امتدت لمصر وحكمتها كان ملوكها سوداً وقد جاءوا من شمال السودان! ولكن هذه المعلومة لا تطيب للأبيض فقاموا بتحويرها حتى التصقت الفكرة في أذهاننا أن الفراعنة كانوا بيضاً، وهو كذب صريح طبعاً..

هل حضرت فيلم (بوكاهونتاس) من إنتاج ديزني، أو أي فيلم يتحدث

عن الهنود الأصليين كـ(الراقص مع الذئاب)؟ هل لاحظت كيف أن السكان الأصليين جهلة ومتخلفون لدرجة أنهم يحسبون البيض آلهة سقطت من السماء ويعبدونهم ويسلمون لهم الذهب والقرابين لترضى الآلهة البيض عنهم؟.. هذه الأفلام ليس لها علاقة بالواقع أبداً، فمذكرات (بوكاهونتاس) مثلاً تذكر أشياء مختلفة تماماً، كما أن مذكرات بعض القساوسة الأسبان الذين كانوا يبحرون مع السفن لينشروا دين المسيح تؤكد أن الأبيض قد استغل تفوقه بالسلاح الناري ليبيد الحضارات المسالمة التي كانت قائمة في الأمريكتين، في حين كان المواطنون الأصليون يتعاملون بنية طيبة مع القادمين من البحار فيقدمون لهم الهدايا – لا القرابين – كما تذكر الروايات!..

كنت أبحر يوماً بلا وجهة محددة في بحر الإنترنت الإفتراضي، ففاجأتني صورة تجمع أميرات (ديزني)، واكتشفت شيئاً مهماً: كل أميرات (ديزني) بيض، ونصفهن شقراوات، إلا أميرة (علاء الدين) فهي سمراء، وهناك أميرة أخرى سوداء فطساء الأنف!.. حسناً، أعلم أنك ستفتح لي موال (الأخوين جريم) وأن معظم القصص من الفلكلور الشعبي الذي جاء من أوروبا فلذلك من المنطق أن تكون الأميرات أوروبيات الشكل، ولكن المشكلة أن هناك قصصاً أخرى في فلكلور شعبي لأمم أخرى لا يتم عرضها كذلك بل تحور، كما أن قصة (علاء الدين) ليست كما حكتها (ديزني).. دعك من أن مسلسل (هاندي ماني) والذي يعرض الشاب (ماني) الذي يعمل حرفياً يصلح الأعطاب (ومنها كلمة هاندي) يعرضه في صورة الشاب المكسيكي الفقير.. لماذا لم يكن الميكانيكي أبيضاً؟.. وعلى كل حال فإن (ديزني) لها الحق في أن تعرض ما تشاء، الخطأ يقع علينا نحن

الذين لم نعرض فلكلورنا بصورة محترمة يراها العالم..
أنا لا ألوم (ديزني) أو غيرها على عرض قصص مشوهة عن الحقيقة.. هؤلاء يكتبون التاريخ كما يحلو لهم، والمنتصر دائماً يكتب التاريخ، وهي حقيقة معروفة.. ما أعيبه علينا هو أننا نصدق هذه القصص ونعتبرها من المسلمات، رغم أن ما لدينا من تاريخ يؤكد عكس ذلك.. أعتقد أننا يجب أن نبدأ بتدوين تاريخنا لكي لا تنشأ الأجيال القادمة على تاريخ مشوه يخالف الحقيقة..
ولماذا نذهب بعيداً؟ لقد درسونا في التاريخ أن المهدي كان هو محرر السودان من الحكم الإنجليزي الغاشم، رغم أن روايات الشيوخ تؤكد أن الفظائع التي ارتكبتها المهدية في حق الشعب السوداني تفوق ما فعله المحتل الإنجليزي! على الأقل هؤلاء كانوا يقتلون ويعذبون باسم الملكة، أما المهدية فكانوا يفعلونها باسم الله والحرية!.. ودونكم رواية (شوق الدرويش) لـ(حمّور زيادة) فاقرؤوها..
أعتقد أننا يجب أن نلحق شيوخنا الذين لم يموتوا بعد ونأخذ عنهم روايتهم للأحداث التي عاصروها وشهدوها لكي ندونها ونعرف تاريخنا الحقيقي..

والمشكلة أن الأسود يصدق أن الأبيض يريد له الخير ويمشي وراءه! أو كما غنى (كي نان)[12]:

(الكثير من الحروب وتصفية الحسابات..
يأتون لنا بالوعود ويتركوننا فقراء!

12 "Waving Flag", by K'Naan.

سمعتهم يقولون: الحب هو الطريق..
الحب هو الحل.. هذا ما يقولونه..
ولكن انظر كيف يعاملوننا: يجعلوننا مؤمنين..
نحارب لهم حروبهم، ثم يخدعوننا!
يحاولون التحكم بنا، ولكن لن يقدروا إمساكنا
لأننا نتحرك للأمام، مثل جنود البوفالو[13]..)

والحقيقة أن القليل جداً من السود قد اكتشفوا هذه الحقيقة وقاموا بخطوات إيجابية لمحاربتها.. هل تذكر (كاسيوس كلاي) الذي سمى نفسه فيما بعد (محمد علي كلاي)؟ هل تذكر طريقته في الكلام ونفش ريشه كالطاووس وتفاخره الدائم بنفسه وقدراته؟ هل تذكر (ارقص كالفراشة والدغ كالنحلة)؟ هذه كانت طريقة ممتازة ليفرض احترامه على الأبيض، فهو يقول: أنا أفضل منكم وأنا أعرف ذلك، بقي أن تعرفوا أنتم ذلك!..

ومن زاوية أخرى هل تذكر (مايكل جاكسون)؟ ورغم أنه كان شاباً أسوداً وسيماً إلا أنه قد قام بتغيير لونه بالكامل؟ هذا رجل وجد أنه من الأفضل له أن يتابع نظرية (إن لم تغلبهم فادخل معهم).. والدليل أن نصف عمليات التجميل التي قام بها كانت لتغيير شكل أنفه الأفطس الذي يدل على أصوله السوداء!..

وهل تذكر أيضاً (مارتن لوثر كنج جونيور)؟ هذا رجل قد اتبع نظرية أخرى وهي (النضال حتى نكسب حقنا)، وكان له الفضل في

---

13 جنود البوفالو مصطلح أطلقه الجنود البيض على جنود المشاة الزنوج الذين كانوا يحاربون خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

أشياء كثيرة كاكتساب حق التصويت للسود في أمريكا..

نعود لقصتنا.. كانت الفتاة تجلس على الطاولة الموجودة في منتصف الصالة/المطبخ وتتصرف بأريحية كأنها في المنزل.. أشـــارت إلـــي للمقعد المواجه لها:

– خذ مقعداً..

جلست أمامها، في حين قلبت هي بهدوء في الملف المفتوح أمامها ثم قالت:

– مستر (أبنووف).. أنا (ميشيل) من مكتب الهجرة.. فهمـــت مـــن ملفك أنك قدمت للجوء للولايات على أساس إنساني؟..

* نعم..

– هل يمكنك أن توضح أكثر؟..

* أنا مثلي.. *تييت*.. وكما تعرفين فإنني قادم من منطقـــة يشـــكل الإسلام كل شئ فيها من نظام وأخلاق وحكم.. ومثل توجهاتي غيـــر مقبولة إطلاقاً في هكذا مكان..

طبعاً كنت أكذب في هذه النقطة بالذات لأن المثلية منتشرة بصـــورة غير طبيعية في الشرق الأوسط، ولكن الكارت الرابح كان هو خلـــط المثلية مع اللون الأسود مع الإسلام، كان هـــذا كوكـــتيلاً يصـــعب مقاومته..

أنا أعلم طبعاً أنك ستقول لي أنني كنت أحارب الإسلام بمـــا فعلتـــه، أليس كذلك؟ وأنا لا يهمني رأيك بصراحة، ولكن لو كنـــت مصـــراً فاسأل نفسك: من يحارب الإسلام، أنا الذي كنت أحـــاول أن أعيـــش

حياة كريمة فقط؟ أم جماعتك السعوديون الذين كنت سأترك الإسلام بسببهم؟ يا أخي كان معنا طبيب هندي اسمه (آصف) متخصص في طب الأطفال عندما كنت أعمل في المملكة، وهو مسلم وعلى قدر كبير من التهذيب.. كان مرحاً دائم الإبتسام، بالضبط مثل الخواجة (يني) الذي غنى له (محمد الحلو)[14]:

(وعاشرت فيكي الخواجة يني..
إغريقي لكن مصراوي جني..
إسكندراني عاشق أغاني..
جعان يغني.. شبعان يغني!..)

ومما فهمته منه فهو رجل من عائلة ميسورة ولذلك لم يحتج للسفر خارج الهند من قبل ولكن الظروف اضطرته لذلك، ولسوء حظه كانت تجربته الأولى مع الاغتراب معنا.. المهم أن الرجل قضى الشهور الأولى سعيداً بأنه جاء لبلاد الرسول (ص) وبلد الحرمين، كما ساعده عدم فهمه للغة العربية لكي يتجاوز الإهانات التي كانت تكال له من شاكلة: شوف هذا الحمار اللي مـا يفهـم عربـي.. أو: هندي وصخ هذا يجيبونه يعطونه عشرين ألف ريال؟.. والرجل كان يبتسم ببلاهة من لا يفهم محدثه مفترضاً سلامة النية، وهذا كان يغري المتحدث ليكيل له المزيد من الإهانات، في حين أنك لا تعرف ما تفعل: فأنت تفهم العربية وتعرف أن هذا الرجل يهان أمامك، ولكن كيف تتصرف؟.. في مرة حاولت أن أتدخل دفاعاً عن الرجل

14 الأغنية الافتتاحية لمسلسل (زيزينيا).

فالإهانات كانت أكثر من أن تحتمل.. كان ذلك رجلاً يحمل طفله ويريد أن يعطيه مضاداً حيوياً بالوريد، وصديقي (آصف) يحاول أن يقنعه بأن الطفل عنده نزلة برد فقط وعليه لا حوجة للمضادات الحيوية لأنها ليست في مصلحة الطفل، فالالتهاب فيروسي وليس بكتيرياً..

المهم كان الرجل غاضباً ويصيح في (آصف) ويكيل له أقذع لأنواع السباب – شئ فهمته وشئ لم أفهمه.. و(آصف) يحاول أن يحاوره بهدوء ولكن لغته العربية ضعيفة.. ونظر لي برجاء لكي أساعده حيث كنت أقف هناك أكتب شيئاً ما في ملف مريض آخر.. تحدثت إلى الرجل وأخبرته بما قاله (آصف)، وعندها انفجر الرجل في وجهي وترك (آصف) تماماً وصار يكيل لي سباباً أكثر فحشاً مما كان يقوله من قبل، وأكثر كلمة كان يكررها كانت: يا زق.. تشبه الزق يا زق..

طبعاً لم أفهم الكلمة في وقتها وتعاملت معها بطريقة عادية، وفيما بعد فهمت معنى الكلمة: زق يعني خرى!..

المهم أن (آصف) كان جالساً معي ذات مساء حيث كنا ساهرين في نبطشية الليل، وكنا نجلس أمام باب الطوارئ بحيث إذا جاءت حالة نراها قبل دخولها الحوادث، وكنت أنا أدخن سيجارة بينما أمسك (آصف) كوب الشاي وقال:

– هل تعرف يا (خالد)؟..

* ففففف! أعرف ماذا؟..

صمت لحظة يراجع فيها نفسه – أو ربما يوزن كلامه – ثم قال:

– أنا أحمد الله أنني كنت مسلماً قبل أن آتي هنا! أتعرف؟ أنا متأكد

أنني لو جئت هنا غير مسلم فمن المستحيل كان أن أسلم؟ يا أخي أنا الآن أراجع نفسي في إسلامي وأفكر هل معقول أنني آمنت بالله وبالإسلام وهؤلاء هم المسلمون؟..

كنت أتفهم الغليان في داخله.. الرجل قد مكث عدة شهور وصار الآن يفهم قدراً لا بأس به من العربية.. على الأقل صار يفهم متى يحدثه المواطن باحترام ومتى يكيل له الشتائم – حتى لو لم يفهم الشتائم نفسها.. وقد أصيب فعلاً بالإحباط عندما اكتشف هذه الحقيقة المروعة: هؤلاء القوم يأتون المستشفى ليكيلوا الشتائم للطبيب فقط! ليس للسستر، ليس لفني المختبر أو الأشعة (الذين يكونان سعوديين على الأغلب) ولكن للطبيب.. لأن الطبيب في 99.99% من الحالات يكون أجنبياً.. وأين الأطباء السعوديون؟ جزء منهم بعثتهم الحكومة للتحضير في كندا وأمريكا فرأوا الحضارة وعرفوا عدم جدوى الرجوع فلم يرجعوا، وجزء منهم عاد ولكنهم يعملون في المستشفيات العملاقة كالشميسي وسليمان الحبيب في المدن الكبيرة كالرياض وجدة والدمام، أما 98% من المنظومة الصحية التي تشمل مستشفيات الولايات والمراكز الصحية الطرفية ومناطق الشدة ورءوس الجبال والصحراء والغابات والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة فكلها يتم تغطيتها من قبل الأطباء الأجانب، وكلمة أجانب نفسها تشمل أي شئ ليس سعودياً، بشراً كان أو بهيمة!..
أعتقد أن أكبر دليل على أن القرآن كتاب سماوي – وهو بالمناسبة كتاب حكيم جداً – ما قاله لهؤلاء القوم قبل ألف وأربعمائة سنة: (ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال

طولاً).. كنت منذ صغري أقف في هـذه الآيـة ولهـرش رأسـي مستغرباً: كيف يمكن أن تمشي في الأرض مرحاً؟ أحاول أن أتخيـل طريقة المشي هذه فلا يسعفني خيالي الغض..
ثم جئت للسعودية وفهمت معنى الآية.. لو كنـت زرت هـذه البلاد فستفهم ما أعني.. منظر المواطن وهو يمشي نافشاً صدره للأمـام، محركاً ذراعيه بعيداً عن جسده كما يفعل (جون سينا) رغم افتقـاره لعضلات المصارعين – المواطن طبعاً وليس (جون سينا)!.. رفعـة ذقنه للسماء والكلام من طرف أنفه.. كنت أحاور أحد الأصدقاء الذي كان مصراً أن سبب المشية هو (طريقة تفصيل الجلابية)، فيما كنت أنا مصراً أن طريقة تفصيل الجلابية لا علاقة لها بذلك، فقد رأيـت القليل جداً من المواطنين يسيرون بصورة عادية.. عند ذلك فهمـت معنى (لا تمش في الأرض مرحاً)، أي فخوراً بنفسـك.. وعرفـت حكمة القرآن الذي خاطبهم بذلك قبل 14 قرن من الزمان..

يقول أحد أصدقائنا وهو من قدامى من هاجر للخليج:
– كنت في زيارة للسعودية بغرض العمرة.. وفي المطار كان ضابط الجوازات يتعامل معي بتعالي وبـ(قلة أدب).. استغربت مـن ذلـك وسألته: انت ليش تتعامل معي كذا؟ انتو بلد الرسـول يـا أخـي!.. وكانت دهشتي شديدة حينما رد علي ببرود: لا، أنا من أحفاد (أبـو جهل)!..

طبعاً ستقول لي: لو كان الوضع سيئاً كذلك فلمـاذا يسـتمر أطبـاء بلادي في الهجرة لتلك البلاد؟.. والإجابة من قسـمين: بعضـهم لا

يعرف ما هم مقدمون عليه حتى يصبحوا في النار فيذوقوا حريقها.. وبعضهم يعلم ولكن (العين بصيرة واليد قصيرة)، فالسعودية هي أكثر بلد يسهل استخراج تأشيرة عمل له من السودان، على عكس بقية بلدان الخليج التي يصعب استخراج تأشيراتها بدرجات متفاوتة.. والكثير يستعملون السعودية كـ(كوبري) يسهل لهم دخول بقية دول الخليج، حيث يبحثون عن عمل كريم في دولة أخرى مستغلين إقامتهم في السعودية..

طبعاً كان من الصعب أن أواسي (آصف) فأنا معه في نفس المركب – بل أسوأ – لأنني أفهم الشتائم – معظمها على الأقل – على عسكه.. كما كان من المستحيل أن أدافع عن هؤلاء للقوم للذين يعاملوننا كما البهائم، بل أسوأ، فالواحد يحترم بهيمته لأنه يحلبها أول النهار ليشرب هو وأهله، أما أنا؟ طبعاً لن أسمح لأحد بأن يحلبني حتى لو أعطاني مئة ألف ريال!..

أتذكر أننا كنا واقفين في مطار (ينبع) لنصلي، وهذا المطار داخلي وصغير ليس به مصلى، فكانت هناك بعض مفارش الصلاة مفروشة في ركن الصالة، وقفنا لنصلي وتقدم أحدنا – لا أذكر جنسيته لكن أظن أنه سوداني، والجماعة فيها مصريون وسودانيون وبنغالة وباكستانيون، وأقمنا الصلاة وكاد الإمام أن يكبر حينما سمعنا صوتاً يصيح من بعيد: (قَف.. قَف).. تلقائياً وقفنا والتفتنا لنرى مواطناً يجري من هناك نحونا وهو يضع يمناه فوق رأسه ليمسك العقال حتى لا يقع ويعض بأسنانه على جلبابه المرفوع ويشير بيسراه لنا

لنتوقف..

طبعاً كان موقفاً غريباً جداً ولم نفهم لماذا يريدنا الرجل أن نتوقف؟ ربما كان اتجاه القبلة خطأ؟ لم نفهم حتى وصلنا الرجل، فدفع الإمام ليرجعه للصف الأول، ووقف هو مكانه، ورفع يديه ليكبر، ثم التفت إلينا وقال:

– من شروط الإمامة.. الحرية!!..

ثم كبر بحماس!.. طبعاً لن أقول لك أن كل من يفهم العربية تترك الصلاة وغادر، وربما لم يصل هذه الصلاة تحديداً حتى يومنا هذا..

يذكرك ذلك بقول المتنبي:

العبد ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ لو أنه في ثياب الحرِّ مولودُ

كنت أحاول أن أواسي (آصف) فقلت:

– يا صديقي هؤلاء ليسوا الإسلام.. ربما كانوا مسلمين ولكنهم ليسوا الإسلام نفسه.. الإسلام هو الذي تمارسه أنت يا صديقي حينما تعامل المريض باحترام، حينما تصدق ولا تكذب، حينما تعامل زملاءك بتهذيب، ما تفعله أنت يا رجل هو الإسلام – لا يهمني لغتك: عربي أم هندي.. دعك مما يفعله هؤلاء القوم فهذا ليس الإسلام..

كان ينظر في كوب الشاي وهو محبط تماماً.. هذه البلاد قد كسرت شيئاً في داخل الرجل لن يجبر أبداً.. كان يتمتم:

– لكن هذه بلاد الرسول.. الرسول محمد خرج من هنا.. هؤلاء أهله وأحفاد أهله وأصحابه.. كيف؟؟..

كان يمسح يده على الطاقية التي تغطي شعره كأنه يستنجد بالكعبة

المطرزة بها لتعطيه بعض الإيمان.. قلت له:

- يا صديقي إن الله دائماً يبعث رسله لأسوأ خلقه.. انظر إلى بني إسرائيل، إنهم أكثر شعب بعث الله لهم رسلاً وأنبياءاً، ولنت تتفق معي أنهم ليسوا أحسن خلق الله.. وكذلك الحال عندما يصطفي الله آخر رسله يرسله إلى أسوأ خلقه..

ضحك (آصف) ضحكة مكتومة وقال:

- أنت تقول إذاً أنهم أسوأ من اليهود؟..

* أنا لا أقارن! هؤلاء القوم يحتلون قائمة لوحدهم لا تصلح للمقارنة مع أي شخص آخر..

* * *

نعود لـ(ميشيل) التي كانت تسألني:

- وماذا عن البلاد الأخرى التي زرتها؟..

* كلها إسلامية وكلها تحارب المثلية بنفس الطريقة التي قلتها لك..

- إذاً أنت ترفع طلب لجوء اعتماداً على ميولك الجنسية كأساس إنساني؟..

* بالضبط..

- حسناً إذاً.. سوف أسألك بعض الأسئلة حول تفاصيل ذلك..

وكما يقول (عادل إمام): "آآآآآه ده اللي أنا كنت علمل حسابو!".. طبعاً كنت أتوقع أنني سأدخل في هذه التفاصيل مع موظف الهجرة، ولكن للأسف لن أسرد لك التفاصيل فهي أكثر قذارة من أن تناقش على الملأ!..

وفي لحظة ما في منتصف العرض التوضيحي - حيث كانت قد

سألتني عن بعض الأشياء التفصيلية – فكنت أشرح لها ذلك، في هذه اللحظة تخيلت نفسي وأنا أفعل ما أقوله لها، والحق يقال أنني لم أستطع كبح جماح نفسي فتصاعدت العصارة المعدية لحلقي وكدت أن أقيء!.. وبالطبع فإن (ميشيل) كانت تدرس حركتي وطريقة كلامي لتعرف هل أنا صادق فيما أرويه أم كاذب بارع.. فما كان منها إلا أن سألتني ببرود:

– أي مشكلة دكتور (أبناءوف)؟..

نهضت إلى الحمام وأنا أقول:

– لا مشكلة.. ارتجاع الحمض.. مرض قديم..

ولمن لا يعرفني فأنا أقول أنني لست متعصباً أو ضد الحريات الشخصية، وأنا من المنادين بأن كل شخص (ينام على الجنب اللي يريحه).. ولكن هناك بعض الأشياء التي لا يمكنني ابتلاعها بغض النظر عن كمية الماء التي شربتها!.. هناك بعض الأشياء التي هي – ببساطة – خطأ!.. هناك بعض الأشياء المنافية للطبيعة البشرية.. مثلاً قناعتي أن كل المخلوقات تمشي على زوج من الأرجل: اثنين أو أربع أو أكثر من ذلك – إما هذا أو أنها تزحف، لكن لم يقابلني أبداً المخلوق الذي يمشي على عدد فردي من الأرجل!.. وللقرآن يقول: (والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع)، لم يذكر واحداً أو ثلاثة!.. ولذلك يصيبني الرعب كلما رأيت (ركشة) تمشي أمامي لأن هذا الكائن الأسطوري لم يرد في خيال الأولين ولا الآخرين، كما أن حكمة الله تجلت في جميع مخلوقاته للتي تمشي

على زوج من الأرجل، وحينها ألعن في سري أبو لهل الهندي مخترع الركشة..

وبالمثل فإن طبيعة الأشياء أن ينجذب الرجل نحو الأنثى والعكس.. أنا لا أتحدث عن الحرية أو المساواة، أنا ببساطة أتحدث عن قطبين سالب وموجب ينجذبان تلقائياً نحو بعضهما.. أما أن تقول للي أن القطبين الموجب والموجب يمكن أن ينجذبا فهذا ما لا يدخل دماغي أبداً.. يا أخي إن أشد عذاب في جميع الأمم السابقة كان عذاب قوم لوط الذين خسف بهم، ليس هذا وحسب بل جعل الله بلدهم آية لمن بعدهم.. إن هذه العملية في رأيي هي تحدٍ سافر للإرادة الإلهية التي لم تترك (آدم) لوحده بل خلقت له (حواء).. أنا لست فيلسوفاً ولكن كما قلت لك فالأشياء الطبيعية تحدث لوحدها، وحينما نتحدث عن أشياء مشتركة بين الإنسان والحيوان كالعملية الجنسية فأنا أطالبك بأن تذكر لي حيواناً واحداً يمارس المثلية الجنسية بغرض التزاوج (حتى لا تذكر لي الكائنات أحادية الخلية أو الشواذ من الحيوانات بمنتهى الذكاء!) وحين ذلك أنا مستعد للصمت تماماً.. حتى الحيوانات التي تمارس المثلية تفعل ذلك بطريقة غريبة: كالإوز الأسود الذي يقوم ذكران مثليان بسرقة الأعشاش أو تكوين علاقة ثلاثية مع أنثى ثم يسرقان البيض ويطردانها[15]!.. لماذا لا تبيض ان بيض كما بـ دل سرقته يا فالحين ما دمتما قررتما التخلي عن الأنثى؟..

أنت هكذا تتفهم لماذا انقلبت معدتي وكدت أقئ أمام المرأة رغم أن هذه العملية ستثير شكوكها بالتأكيد، ولكن الضغط النفسي للصورة

15 https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AB%D9%84%D9%8A%D8%A9_%D8%AC%D9%86%D8%B3%D9%8A%D8%A9

العقلية كان قوياً.. وعلى كل حال فقد رجعت من الحمـــام ووجـــدتها جالسة تضع رجلاً على رجل وتنظر إلي ببرود:

- أفضل؟..

* نعم أفضل.. لو وجدت أقراص (جافسكون)..

أزاحت يدها ليبدو من تحتها قرصا (جافســـكون) مســـتقران علـــى الطاولة وهي تقول بابتسامة باهتة:

- أنت لست وحدك.. كلنا كنا هناك..

أخذت القرصين وقد بدأت فعلاً أحس بحرقة الحمض في صـــدري (هل النفسيات لها هذه القوة؟) وواصلت الشرح..

* * *

حينما انتهينا بعد ثلاث ساعات كانت (ميشيل) تحمـــل ملفـــاً مليئـــاً بإفاداتي وأنا أحمل احتقاراً شديداً نحو نفسي.. ما الذي أقحمت نفسي فيه؟ كيف تصل بي الدناءة أن أدعي أنني مثلي؟ كيف احتملت هـــذه الفكرة وتشبعت بها؟ هل فعلاً وصل بي الحال وانعدام الخيارات لهذه الدرجة؟ إنني في حالة من التشوش الفكري غير معقولة..

وخلال الشهرين التاليين كانت اللقاءات تتكرر مع (ميشيل) وثلاثـــة آخرين من مكتب الهجرة وهم يسألونني نفس الأسئلة بنفس الرتابـــة ويقارنون كلماتي بما قلته من قبل.. اللعبة النفسية الشهيرة: أســـألك سؤالاً فتجيب عليه، أسألك نفس السؤال فيما بعد فتجيب نفس الإجابة، أنظر لك بشك فتظن أنك أخطأت فتغير الإجابة، عندها أعلـــم أنـــك كاذب فعلا!.. والحق يقال فإن هؤلاء القوم يجيـــدون اللعـــب علـــى الأعصاب بصورة مستفزة، ولكن لحظي الجيد فإن الموضوع كـــان بسيطاً جداً ويدور حول نقطة واحدة ولذلك لم يكن هناك الكثير مـــن

التفاصيل الكاذبة لأتذكرها.. كما أن تكراري للقصة قلل من كمية الاشمئزاز داخلي وجعلني أكثر ثقة في السرد حتى أنني صرت مؤخراً أجيب السؤال قبل أن تكمل (ميشيل) طرحه!..

واستمرت اللقاءات كل بضعة أيام لمدة شهرين كاملين، حتى اقتنع مكتب الهجرة بصدق روايتي، كما أنني أعطيتهم بيانات الـ(بارتنر) الذي سألوني عنه فقلت لهم إنه محصور في السودان لم يتمكن من الخروج.. تقول أي بيانات؟ بيانات (منصور) عدوي اللدود من الجامعة أيام كنا نمارس السياسة طبعاً! كانت هناك شائعات عنه وكنا نستخدمها بقوة لضربه تحت الحزام ولكنه لم يكن يبالي بها، والحق يقال أنه من أكثر الخصوم الذين قابلتهم في حياتي شرفاً ومدعاة للإحترام، ولكن لا يهم على كل حال، فقد أعطيتهم بياناته التي أحفظها عن ظهر قلب منذ أن كنت رئيس المكتب السياسي بالجامعة، كما أعطيتهم وصف بيت جده القديم في (بيت المال) لأنني أعرف أن الأمريكان أولاد الكلب سيرسلون شخصاً من القنصلية ليتأكد من الوصف، أو ربما لن يرسلوا أحداً ولكنهم بالتأكيد سيحاولون التحقق من المعلومات، لذلك لم أعطهم معلومات خيالية أو مفبركة وأنا تحت رحمتهم.. على الأقل هذا عنوان يمكن التأكد منه عند الحوجة..

* * *

بعد انقضاء الشهرين جاءتني (ميشيل) في الغرفة إياها ولأنا في الحمام (لا أدري هل هذا التوقيت مقصود؟)، وبعد أن خرجت رأيتها تبتسم لأول مرة منذ قابلتها وهي تلوح بورقة في يدها:

– مبروك دكتور (أبناءوف).. تمت الموافقة على طلبك للهجرة.. سوف يتم منحك الإقامة في غضون شهر من الآن.. هذا لا يعني

الجنسية الأمريكية، ليس بعد على الأقل.. ولكنها خطوة كبيرة للأمام!..

لم أصدق طبعاً في تلك اللحظة انتهاء فترة العذاب.. كنت سعيداً بانتهاء المصيبة التي أدخلت نفسي فيها أكثر من سعادتي بالحصول على الإقامة أو الجنسية أو مهما يكن.. ومن فرط السعادة وجدت نفسي أحتضن (ميشيل) وأنا أصيح:

– ييس.. ييس.. أخيراً..

طبعاً كانت الهبلة تظن أنني سعيد لحصولي على الإقامة أخيراً، لكنني كنت سعيداً لأنني سأخرج من هذا السجن أخيراً!..

من تلك اللحظة صارت الأمور أكثر سلاسة.. تم بعد شهر تقريباً إعطائي بطاقة مقيم من مكتب الهجرة وهي بطاقة تعني أنني مواطن مقيم ولكنني لا أحمل جوازاً بعد.. وهي عملياً بطاقة لا قيمة لها، فمن ناحية الهوية أنت لا تحتاجها هنا فلا أحد يسألك: أين بطاقتك أو أين إقامتك كما يحدث عندنا.. هؤلاء القوم يصعبون إجراءات الدخول لبلادهم لسبب بسيط هو أنك ما إن تدخل البلاد فلا أحد سيسألك من أنت أو من أين أتيت!.. أما من ناحية العمل فلم تكن لها فائدة أيضاً لأن صاحب العمل سيسألك عن رخصة القيادة (وهي تعريف الشخصية المعتمد هنا، ليس البطاقة الشخصية ولا الجواز بل رخصة القيادة!) وأنا لم يكن لدي رخصة قيادة بعد لأنني لم أنته من الإجراءات والجرجرة التي يحبها هؤلاء القوم أكثر من عيونهم..

وعلى كل حال كان الشرطيان قد اختفيا من أمام الباب، وكانت الباب مفتوحاً الآن فيمكنني أن أخرج لابتاع بعض الأشياء من المتجر

المجاور بدلاً عن الكورن فليكس باللبن للذي صار يصيبني بالإسهال، بالإضافة للسجائر طبعاً حتى أكتشف أين توجد المقاهي في بلاد العم سام..

في هذه الأثناء كانت (ميشيل) تأتيني في بعض الأحيان لتناقشني في بعض الفورمات التي يجب ملؤها، وهي فورمات عديدة ومعقدة أشد التعقيد خاصة فيما يتعلق بمصلحة الضرائب أو كما يقولون الـ(آي آر إس)[16].. هؤلاء القوم سيسألونك عن لون بولك لو كان له علاقة بالموضوع..

المهم أن (ميشيل) كانت تأتي لتعينني في ملأ الفورمات بصورة صحيحة.. وبعض الفورمات كانت تسألني عن أين سأقيم أو الولايات المفضلة لدي للإقامة، وطبعاً كان لدي فكرة مبهمة عن ذلك عبر بحثي أنا و(وليد) في النت عن أكثر الولايات موائمة للمهاجرين الجدد.. طبعاً لم نركز تحديداً على الولايات ذات الأغلبية السوداء فهم كما ذكرت لك من قبل يتعاملون بطريقة (ستيفن) مع الزنوج غير الأمريكان.. على كل حال فقد كتبت (فرجينيا) في أعلى القائمة، وابتعدت عن (ديترويت) بـ(متشيجان) لأن تركيز الزنوج فيها عالي جداً كما أنها قريبة من الحدود الكندية وهذا يعني أنك يمكن أن تروح "شمار في مرقة" كما يقولون.. بقية الخيارات لا تهم ولكنها كانت على غرار (ميامي) و(كاليفورنيا).. الفكرة أنني كنت أريد ولاية أرى فيها اللون الأسود، وفي نفس الوقت لا أضع رقبتي تحت رحمة الزنوج وعصاباتهم، كما يظل لدي خيار العمل بمدينة كبيرة تتوافر فيها فرص العمل وأستطيع التحرك بحرية..

16 Internal Revenue Service

طبعاً ستسألني بكل سذاجة: لماذا لم تأخذ الراتب الشهري للذي يصرفونه على كل المهاجرين؟ وأنا يا أخي أقول لك بصراحة أنني بدأت أضيق بسذاجتك.. أمريكا ليست جنة الله في الأرض.. صحيح أنهم يعطونك معاشاً شهرياً لمدة ثلاثة لستة شهور بينما تبحث عن عمل، ولكن أتعلم ماذا يحدث بعد ذلك؟ عليك أولاً أن تقدم طلباً تشرح فيه سبب طلبك للمعاش وأنت رجل بالغ قادر..ثم عليك البحث يومياً عن عمل، وآخر الشهر تسلم نفسك لمكتب العمل وتخبرهم (مع الأدلة والمستندات طبعاً) لماذا لم تتحصل على عمل حتى الآن، ثم يعطونك معاش الشهر القادم، وهكذا.. والويل لك لو تخلفت عن الميعاد أو تأخرت ساعة واحدة، حينها يلغى ملف المعاش تماماً وتعتبر شخصاً عاملاً وتسري عليك الضرائب من تاريخه!..

وفوق هذا وذاك فقد كانت لدي حصيلة لا بأس بها من الأموال التي حولتها لدولارات ولحسن الحظ لم يصادروها مني.. كما أنني استطعت بعد أن أعطوني بطاقة المقيم أن أطلب من أخي في استراليا تحويل بعض الأموال، وربما كانت المرة الوحيدة التي استفدت فيها من بطاقة المقيم هذه.. هكذا استفدت من أموالي بالإضافة للمعاش الذي صرفته أول ثلاثة شهور حتى وجدت عملاً متواضعاً في حديقة ما..

وبعد شهر ونصف انتقلت لمدينة (ريتشموند) عاصمة ولاية (فرجينيا)، وحينها بدأت المعاناة..

* * *

يقول (كي نان) وكأنه يصف رحلتي العجيبة بكل دقة[17]:

(ولدت في مُلك، أقوى من روما
معرّض للعنف كنت، في منطقة الفقراء..
ولكن هذا منزلي وكل ما أعرفه
هنا حيث تربيت في الشوارع التي أقطعها..
ومن الظلام خرجت، وسرت أطول مسافة
كنت من أكثر الناس صبراً..
تعلّم من الشوارع، ربما تكون قاسية
لكن لا تقبل بالهزيمة، بالتسليم، أو بالتراجع..)

17 "Waving flag", by K'Naan.

(3)

كنت قد انتقلت لـ(ريتشموند) كما قلت لك، والحقيقة أن البحث عن سكن لمواطن جديد يشبه البحث عن حقنة (إريكس)[18] لمرضى الفشل الكلوي في السودان..

وقد التقيت العديد من السودانيين خلال فترتي الأولى هنا، واكتشفت شيئاً مهماً: أن كل الفضائل من شهامة ومروءة وكرم تتلاشى تماماً عند أول اختبار! نحن نتشدق بهذه الفضائل كأننا شعب الله المختار، ونجتهد في إظهار فضيلتنا عندما نكون في الخليج لنثبت أننا كرماء مثل العرب ولا فرق بيننا.. ولكن كل هذه الأشياء تتلاشى في الغرب! وأنا لا ألوم السودانيين فالمهاجرون هنا يقاتلون يومياً لتحصيل لقمة العيش، والكثير منهم يعيشون في غرف تحت الأرض تمتلئ بالدخان والحشيش ورائحة الأقدام، حيث تغيير الملابس يكون بأن تدير وجهك للحائط وتخلع ملابسك فلا وقت لانتظار صف الحمام.. وهؤلاء لا يستطيعون أن يعكسوا الواقع المرير لأهلهم في السودان، فكيف تخبر أهلك أنك تعيش تحت الأرض وتقاتل للقمة العيش بعد أن قاتلتهم لتظفر بالهجرة؟ والحقيقة أن البعض منهم قد عرض مساعدتي ولكنني أشفقت عليهم، فهم يحتاجون للمساعدة أكثر

---

18 اسمها العلمي (اريثروبويتين) وهو هرمون تفرزه الكلى ويقوم بتحفيز نخاع العظام لتصنيع خلايا الدم الحمراء. وفي حالة الفشل الكلوي فإن الكلى تتوقف عن إفراز الهرمون فيصاب المريض بالأنيميا إلا لو أخذ الحقنة تحت الجلد مرتين لثلاث مرات أسبوعياً. وهي حقنة أغلى من الذهب في بلدي!.

مني أنا..

في هذا الوقت كنت قد تمكنت من الحصول على شقة من غرفة واحدة بالقرب من حديقة (آبنر كلاي) بوسط حي (جاكسون) وهو حي الزنوج.. ولحسن الحظ تمكنت أيضاً من الحصول على وظيفة بدوام جزئي كجامع للقمامة بالحديقة.. والحديقة تفتح على شارع (بروك)، وفي طريقي للعمل أحياناً (معظم الورديات مسائية وقليل منها صباحي) كنت أمر على معرض للفنون يسمى (جاليري 5) في نفس الشارع.. وكنت أستغرش[19] حينما أرى سيارات فاخرة يقودها زنوج ذوي لمعة واضحة وثياب ذات ألوان صارخة ينزلون من السيارات ليدخلوا المعرض بمنتهى "الألاطة" ورفعة الأنف!.. يا أخي أنت زنجي، في حي الزنوج، تدخل معرضاً صاحبه زنجي، لترى لوحات رسمها زنوج، فما مصدر التعالي؟ أتذكر مرة أخرى (ستيفن) من فيلم (جانقو بلا قيود)..

المهم أنني كنت أمارس جمع القمامة وأنظر لجميع العمال من حولي: هنود وسودانيون وبنغالة ومكسيكيون وغيرهم من الجنسيات المطحونة يعملون برتابة وآلية.. هل هذه أمريكا أرض الأحلام؟.. تباً لتلك الفكرة التي جعلتني أرمي آدميتي وأهرب من بين أهل الأعراف لأسكن الجحيم ذاته!..

* * *

هذا الجزء غير مذكور في مذكرات دكتور (خالد) وأنا أورده لتكتمل عندك الصورة..

---

19 استغرش كلمة ساخرة اخترعها الساخر العظيم الفاتح جبرا، وهي مزيج من كلمتي استغرب واندهش!.

كان (خالد) يعمل في وردية المساء في ذلك اليوم في أواخر عام 2015م.. وكان عمله يقضي بأن ينظف الجزء الشمالي الشرقي من الحديقة وهو الجزء الذي يقع على شارع 33 حيث تقع مدرسة (بوكر تي واشنطن) في آخر الشارع.. والمدرسة مصدر صداع دائم لأن الأولاد يخرجون من الحصة المسائية فلا يجدون برنامجاً سوى أن يأتوا للحديقة ويضايقوا الزوار، وقد يكون بعضهم عالي المزاج (high on drugs) أي أنهم تعاطوا المخدرات والحشيش فيقومون بمضايقة العمال في الحديقة.. والحق أن العديد من المحاضر قد فتحت في قسم الشرطة ولكن الشرطة لا تفعل شيئاً، كما أن معرفة (الولد الأسود الطويل ذي الندبة على رقبته) الذي قام بالتحرش بك صعبة جداً في هذا الحي لو أردت رأيي..

وفي تلك الليلة كان (خالد) يعمل بهدوء في جمع القمامة، حتى جاءت تلك المجموعة من الأطفال/الشباب وتحرشوا به:

– هيي أيها الزنجي! ماذا تفعل؟..

وبالطبع قام (خالد) بتجاهلهم ولكنهم كانوا كالكابوس:

– هيي أيتها العاهرة! ألا تسمعني وأنا أحدثك؟..

هنا قرر (خالد) أن يرد عليهم حتى لا تتطور الأمور، فمن الواضح أنهم عالوا المزاج جداً:

– نعم أيها الشاب؟ أتحدثني؟..

* بالطبع أيتها العاهرة! هل ترى *تيبيت* غيرك هنا؟..

وتعالت الضحكات الماجنة من المجموعة مع الكثير من اللمز والـ(أووه شت مان)..

واصل (خالد) عمله وحاول الابتعاد عنهم حينما تقدموا منه والولد

يصيح مرة أخرى:

– هييه أيها الـــ*تيت*!.. أين تخال نفسك ذاهباً؟..

وقبل أن يرد (خالد) كانوا قد أحاطوا به والولد ينتزع مسدساً يلـــوح به:

– هل ترى هذا أيتها العاهرة؟ هه هل تراه؟..

ودون أي كلمة أخرى كانوا قد ألقوا (خالد) أرضاً وبدأوا بالضحك:

– هيييه أيها الزنجي! هل ترى هذه العاهرة؟..

وحاول (خالد) القيام ولكن الولد ألصق فوهة المسدس بصدغه وهـــو يقول آمراً:

– على ركبتيك أيها الزنجي..

تسمر (خالد) في موقعه وهو يسأل:

– ماذا تريدون مني؟..

وتعالت الضحكات مرة أخرى والولد ينظر لرفاقه ويقول:

– ماذا أريد من العاهرة! هههاااا!..

ثم التفت إلى (خالد) وقال بقسوة:

– ماذا عن حياتك أيها الزنجي؟..

حاول (خالد) الاعتدال على ركبتيه وهو يقول:

– وماذا يفيدك قلتي يا أخي؟..

وهنا انفجر الولد وضرب (خالد) على رأسه بكعب المسدس صـــائحاً في جنون:

– أخ؟ أنا أخوك أيا العفن؟ أنا أخوك أيها القذر؟..

وبعد الكثير من الشتم والبصاق الأخضر كان الولد يقول لـــ(خالد):

– أخرج ما في جيبك أيها الزنجي..

أخرج (خالد) من جيبه ثلاثة دولارات مدها له وهو يقول:

– هذا كل ما أملك..

انتزع الولد الدولارات من كف (خالد) ونظر إليها ثم صاح:

– هل تمزح معي أيتها العاهرة؟ هل تمزح؟..

وتعالت الأصوات المختلطة وهم يصيحون في (خالد) الذي لا يزال على ركبتيه لا يدري كيف يتصرف.. وفي هذه اللحظة تعالى صوت آمر يصيح:

– هيه أنتم! ماذا تفعلون؟..

كان هذا أحد رجال الشرطة الذين يحرسون الحديقة، وهم نادروا الظهور في الحقيقة.. ولكن ظهوره كان له تأثير عكسي فقد جن جنون الولد وهو يصيح موجهاً المسدس نحو (خالد):

– هل أخبرت الشرطة أيها الزنجي؟ هه؟ هل أخبرتهم؟..

في هذه اللحظة كان الشرطي قد اقترب من المجموعة وبقية الشباب يجرون الولد من كمه:

– هيا يا (سام).. هيا.. الوغد يقترب من هنا.. هيا بنا..

وفي نصف هذه الزحمة واللخبطة كانت اصبع الفتى تجر الزناد لا شعورياً وهو يتراجع جرياً مع أصحابه، في حين كان الشرطي يقترب واضعاً يده فوق كعب مسدسه، ولكنه ما إن رأى وسمع الطلق الناري حتى صاح:

– توقف أنت وهو! توقف هناك!..

وضاعت كلماته مع نسيم الليل في الحديقة.. وبينما كان ينحني على (خالد) ويفحص جرحه ويطلق الاستغاثة في جهاز اللاسلكي كان الشباب يجرون مبتعدين في ظلام الليل، بينما كان (فيفتي سنت)

يصدح من مكان ما:

(الكثير من الرجال يتمنون لي الموت
الدم يسيل على عيني فلا أرى
أنا مقدر لي أن أكون شيئاً ما
والزنوج يحاولون أن يأخذوا حياتي..!)[20]

* * *

كان الموقف فوضوياً للغاية في قسم الطوارئ بمستشفى الجامعة (في سي يو)[21] وهو أقرب قسم طوارئ ويقع على بعد 6 دقائق بالسيارة من الحديقة.. دخلت القسم وأنا أتخبط في ممرضة تجري حاملة محلولاً ما، أو طبيب يجري وهو ينظر في جهاز النداء الآلي، أو مريض ينزف وهو يضغط جانب رأسه محاولاً إيقاف النزيف.. وبصعوبة وصلت للاستقبال حيث سألت الممرضة المشغولة بالإجابة على ثلاث هواتف مختلفة ترن في وقت واحد:

– لو سمحت..

أجابتني على عجل وهي تسند السماعة بين كتفها وأذنها وتكتب شيئاً ما على ملف أمامها:

– هممم؟..

* أسأل عن مريض يسمى (خالد أبنعوف)..

– من؟..

* (خالد أبنعوف).. جاء قبل ساعتين مصاباً بطلق ناري..

هنا كانت تصيح في ممرضة أخرى:

---

20 "Many men, Wish death upon me", by 50 Cent.

21 Virginia Commonwealth University.

– خذي هذا الرجل لصاحب الهبوط الحاد من الطلق الناري..
كانت الممرضة الأخرى تحث السير وهي تصيح:
– ماذا؟..
* المريض في الغرفة 7..
وقبل أن تختفي الممرضة الثانية كنت أجري وراءها حتى توقفت أمام أحد الستائر وأشارت إلى الداخل:
– هنا..
ثم اختفت من أمامي تماماً كأنها تبخرت!..
فتحت الستار ودخلت لأفاجأ برجل يرقد على السرير وحوله كمية لا معقولة من المحاليل الوريدية المعلقة للتي لا أدري كيف قاموا بتوصيلها جميعاً لجسده.. كان (خالد) نائماً – أو هكذا يبدو – فوقفت في صمت أنظر إليه.. يا لسخرية الأقدار! هذا الرجل وصل قبل بضعة شهور فحسب كلاجئ للولايات، وكان أمامه المستقبل بأكمله ليعيشه!.. لا أعرف عنه الكثير غير أنه طبيب ويعمل الآن جامع قمامة بحديقة (آبنر كلاي) بحي (جاكسون)..
لا بد أنه قد مرت عدة دقائق حتى دخل طبيب شاب ما إن رآني حتى قال:
– أنت قريب مستر (أبناءوف)؟..
* صديق.. لا أقرباء لديه..
– حسناً.. هذا كافٍ بالنسبة لي..
نظر قليلاً في الملف الذي يحمله بيده ثم قال:
– الحقيقة أن حالته خطرة جداً.. لقد تلقى طلقاً نارياً في صدره أصاب عضلة القلب بتمزق ونفذ عبر الرئة اليسرى من ظهره..

المشكلة أنه فقد الكثير من الدم قبل أن يصل الطوارئ ولذلك أصبحت الجراحة متعسرة في هذا الوقت.. يمكننا عمل ترقيع لغشاء القلب وعضلة البطين ولكننا نحتاج لكمية معقولة من الدم في الدورة الدموية ليحتمل البنج والعملية.. ما نفعله الآن هو محاولة تنشيط دورته بإعطائه المحاليل الوريدية والدم إن توفرت فصيلة دمه.. حتى الآن النتائج لا تبشر بخير..

مباشر للغاية هذا الرجل! إنه يقول باختصار أن (خالد) يموت بألفاظ طبية منمقة.. سألته وأنا أتوقع الإجابة:

– هل هناك أي شئ يمكن أن أقوم به؟..

صمت قليلاً ثم قال وهو يغادر:

– أدع الله أن يرحمه!..

وقفت قليلاً أنظر لـ(خالد) الشاب المغطى بدمائه وهممت بالخروج حينما فتح عينيه ورآني:

– (محمد)..

كانت تخرج من فمه بصوت خافت يكاد لا يسمع، فاقتربت منه وأنا أقول:

– سلامة وطهور إن شاء الله يا صاحبي..

حاول أن يبتسم بتهالك وهو يرد:

– نسيت إني دكتور صح؟..

لم أعرف كيف أرد ولكنه عاجلني بقوله:

– المهم.. دخل يدك في جيب البنطلون وشيل الورق..

رفعت الملاءة لأجد أنه يلبس لبس المستشفى، يا لغبائي! نظرت حولي فوجدت كومة من الملابس الملقاة بإهمال في الزاوية، نظرت

إليه فهز رأسه.. ذهبت إلى الكومة وقلبتها حتى وجـــدت البنطـــال، بحثت في الجيوب حتى وجدت المذكرة الصغيرة.. رفعتها ونظـــرت إليه فهز رأسه موافقاً..

رجعت إلى جوار السرير وأنا أقلب المذكرة بين يدي مستغرباً..لـــم أكن أعرف أنه يكتب مذكراته..فـــي الحقيقـــة عنـــدما أفكـــر فـــي الموضوع أكتشف أنني لم أكن أعرف عنه شيئاً على الإطلاق! حتى اسمه الكامل اكتشفت أنه (خالد محمد أبنعوف) من غلاف المذكرة!..

نظر إلي وقال:

– المذكرات دي بتحكي قصة حياتي باختصار مخل.. في حاجـــات كتيرة ما اتكتبت..

وصمت لحظة ليأخذ نفساً ثم واصل:

– ما كنت حأنشرها، لكن لازم ما تضيع.. هديها معـــاك اتصـــرف فيها..

نظرت إلى المذكرات ثم إليه وقلت:

– يعني دايرني أنشرها؟..

هز رأسه بلا معنى وقال:

– البريحك.. لو شايفها بتستاهل النشر أنشرها.. أنا بهمني إنو زول تاني يعرف الحصل علي غيري أنا.. أخواني زاتهـــم مـــا عـــارفين القصة كلها..

هززت رأسي متفهماً.. جلست جواره على الأرض فترة لا أعـــرف مداها حتى قال لي:

– إنت مش وراك شغل؟..

* لا ما مشكلة استأذنت..

– كضاب.. أمش شوف شغلك..

* ياخي قلت ليك..

– يا ولدنا البلد دي ما بترحم وما فيها فوضى زي بلدنا.. هنا تغيب بخصموا منك.. اتكل على الله..

قمت واقفاً وأنا أقول في محاولة أخيرة للتسرية عنه:

– حأكلم الشباب أشوف أي واحد فصيلة دمو زيك يجـــي يتـــبرع.. الأمور حتظبط ان شاء الله وقالوا حيدخلوك عملية و..

قاطعني باختصار:

– مش قلت ليك بتنسى إني دكتور؟ دي طلقة ضربت القلب والغشاء بتاعو واحتمال الرئة والأورطة كمان ويمكن في مصايب تانية أنا ما عارفها.. اتكل على الله، بس تعال مر علي بعد ما تخلص دوام كان الله كتب لي عمر..

ودعته وغادرت وأنا أعلم أنها ستكون المرة الأخيرة للـــتي أحـــدثه فيها..

(4)

مارس من عام 2002م..

انتهينا من فترة الإمتياز وقمنا بالتسجيل في المجلس الطبي السوداني.. أنا الآن طبيب مسجل ممارس للمهنة، ييبي!..

حينما دخلنا كلية الطب كنا مليئين بأحلام الشهرة والثراء، متخيلين أن الطبيب بمجرد أن يتخرج سوف يكون له عيادة خاصة وكما في المسلسلات المصرية (التي لم يكن تلفزيوننا القومي يبث سواها هي ومسلسل أوشين الصيني ذي المائتي حلقة ومسلسل ألانا) فإن الطبيب يحمل شنطته ليعاين المريضة (سو سو) التي صاح فيها زوجها غاضباً ومن شدة رقتها سقطت مغشياً عليها، فيدخل الدكتور ويمسك يدها وهو ينظر في الساعة ثم ينهض ويقول: مبروك مراتك حامل!.. طبعاً لم استطع أبداً أن استسيغ تشخيص الحمل عبر قياس النبض، دعك من أنني لم أكن أعرف حقيقة أن الطبيب ينظر للساعة ليقيس معدل النبضات في الدقيقة!..

يذكرني ذلك بالمسلسل المصري القديم الذي لا أذكر اسمه ولكن أذكر أن البطل كان (أحمد بدير)، حيث زوجوه لفتاة غصباً عنها، فلم تكن تقربه وكانت تقفل نفسها في الغرفة أو الحمام لتهرب منه حتى لا يضربها أو يغتصبها، وبعد فترة صارحته بأنها حامل وعندها تحسنت علاقتهما! لو كنت مكانه لذبحتها بالسكين! حامل من فين يا بنت الكلب؟..

على كل حال كانت فكرتنا عن الطب ساذجة جداً، فنحن لسنا كطلاب اليوم الذين يعرفون أي شئ عبر فتح الموبايل الذكي وسؤال الشـــيخ (جوجل).. نحن جيل جاء في منتصف حضارتين، حضـــرنا جهـــاز الكمبيوتر الضخم الذي يشبه البرج ولذلك كان يطلق عليـــه (tower CPU) وحضرنا استعمال الأقراص المرنة بحجميها 3 ونصف و 5 وربع بوصة (Diskettes) قبل ظهور السي دي، وعاصرنا شاشـــة الدوس السوداء (MS-DOS) بعلامتها الوامضة التي تسمى المؤشر (Cursor) كما استمتعنا أيما استمتاع بنسخة ويندوز العظيمة 3.11 الداعمة للغة العربية والتي كانت فتحاً في عـــالم الكمـــبيوتر! لعبنـــا بألعاب شركة (صخر) التي كانت تنافس (نينتندو) في عقولنـــا ذلـــك الوقت إذ كانت المنتج الوحيد للألعاب والبرامـــج العربيـــة تقريبـــاً، وقضينا ليالي ساهرين نلعب بالأتاري الذي كان قمة التطـــور فـــي ألعاب الفيديو.. وفي نفس الوقت حضرنا الآيفون والآيباد والإنترنت الواي فاي، فأصبحنا نجمع شتات عالمين: عالم قديم وعـــالم جديـــد، ولكننا جيل مشوه ضائع، فنحن لا نستطيع أن نتحـــدث مثـــل آبائنـــا فنقول: هيبيه أين أيام زمان؟ أين أيام سهرة أم كلثوم يوم الخميس؟.. وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نتحدث مثل شباب عالم اليوم فنقول: واززاب هومي؟ و(أو إم جي)! وأنتم رجعيون أيها الكبار!..

أقول كنا ساذجين جداً فلم نعرف أي شئ عن العالم المقـــدس للـــذي نحن داخلوه برهبة، رغم أنني أذكر أن عميد كلية العلوم دخل علينـــا في أول محاضرة لنا في القاعة الكبيرة بكلية العلوم بجامعة الخرطوم

والتي تسمى (OLT)[22] وقال بوضوح: أنتم تظنون أنكم دخلتم الطب لتتخرجوا وتصبحوا أغنياء وأطباء مشهورين؟ أنا آسف لأنني هنا لأحطم لكم هذا الوهم.. الطبيب أكثر شخص مشغول، متعب، مزنوق، مفلس، مطالب بأداء واجبات تعجز عنها الجبال ولكنه غير مسموح له بأن يقول كلمة (آي) أو أن يتضايق.. لو أردتم نصيحتي أفيقوا من الوهم واعرفوا ما أنتم مقبلون عليه حتى تتوفروا على أنفسكم الكثير من الألم فيما بعد!..

يا لك من حكيم أيها الراهب! ما زالت كلمات الدكتور (وهو دكتور في علم تشريح الحيوان Zoology بالمناسبة) ترن في أذني حتى اليوم، فهو الرجل الوحيد من بين عشرات الأساتذة الذين مروا علينا والذي أعطانا الحقيقة المبسطة بهذا الوضوح..

طبعا أنا الوحيد الذي ركز في كلام الرجل! بقية الدفعة كانت إما منبهرة لأنهم يرون الأسطورة الذي كان يضع امتحانات الشهادة مستحيلة الحل للأعوام السابقة، أو محبطون لأنهم لم يكونوا يتخيلون الرجل هكذا: أصفر، قصير، أشيب الشعر، يدخن كقاطرة قديمة حتى وهو داخل القاعة يعطي درساً!..

وقد تبينت لنا حكمة الرجل بعد أن تخرجنا من الكلية وذهبنا لأداء القسم الطبي في المجلس الطبي السوداني.. دخلنا بمنتهى الفخر (فنحن أطباء الغد) لنفاجأ بوجود ثلاث دفعات من جامعات مختلفة – غير دفعتنا – تنتظر أداء القسم! وكان التعامل من لُفراد الحراسة والأمن (الذين أريد أن أقول لهم من هذا المنبر أنهم ليسوا أفراد شرطة بالمناسبة فعليهم أن يعوا ذلك!) في منتهى القسوة والاحتقار..

22 Old Lecture Theater (OLT)

تخيل فاقداً تربوياً لم يكمل الثانوية تتاحله فرصة التحكم في مجموعة تزيد على السبعمائة من خريجي الجامعات! فلترحمنا السماء!..

طبعاً كان الجميع منغمسين في السعادة البالغة جراء أداء القسم والتحول لأول مرة من (طالب طب) إلى (طبيب).. والغريبة أنني لم أكن أشاركهم السعادة، فنظرتي السوداوية في الحياة تجعلني دائماً أنظر للخلف بينما الناس ينظرون للأمام، أو كما قال (رفعت إسماعيل)[23] ما معناه: حينما تدخل فتاة جميلة للغرفة وينظر نحوها الجميع، أنظر أنا لوجوه الرجال لأرى تعابيرهم بدلاً عن النظر للفتاة!.. في هذا الوقت كنت أدون ملاحظاتي الذهنية عن طريقة تعامل الحرس معنا ونحن أطباء، بل عن طريقة تعامل الأطباء الكبار نفسهم معنا، وعرفت تلك الحقيقة المرة: أنت في القاع وستظل في القاع! من تحتك يحقد عليك لأنك (دكتور) وهو ليس كذلك، ومن فوقك يدوسك لكيلا تصبح مكانه يوماً ما! فأنت إذاً بين فكي (الزردية)!..

وأثناء عملي في الإمتياز عرفت أن طبيب الإمتياز هو الوصف الوظيفي المعتمد لعاهرة المستشفى.. اعذرني على اللفظ ولكن لا أجد وصفاً أفضل من ذلك.. حينما يقول لك نائب الأخصائي (الذي هو كل دنياك لأنك تجري وراءه اليوم كله، فالأخصائي ليس متفرغاً ليكون معك): طبيب الامتياز هو كائن نشيط غير فعال (Active,

23 د. رفعت محمد إسماعيل، بطل سلسلة روايات ما وراء الطبيعة، من تأليف العبقري د. أحمد خالد توفيق، ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.

non-productive organism) فأنت تعرف أنك في القاع!..

حينما تذهب للسستر وتقول لها بكل تهـذيب لأنـك تريـد ملاءة لأن المريض (س) داخل لغرفة العمليات حالاً لإجراء عملية استكشـاف مستعجلة، فترد عليك بكل قرف وهي تغلق الباب في وجهـك: مـا عندنا يا (...) وتناديك باسمك المجرد! ثم تتعالى الضحكات الماجنة من الداخل، بينما يأتي نائب الأخصائي فتضحك معه قليلاً وتقول له: افتح الدولاب شيل ملايتك يا (دكتور) فلان! عندها تعرف أنك فـي القاع!..

حينما تحاول الحديث مع أهل المريض وتخبرهم بحالة ابنهـم وهـم يستمعون لك باهتمام بالغ، ثم ما إن يروا نـائب الأخصـائي حـتى يتركوك واقفاً كالأهبل ويجروا نحوه سائلين: يا دكتور! أهـا ولـدنا كيف؟ عندها تعرف أنك في القاع!..

حينما تأتي مجرجراً رجليك داخلاً للحوادث فأنت نبطشـي اليـوم، فيوقفك رجل الأمن ويسألك عن بطاقتك، فتعطيه لها فينظر فيها ثـم يعيدها لك قائلاً وهو يدير وجهه: خش يا امتياز! عندها تعرف أنـك في القاع!..

والخلاصة أن عمل طبيب الإمتياز هو أن يكون "فهلوياً" يستطيع أن يفعل أي شئ ويحضر لبن الطير لو طلبه منه النائب:

- العيان فلان حالة حرجة ويحتاج نقل دم.. أجري يا (...) أقنع بنك الدم يدونا كيس! اتصرف وما تجيني بدون كيس دم! ومعاك كبايـة شاي وانت جاي!

- العيان التاني حندخلو عملية بعد نص ساعة.. أمشي يا (...) أرفع

إخطار للمحضّر وإخطار للمخدّر وجيب ملايات من السستر وكلـــــم أهلو يجيبو دربين ملح وكانيولا وتلاتة إبر فاضية! ومعاك كباية شاي وانت جاي!

– العيان ده عندو خراج وأنا ما فاضي داخل عملية.. أمشي أفتحـــو ليهو! * بس أنا ما بعرف يا بوص؟ – أووووففـــف!!!نــــاديلـــي (علي) خلي يمشي يفتحو أجري سريع! ومعاك كباية شــــاي ولنـــت جاي!

– العيان محولينو مستشفى الخرطوم قسم الجراحة.. أجري أركـــب معاهو الإسعاف ووصلو حوادث مستشفى الخرطوم (وضمنياً أقنـــع ناس مستشفى الخرطوم إنو يستلموهو بعد ما يتعاملوا معاك بمنتهـــى الاحتقار: إمتياز؟ وكمان جاي من مستشفى طرفي؟ إيه الكفر الإنـــت فيهو ده؟).. وبالمناسبة، معاك كباية شاي وانت جاي!

* * *

كنا قد انتهينا من فترة الإمتياز بما تحمله من ذلة ومهانة ولا إنسانية، وقمنا بالجلوس لامتحان المجلس الطبي للتســـجيل للـــدائم كأطبـــاء ممارسين.. وهو امتحان باهت الملامح هلامي التكوين لا محل لــــه من الإعراب.. كيف؟ جيد أنك سألتني..

كل امتحانات الدنيا لها مراجع تقرأ منها وامتحانات قديمة تحلها لتفهم طريقة الإمتحان.. إلا امتحان المجلس الطبي السوداني.. ما لديك هنا هو مجموعة من الشيتات (لمـــن لا يعـــرف الشـــيت Sheet فهو مجموعة من الأوراق المجموعة تحت مسمى واحد،بـــالعربي هـــي المذكرة)، وهذه المجموعة من الشيتات كتبها بعض أباطرة الطب في يوم ما، لا نعرف من هم لكننا مدينون لهم للأبد..

والشيتات عبارة عن مجموعة من الأسئلة بحلولها.. والمصيبة أنك لا بد أن تقرأ الشيتات جميعها وتحفظها صماً! لماذا؟ لأن الإجابات كلها غير منطقية وغير معقولة وتناقض ما درسناه من طب، ولكنها هي الإجابات الصحيحة!..

أما أسماء الشيتات فهي كائنات غريبة جداً: فهذا اسمه أبو نجمة (لأن الإجابة الصحيحة أمامها علامة نجمة)، وهذا الأبيض والأحمر وذاك الأصفر (لأن الإجابة الصحيحة مضاءة بخلفية صفراء في ملف وورد).. صدقني أنا لا أمزح! هذه بعض أسماء المذكرات للتي استخدمناها لندخل امتحان التسجيل للدائم.. كنت تذهب لمحل التصوير فتقول له: بالله اتنين أبو نجمة يا (إبراهيم)! فلا يعرف من يكون حاضراً هل أنت داخل لورشة ميكانيكي تطلب مفكاً أم أنه محل تصوير؟..

وحينما دخلنا امتحان المجلس الطبي – وقد كانت أول مرة يقام الإمتحان بالنظام الالكتروني بدل الورقي – فقد قمنا بإجابة الأسئلة بالطريقة الخاطئة التي ذاكرناها من قبل وألغينا عقولنا تماماً داخل الإمتحان، والمفاجأة: نجحنا جميعاً! وكل من حاول تشغيل عقله فشل في الإمتحان..

والخلاصة أننا انتهينا من الامتياز وقمنا بالتسجيل في المجلس الطبي، واستخرجنا تلك البطاقة الجميلة من اتحاد الأطباء والتي تقول أنك طبيب مسجل، لنلتفت ونجد أننا أمام مصيبة أكبر: الخدمة الوطنية..

* * *

في ذلك الوقت كانت عيناي قد فتحتا على الدنيا وعرفت هذه الحقيقة: أنا لا أستطيع أن أكون طبيباً! أنا لا أستطيع أن احتمل كل هذا السخف وقلة الأدب!..

بعض الناس يعتقد أن وظيفته في الدنيا هي أن يأتي للمستشفى ويضايق الدكتور.. لماذا؟ لأن الدكتور الزنديق يجلس في الحوادث يحادث الفتيات الجميلات ويقوم بمشاغلة البنات أقرباء المرضى، وفوق كل هذا فهو يأخذ مالاً لبداً جراء عدم عمله.. دليلك؟ دكتور فلان الفلاني استشاري الجراحة حينما ذهبنا لنقابله في العيادة اضطررنا لدفع مبلغ وقدره، ثم انتظرناه ساعات حتى نزل من عليائه وقابلنا!.. طبعاً أنت لا تستطيع أن تقنع هذا الشخص بأن ما يفعله الإستشاري الكبير في عيادته ليس له أي علاقة بما تمارسه أنت من سحر أسود لعلاج المرضى في الحوادث الحكومية، تقريباً بدون إمكانيات! وحتى لو حاولت أن تدفع للمريض من جيبك (وهو ما يحدث في حالات كثيرة) فإن يدك غالباً ما تخرج خالية لأن جيبك خالٍ من المال.. هذا ليس دفاعاً عن كل الأطباء فهناك الوغد الذي يجلس في الحوادث يحادث الفتيات الجميلات ويقوم بمشاغلة البنات أقرباء المرضى، ويأخذ مالاً جراء عدم عمله!..

الخلط في ذهن العامة بين صورة كبير الاستشاريين الذي يظهر بالبدلة والكرافتة في التلفزيون، وأي طبيب آخر من فئة نائب الأخصائي وما تحتها (وتشمل النائب، الطبيب العام وطبيب الامتياز) خلط كبير جداً ويصعب تصليحه.. هؤلاء أساتذتنا وكبارنا نعم ولكن بعضهم (أقول بعضهم وليس كلهم) للأسف قد ضرب أمثلة سيئة في التعامل حتى مع زملائه من الأطباء، ولكن هذا لا يمكن أن يمتد

ليشمل جميع قبيلة الأطباء – صغيرهم وكبيرهم!..

أذكر أنني كنت في زيارة لجدي من ناحية أمي (رحمة الله عليهم جميعاً) وذلك في مسقط رأسه في شمال السودان، وكان مريضاً في بداية مراحل الفشل الكلوي المزمن، فذهبت معه لنقابل طبيباً ما، وحينما دخلنا للطبيب أخبرته بأنني طالب طب – فقط لأعرف التشخيص الحقيقي وليتحدث معي بطريقة علمية لا أكثر.. وكان الرجل مهذباً وشرح لي كل شئ فعلاً، وحينما كنا خارجين أخذ ورقة صغيرة وشخبط فيها شيئاً ما وقال لي:

– أعطها للشاب الجالس في الخارج..

وحينما خرجنا أعطيت الورقة للشاب الجالس على كرسي ينظم دخول المرضى للدكتور.. وأقسم لك أن الورقة ليس بها أي شئ مقروء فأنا كنت في سني الطب الأخيرة وأستطيع فك شفرة خط الأطباء، ولكن الشاب ألقى نظرة واحدة للورقة ثم أخرج مالي للذي دفعته للمقابلة وأعاده لي بهدوء!..

وقد حاولت أن أرجعه ولكنه رفض لأن تلك أولمر للدكتور.. وحاولت أن أعود للمقابلة ولكنه رفض إدخالي مرة أخرى.. هذا موقف لا أنساه أبداً من طبيب لا أذكر اسمه ولكنه أعطاني درساً في الإنسانية واحترام الزميل سأظل أحمله جميلاً في عنقي ما حييت..

وعكس ذلك تماماً، أذكر تلك الليلة حينما كنت ساهراً في طوارئ المستشفى بالمملكة، وكان الليل هادئاً ولا مرضى هناك.. وفجأة دخل علي شاب وجلس أمامي صامتاً، فأخذت ورقة المقابلة وقرأت اسمه ثم سألته:

– ايش المشكلة يا (...)؟..

* مو إنت الدكتور؟ إنت شوف إيش المشكلة؟..

ابتلعت الإهانة طبعاً لأنني أعرف ما يريد هذا الفتى.. يريدني أن أنفجر وأصيح ليجد له موضوعاً يفتح به شكوى في الصباح حول الدكتور الأجنبي الذي أتت به الحكومة ليعالجنا ولكنه بدلاً عن ذلك يهيننا!.. سألته بهدوء:

– يعني ما تشتكي من أي شيئ؟..

* لا ما بي شئ.. جيت لأنو شايفك جالس بدون شغل قلت أحلل لك راتبك!..

هذه كانت بسيطة! الأجمل منها حينما جاء ذلك الشاب الآخر وجلس أمامي وسألني مباشرة:

– كم راتبك؟..

صمت لحظة لأبتلع هذا السؤال، ثم رددت بتلقائية:

– إيش خصك أنت؟..

طبعاً كادت عينا الشاب تقفزان خارج رأسه وهو يتعجب من هذه الوقاحة! وأعاد السؤال وهو يشير بإصبعيه السبابة والوسطى:

– أقول.. كم راتبك إنت؟..

صمت لحظة، فهذا من النوع الحمار الذي لن ينفع معه إلا حل واحد: أن أعطيه رقماً كبيراً جداً أو صغيراً جداً بدرجة غير معقولة! فقلت:

– مية..

* مية إيش؟..

– مية ألف..

* مية ألف ريال؟..

– أيييييوا.. مية.. ألف.. ريال..

* ليييش مية ألف ريال؟ أنت أجنبي وتاخذ مية ألف ريال؟..

– والله قدامك الإدارة امشي اسألهم!..

طبعاً خرج الشاب ثائراً من العيادة واستبعد أنه ذهب للإدارة، لأنه لو ذهب وسألهم: ليش الأجنبي السوداني ياخذ مية ألف ريال؟ فسوف يرمونه خارج المكتب، هؤلاء القوم لا يمزحون خاصة حينما يكونون مشغولين بشرب القهوة!..

يقول عنترة بن شداد في معلقته:

نُبِّئْتُ عَمراً غير شاكرِ نعمتي والكفر مخبثةٌ لنفس المنعمِ

إذاً كفر النعمة يورث الخبث في نفس المنعم فلا يرغب في فعل الخير مرة أخرى!.. يا أخي أنا لا أطالب أن تبوس يد الدكتور الذي عالجك، فالدكتور لا يطلب شكراً على عمله، ولكن أقول: فليقل خيراً أو ليصمت!.. من العبقري الذي قال: (اثنان لا تثر غضبهما: من يعالجك ومن يطبخ طعامك؟).. على الأقل لو لم تكن تحترم الدكتور فليس هناك سبب لتحتقره!..

أذكر ذلك الاستشاري الذي كان يتحدث في الفترة التي بدأ فيها الأطباء اعتصاماً للمطالبة بحقوقهم، كان الرجل يقول ما معناه: (بقولو الأطباء معتصمين ليه؟ وين الإنسانية؟.. يا سلام! أنا لما أطلع الصباح أودي الأولاد المدرسة أديهم مصروفهم إنسانية؟ العربية دي أكب فيها انسانية بعشرة جنيه عشان أجي الشغل؟).. أعتقد أنك تفهم الرسالة: الطب مهنة إنسانية ولكن الطبيب إنسان أيضاً!..

كنت قد بدأت أشتاق للمريض السوداني المسكين للذي يمكن أن تركبه كالحمار بالمقلوب ولكنه يسكت ويقول: الحمد لله.. طبعاً ليس كل المرضى كذلك، خاصة في الفترة الأخيرة التي صار الإعتداء على الطبيب سمة عامة!.. ولكن مرضاي في ذلك الوقت على الأقل كانوا على درجة عالية من التهذيب واحترام الطبيب.. حينها عرفت لماذا كان كل الأطباء الذين قابلتهم أول حياتي المهنية والذين كانوا عائدين من السعودية، لماذا كانوا على قدر مبالغ من التهذيب مع المرضى، لماذا كانوا هادئين جداً مهما ثار المريض، لماذا تحس أن أحدهم يكاد يلثم يد المريض وهو يوصله للخارج!..

أقول أنني كنت قد بدأت أعي تلك الحقيقة المرة: أنني لا يمكن أن أكون طبيباً!.. ولكن ما الحل؟ أنا لدي محاولات شعرية متواضعة ولكنها لا ترقى طبعاً لمستوى أن أترك الطب وأعيش على عائدات دواويني الشعرية..
كما أن العتبة كانت لا تزال قائمة أمامي: فأنا قد انتهيت من الامتياز، ولكن لا زالت أمامي الخدمة الوطنية..
ولمن لا يعرف فإن الخدمة الوطنية هي نبت شيطاني خرج من عباءة الحكومة ليركب على ظهور الشباب، وقد سبق ذلك إنشاء منسقية الدفاع الشعبي، حيث... انتظر، أنت لن تفهم هذا ما لم نرجع الشريط للبداية..

البداية يا سيدي كانت في 30 يونيو 1989 حينما جاءت الحكومة بانقلاب عسكري هندسَهُ عرّاب الأخوان المسلمين في السودان د.

حسن الترابي.. في تلك الفترة كانت الحركة الإسلامية تضرب بيد من حديد كل معارضة، وكانت الروح الإسلامية في أشدها، وتمت تسمية الحركة بالاسم الحركي (الكيزان) استناداً للرواية التي تروى عن حسن الترابي أنه قال: الدين بحر ونحن كيزان نغرف منه..

وشدة الضرب هذه كانت تصل مراحل بعيدة جداً لدرجة أن التعلم بالدولار كان ممنوعاً بل حراماً تاماً في ذلك الوقت، وأذكر قصة التاجر القبطي الذي لا أذكر اسمه والذي أعدموه في تلك الأيام لأنهم وجدوا معه بضعة آلاف من الدولارات!.. فلوس الحرام! قروش الخواجات أولاد الكلب!.. يا أخي هو تاجر وفوق ذلك هو مسيحي فما دخلك أنت بفلوسه؟..

أقول لك ذلك لتفهم أن الروح الإسلامية التي كانت تشتعل في هؤلاء القوم في ذلك الزمن كانت قوية وقاهرة، فلو حاولت أن تقف في وجهها ستجرفك وسيتم تكفيرك وتقتل ولا بواكي لك.. تذكر حرب الجنوب التي استمرت لحوالي 21 سنة حين كان تلفزيون السودان يعرض برنامج (ساحات الفداء) الذي يتحدث عن المجاهدين الأوفياء الذين توفوا في ساحات القتال، وكانت تعرض دعايات متكررة تقول عن جون قرنق أنه مخلب القط، وترسمه بدماء حمراء تسيل من على يديه – أو بالأصح مخالبه، فهو مخلب القط! ومعنى مخلب القط أنه ذريعة أمريكا لتعيث في السودان فساداً.. وكان النشيد الحماسي الذي تغنيه فرقة الصحوة ويصدح به الشباب:

(كايسينو كايسينو.. ما لاقينو..

جون قرنق كايسينو.. وما لاقينو..

دايرين نطير جنو.. ما لاقينو..

دايرين نكسّر سنّو.. وما لاقينو..)

وفجأة حينما تم توقيع اتفاقية نيفاشا 2004م تغيرت لهجة قناة السودان تماماً لتتحدث عن (دكتور) جون قرنق رجل السلام، وترى فيديو الرئيس وهو يمسك يد جون قرنق (أم كان سلفاكير؟) ويصيح: هالالويا! الله أكبر! نعم من كان يصيح هو الرئيس لوحده باللغتين – أو بالأصح بالدينين!.. هذا بعد أن تعلم أن مشكلة الجنوب ليست وليدة الأمس، بل إن الصراع بين الشمال والجنوب كان قد بدأ قبل الاستقلال عن المحتل الإنجليزي، فالاستقلال كان في 1956م وبداية المشكلة كانت في 1955م!..

ما أقوله هو أن مشكلة الجنوب قديمة جداً ولا علاقة لها بالدين الذي صبغه بها الإسلاميون، هي حرب سياسية اقتصادية وليست دينية بتاتاً.. ولكن كيف يقنع هؤلاء الشعب بالخوض في حربهم السياسية؟ بتدينها طبعاً!.. وهذا ما كان.. تم إنشاء منسقية الدفاع الشعبي للتي قامت بتجنيد خيرة شباب البلد ودفعتهم لأتون الحرب حيث ماتوا جميعاً وهم مقتنعون أنهم يدافعون عن الله والإسلام وللوطن..ثم انقرض الجيل الواعد المؤمن بالقضية وصار أمام الجماعة مشكلة: من أين يأتون بمجموعة من الهُبُل يدفعونهم في أتون الحرب؟..

لم تكن الأوضاع كالسابق فشريحة كبيرة من المواطنين كانت تتذمر وتشكو وتخبئ أطفالها بعد أن فقد كل بيت شاباً أو اثنين، دعك من مصيبة أن الشباب كانوا يذهبون للحرب بإرادتهم مقتنعين أنهم يحاربون في سبيل الله!.. عند ذلك جاء هذا الاختراع الأسوأ وأضل سبيلاً: منسقية الخدمة الوطنية.. والفكرة من ورائها بسيطة جداً:

التجنيد الإجباري!..

والتجنيد كان يتم طبعاً لكل من أتم الثامنة عشرة ولم يؤد الخدمة العسكرية.. أنا أتفهم أن التجنيد العسكري موجود في كل دول العالم وأن الشباب يؤدون الخدمة العسكرية لبلادهم، ولكن ما أتحدث عنه هنا ليس خدمة وطنية بل شئ آخر!..

أتذكر أننا كنا في المراحل النهائية من التعليم الأساسي وكانت تعليمات الأهل صارمة جداً: يمنع التلفت يميناً أو يساراً بعد المدرسة، الرجوع للبيت مباشرة! يمنع اللعب في الشارع بدون وجود شخص كبير معكم! يمنع الخروج بدون أخذ بطاقة الطالب للتي تعفيك من التجنيد!.. يا إلهي إن جلدي يقشعر حينما أتذكر تلك الأيام السوداء!..

أذكر ذلك الشاب الذي كان في المواصلات برفقة أمه، وكبست علينا "الكشة" وهي لوري كبير به عدد من العساكر الذين يجمعون الطلاب ليحملوهم لمعسكرات التجنيد ومنها للجنوب حيث لا يسمع عنهم خبر بعدها!.. كان الشاب مع أمه ولم يكن يحمل بطاقة الطالب، فأراد العساكر أن يرفعوه في اللوري ولكن أمه صارت تصيح وترجوهم أن يتركوه فهو وحيدها! والعساكر لا يهمهم كثيراً فأوامرهم واضحة: أن يرفعوا كل من يجدونه لا يحمل بطاقة إعفاء أو بطاقة طالب أو بطاقة أداء خدمة إلى اللوري.. واستغل الشاب انشغال العساكر مع أمه فخلع سفنجته ليتمكن من الجري جيداً ثم صاح بأمه وهو يجري: أعفي لي يمه!.. ولا أدري ما حدث للأم وولدها بعد ذلك ولكن هذا مثال بسيط عن طريقة التجنيد الإجباري في تلك الأيام النحسات!..

وكم من طفل في طور المراهقة سمعنا أنه اختفى من أمام المنزل

حينما لم يكن بصحبة أحد الكبار ليسمع أهله فيما بعد لأنه في الجنوب.. هذه الحوادث تكررت أكثر من اللازم لتصنف كصدف محضة..

ولأثبت لك أن العساكر اتجاه واحد.. حينما يعطونك أمراً ما، مثلاً (لليمين در)، ثم يريدوا إلغاءه أو عكسه، فإنهم يقولون لك (كما كنت) وهي تعني ألغِ هذا الأمر وارجع كما كنت من قبل.. وفي المعسكر كان لدينا رائد قد شارك في حرب الجنوب وفقد جزءاً من عقله (أو هكذا كانت الشائعات)، وكان كلما وقف ليخطب فينا ويخطئ في شئ ما يهز رأسه ويقول لنفسه: كما كنت! ثم يواصل الحديث!..

ثم جاءت منسقية الخدمة الوطنية وحاولت تقنين الأمر بصورة ما، فصار كل من تخرج من الثانوية وأقبل على الجامعة لزاماً عليه أن يقضي شهرين من التدريب الإجباري في أحد معسكرات الخدمة الوطنية، والتي تفاوتت من حيث القسوة والشدة مع الشباب.. فمنها معسكر المظلات الذي كان يمتاز بأنه في وسط الصحراء فلا تحيط به أسوار شائكة! بل أن الضباط أول أن يستلموا دفعة جديدة من المجندين يشيرون لهم للفضاء الواسع ويقولون:

– الداير يقد سلك يقد.. هداهو زي ما شايفين أصلاً ما في سلك! حتجري وفي النهاية حتجي راجع بكرعيك!..

ومصطلح "قد السلك" يعني الهروب من المعسكر، أو "اختراق الأسلاك الشائكة" لو أردت الترجمة الحرفية.. ومنها جاءت تلك "الجلالة" الساخرة (والجلالة هي أغنية يغنيها العساكر أثناء جريهم وتدريبهم):

(حمادة قدّ السلك وبلغ الملكية..
حراااام حرام يا تعلمجية..)

و(حمادة) استخفاف بالمجند (محمد) طبعاً.. والملكية هم أي شخص غير العساكر، والمعنى أن الولد الضعيف الدلوع (حمادة) قد هرب من شدة المعسكر ورجع إلى أهله الملكية، فحرام عليكم قسوتكم عليه أيها التعلمجية – وهم العساكر المسؤولون عن التدريب!..

وعلى كل حال فقد كانت تلك الفترة السيئة قبل الجامعة.. أما بعد الجامعة فكان عليك أن تؤدي الخدمة في مجالك، فالأطباء مثلاً عليهم أن يؤدوا خدمتهم كأطباء.. تقول وما المشكلة؟ المشكلة أن خدمتك ستكون في بلاد الواق واق وأنك لن تصرف راتباً شهرياً أكثر من خمسين جنيه، هذا لو أعطوك إياه أصلاً ولم تأخذه المؤسسة باعتبارك تؤدي خدمة للوطن! ومدة الخدمة طبعاً سنة كاملة..
إذاً كنت قد تمكنت من الحصول على توزيعي للخدمة داخل الخرطوم وهو شئ من رابع المستحيلات لكن حظي كان جيداً.. وأخبروني في المنسقية أن هناك منظمة تسمى (الأتقياء) الخيرية تحتاج لأطباء بسرعة قصوى ليسدوا في مركز صحي تابع للمنظمة داخل الخرطوم.. طبعاً لم أجادل كثيراً فأنا لم أصدق أن يتم تنسيقي داخل الخرطوم وليس خارجها، فقبلت على الفور بدون مناقشة..
وأعطوني في المنسقية عنوان المنظمة وتلفونها، ومقرها كان في السوق العربي في إحدى العمارات الهزيلة الآيلة للسقوط.. طبعاً كان واضحاً أنها منظمة (كيزانية) من قمة رأسها حتى أخمص قدميها،

تذكر أنني قريب عهد بالسياسة إذ كنت أمارس السياسة أثناء الجامعة، فيسهل علي إذاً تصنيف الناس من لحظة لقائهم..
وقد شممت رائحة (الكيزانية) منذ أن وطئت قدماي أرض الشقة.. شقة متهالكة تعسة طلاؤها تساقط ولكن هناك وهنا آيات قرآنية مذهبة متقنة الصنع معلقة على الحوائط.. لا يوجد أثاث ولكن مكتب رئيس المنظمة في غاية الفخامة – وصراحة لا أعرف كيف أدخلوا هذا المكتب هنا؟ الباب ضيق والزوايا حادة للغاية.. ذكرني ذلك بكاركتير رأيته يمثل رجلاً سميناً داخل غرفة على مقاسه وهناك رجل واقف يقول:
– أصل هو قعد أول بعدين بنوا عليه الغرفة!..

أما رئيس المنظمة نفسه فحدث ولا حرج! فخامة في الحجم وبسطة في الجسم والصحة، ثيابه بيضاء تذكرك بريش الملائكة وعمامته تنافس عمامة (ترباس)، وعلامة الصلاة على وجهه تكاد تشع نوراً! وفوق كل هذا فالرجل نظيف بطريقة تجعلك تخشى أن تلمسه لئلا توسخه..

((يذكرني هذا بقصة صاحبنا الطريف حينما كنا في الجامعة.. وهي قصة لا أتهمه بالكذب فيها لأنني أعلم أن الفتى كان مطارداً بسوء حظ ينافس سوء حظي ولكن الفرق أن حظه كان دائماً ما يضعه في مواقف طريفة هذا أحدها..
يقول صديقي أنه كان خارجاً بسيارة أبيه من بيتهم بالعمارات، ودخل من الشارع الفرعي لشارع المطار (قبل أن يوسع شارع المطار

ليصير ستة مسارات)، وبينما هو يدخل الشارع مستغرباً من خلـــوه من السيارات لم ينتبه لموكب نائب الرئيس، فـدخلت سـيارته بيـن المواتر التي تسبق الموكب، واستطاع راكب المـوتر الأول تفـادي السيارة بصعوبة، وتمكن الثاني من التوقف بصرير مزعـج.. هنـا انتبه صاحبنا ورأى فجأة اثنين من الغوريلات البشرية تنقضان على سيارته فانكمش في مقعده خائفاً.. وجاءت الغوريلا الأولى وبـدأت تضرب الزجاج المجاور للسائق بكعب المسدس، فبدأ صاحبنا ينـزل الزجاج، ولكن الغوريلا لم تمهله فحملته بيد واحـدة خلال الزجـاج وألقته على كبود السيارة، ووجد مسدسين مصوبين نحو رأسه..
هنا كان صاحبنا يرتجف هلعاً ولا ألومه لو أفرغ مثانته في سرواله، ولكن نائب الرئيس أشار للغوريلات مـن داخـل سـيارته فحملـوا صاحبنا وأوقفوه أمام شباك السيارة المرسيدس.. ويقـول صـاحبي معلقاً: الراجل ده أنا أول مرة أشوفه من قريب، الزول ده أسود زينا لكن نضيف نضافة!.. والخلاصة أن نائب الرئيس عرف من وجهـه أنه شاب تائه لا علاقة له بالتنظيمات الإرهابية ولا يريدبـه سـوءاً فأخبره ضاحكاً أن (يعمل حسابه المرة الجاية وهو داخل الشارع) ثم انطلق الموكب تاركاً صديقي ينظر لسرواله..))

أعود لرئيس المنظمة، فهو كان رجلاً نظيفاً بصورة مخيفة.. سلمت عليه ودعاني للجلوس وأخبر السكرتيرة التي تشبه المسواك بنظراتها المرتعبة أن تحضر لي عصيراً (اكتشفت فيمـا بعـد أن نظراتهـا المرتعبة سببها النظارة قعر الكوب التي تلبسها)..
وفي هدوء أخبرني أنهم منظمة جديدة ولذلك ليس لديهم مقر محـترم

مثل بقية المنظمات.. ثم أخبرني أنهم طلبوا أطباء ليغطوا في مركزهم الصحي بقرية (حطاب) شمال الخرطوم..

أصدقك القول أنني لم أسمع بـ(حطاب) هذه من قبل، واضطررت لأن أسألهم عدة مرات عن الوصف.. واتضح فيما بعد أنها قرية خارج خارطة العالم، لا يوجد بما إمداد كهربائي ولا مائي وشبكة المحمول ضعيفة للغاية..

طبعاً كان الأوان قد فات للتراجع، فرئيس المنظمة قد استلم أوراقي وأبلغ المنسقية باستلامي للعمل، فما كان مني إلا أن توكلت على الله في اليوم التالي وقرأت دعاء السفر، وأشعلت محرك سيارة والدي (الهايلوكس) القديمة حتى زمجرت ثم توكلت على (حطاب)..

(5)

(حطاب) يا عزيزي اسم على مسمى، فأنت تتخيل أنك في غابة في عاصمة السودان الحضارية!..

وقبل أن تتهمني بالمبالغة ينبغي أن تعرف وصف المنطقة..

هل تعرف كيف تصل لمنطقة (السامراب) بالخرطوم بحري؟ جميل جميل.. خذ شارع (السامراب) الرئيسي واتجه شرقاً حتى تغادر (السامراب).. سوف تجد نفسك في الخلاء.. استمر في المسير.. سوف تجد قرية صغيرة اسمها (نبته)، لا تخف لن تضل الطريق فهو شارع واحد لا غير!.. واصل شرقاً حتى تغادر (نبته)، سوف تجد سوقاً للخضار، هذه (دردوق)، واصل شرقاً حتى تجد الخلاء مرة أخرى.. قد سيارتك مسافة عشرة دقائق وستجد قرية صغيرة على يسارك، هذه هي (حطاب)!..

ماذا تقول؟ ليس معك سيارة؟ إذاً أقترح أن تأخذ أوراقك وترجع للمنسقية ليعيدوا توزيعك في واق الواق يا صديقي..

إذاً وصلنا (حطاب)؟ جميل جميل.. هل ترى ذلك السور المنخفض على يسارك والذي يحيط بطريقة خجولة بغرفة واحدة وحوش صغير؟ هذا هو المركز الصحي!.. ترجل من سيارتك واتصل على مدير المركز الذي أخذت رقمه من المنظمة.. ثوانٍ من الرنين ثم يأتيك الصوت الناعس:

– ألو؟..

* أيوة.. الحاج (علي) مدير مركز (حطاب)؟..

– أيوة.. منو معاي؟..
* أنا دكتور (خالد) جاييك من طرف منظمة (الأتقياء)..
– أيوة يا دكتور مرحب! إنت وصلت (حطاب)؟..
* أيوة أنا قدام المركز..
– خلاص دقائق وبكون معاك.. (كليك)..

أشعلت سيجارتي ووقفت منتظراً.. في ذلك الوقت لم تكن سيارتي بها راديو (إف إم) فهي موديل 92 بدون مكيف! ومحطات الراديو التي تستقبلها هي (إي إم) وهي محطات ديناصورية منقرضة.. كنت قد اشتريت من السوق ذلك الشريط الذي يمكن وصله بسلك لفتحة السماعة في الموبايل ويمكنك تشغيل الكاسيت كسماعة (لم أكن محظوظاً باقتناء جهاز البلوتوث الذي يستقبل أصبع الـ(USB) ويبث الأغاني على تردد إف إم).. أوصلت الكاسيت بموبايلي النوكيا وقمت بتشغيل بعض الأغاني لكسر حاجز الصمت..
وبعد عشر دقائق وصل الحاج (علي) وهو يلهث من المشوار والحرارة:
– يا دكتور.. هف هف.. ما أكون اتأخرت عليك؟..
* العفو ماف تأخير..
أخرج الحاج من جيبه سلسلة مفاتيح تليق بحرامي بيوت محترم، وأخذ يجرب المفاتيح وهو يعتذر:
– معليش يا دكتور أصلو لينا فترة ما فتحنا المركز..
* ولا يهمك يا حاج..
أنهيت آخر نفس في سيجارتي حينما فتح الحاج القفل وأعطى الباب

دفعة قوية وهو يقول:

– باليمين يا دكتورنا! بسم الله!..

دخلت خلفه المركز لأفاجأ بالبساطة.. مبنى صغير أمامك يتكون من مدخل متواضع وغرفة للطبيب على اليمين، وتوجد غرفة صغيرة على اليسار للتطعيم والتوليد وتركيب الدربات وربما عرض الأفلام السينمائية.. خرجت من الباب الخلفي لأجد نفسي في المدخل مرة أخرى!.. دخلت غرفة الطبيب لأجد الحاج (علي) ممسكاً بقطعة قماش قذرة وهو يضرب بها الكرسي والطاولة في محاولة يائسة للتنظيف:

– معليش يا دكتورنا.. كح كح! المركز ليهو زمن مقفول..

قدرت في سري أن الزمن الذي يقصده لا يقل عن قرن من الزمان.. جلست على الكرسي الذي ازداد اتساخاً بمحاولات تنظيفه وسألته مشيراً للمروحة المعلقة في السقف:

– الكهرباء قاطعة؟..

ضحك الحاج (علي) حتى كاد يسقط على ظهره ثم قال:

– ما قاطعة يا دكتورنا..... لأنو ماف كهرباء!..

ومن نظرة الاندهاش التي علت ملامحي أكمل مفسراً:

– عندنا (بابور) جاز بننور بيهو..

وقبل أن استرخي في المقعد ارتياحاً بادرني:

– لكن ما عندنا جاز!..

يا ألطاف الله! سألته محاولاً ألا أبدو لئيماً:

– وبتشغلوهو كيف طيب؟..

* ما قلت ليك يا دكتورنا لينا زمن ما فتحنا المركز..

ثم جلس على طرف الطاولة مقرراً أن يشرح بإسهاب:

– أصلو أنا تاجر، بعدين بنيت المركز دة بالاشتراك مع واحد صاحبي.. أها المركز ما جاب قروش لأنو العيانيين بمشو السامراب.. صاحبي أصر يفض الشركة وقال دليل قروشو.. الصراحة أنا الفي جيبي كبيتها في المركز فقدرت بصعوبة أديهو قروشو وما فضل لي شئ.. أهه المركز بقى حالو ولقف.. أخيراً جات المنظمة وقالوا حيجيبو دكاترة وناس معمل وصيدلي.. وأهو إنت جيت والخير على قدوم الواردين!..

سألته محاولاً أن أخفي غيظي من المقلب الذي اتضح أنني شربته بمزاج:

– طيب وبعد الدكاترة يجو، العيانين بجيبهم شنو؟..

* لا ما أنحنا عملنا حملة إعلانات بالمكرفون في (حطاب) كلمنا الناس إنو المركز اشتغل وإنو يجونا بعد ده..

أصدقك القول أنني عرفت أنني ضعت في شربة ماء، وحاولت في اليوم التالي الذهاب للمنظمة وإقناعهم بأن يحولوني لأي مركز آخر في أي مكان، ولكنهم اعتذروا بأن مراكزهم جميعها ممتلئة، وأوصوني بالصبر لأن الله مع الصابرين!..

وهكذا صار روتيني اليومي معروفاً:

(1) أركب سيارتي في السابعة صباحاً لأصل المركز في الثامنة..

(2) يأتي الحاج (علي) حاملاً مفاتيحه ليفتح المركز ثم نخرج أمام

المركز لندخن سيجارتين ونتحدث..
(3) يستأذن الحاج بأخذ السيارة ليذهب للبلد ويحضر الفطور الذي غالباً ما يتكون من فتة فول أو كسرة، أو عصيدة في بعض الأحيان..
(4) نجلس في الخارج ندخن السجائر ونشرب الشاي من الثيرموس الذي جاء به الحاج..
(5) تقترب الساعة من الواحدة فأستأذن منصرفاً..
(6) في بعض الأيام يدس الحاج في يدي بضعة جنيهات قائلاً باعتذار: معليش يا دكتورنا.. حق الجاز!..
(7) لا تنس أن المنظمة كانت تأخذ راتبي البالغ قدره 50 جنيه، فأنا أعمل في منظمة طوعية قبل كل شئ!..

استمر الحال كذلك لأكثر من شهرين.. لم يحضر سوى مريض واحد.. امرأة يبدو عليها الفقر جاءت تحمل طفلها المحموم.. عاينت الطفل وفعلاً كان محموماً، ولكن لا ثيرمومتر لقياس الحرارة.. نظرت حولي بيأس: لا معمل، لا سستر، لا صيدلي! ذهبت بنفسي للصيدلية وبحث فوق الأرفف عن دواء يكون غير منتهي الصلاحية، وفي النهاية وجدت فتيل مضاد حيوي يتيم باقي على نهايته شهر، أخذته منتصراً ورجعت للمكتب لأجد المرأة قد انصرفت والحاج (علي) يقول معتذراً: معليش يا دكتور بجوا غيرها!..
أحسست باليأس وبأنني (طوبة) ليس لها لازمة في هذا الكون.. كنت مستاءاً للغاية في الأيام التالية حتى جئت في يوم ما وجاء الحاج (علي) ليمارس هوايته اليومية في تجريب المفاتيح كلها قبل فتح

الباب، ولكنه في هذه المرة كان متحمساً وهو يقول:
– إنت عارف يا دكتور ناس المنظمة الليلة جايبين مواد؟..
* بفففف! هممممم؟..
كان قد فتح الباب ودلف للداخل وهو يواصل بحماس:
– أيوة.. الريس اتصل علي الصباح وقال لي يا حاج (علي) تمشي تفتح المركز وتجيب بنت تنضفو وتقش الحوش.. وقال لي أشتري جاز للبابور وأملا البرميل بتاع الموية البرة دة.. وقال حيجوا هم بـ(أمجاد) جايبين مواد كاملة للمركز.. ده غير إنو حيجينا صيدلي وبتاع معمل.. خلاص يا دكتور فرجت!..
كنت أستمع إليه وأنفي يشتم رائحة غير محببة: رائحة الخيانة!. لم أكن أعرف بالضبط ما يحدث، خاصة أنني (طوبة) مرمية هنا فلا أحد يكلف نفسه عناء الاتصال بي وإخباري بما يحدث، ولكنني لم أتمكن من ابتلاع حرف مما يقوله الرجل.. كان هذا حلماً أجمل من أن يكون حقيقة..
هززت كتفي بلا مبالاة وأنا أقول لنفسي:
– وانت مالك؟ ما إنت زي البهيمة هنا فارقة معاك في شنو؟ فتحو فتحو، قفلو قفلو، أهو إنت بتقضي في خدمتك!..
فتحت باب صندوق الهايلوكس الخلفي وجلست عليه وأشعلت سيجارتي، بينما الحاج يتحرك بنشاط ضوئي وحماس متقد لم أره فيه من قبل..
نظرت له بلا مبالاة وواصلت التدخين وأنا أنظر للسيارات القليلة المارة في الشارع..
ولم تمض ساعة من الزمن حتى وصلت سيارة أمجاد (وهي الحافلة

الصغيرة الأصغر من التويوتا هايس وبها ستة مقاعد غير مقعدي السائق والراكب الأمامي).. توقفت السيارة التي كانت مكدسة من الداخل، لم أر محتوياتها بالضبط ولكنها كانت تئن بوضوح من ثقل الحمولة..

فتح الباب الأمامي ونزل منه رئيس المنظمة بكامل أبهته،ثم فتح الباب الخلفي ونزل منه ثلاثة أشخاص لم أرهم من قبل وكل منهم يحمل كرتونة، والرئيس يقف في باب المركز ويشير للداخل موزعاً المهام: المعمل بي جاي، كراتين الدواء جوا في الصيدلية، بالراحة على الأجهزة يا (علي)..

كنت أنا غير مرئي بالمرة لهؤلاء الناس.. لم يخبرني أحدهم ما الذي يحدث.. تباً! لم يسلموا علي حتى!..

أشعلت سيجارة أخرى ووقفت أنظر باستمتاع لمجهوداتهم المضنية، ويبدو أن الدخان قد كشف موقعي فقد صاح الرئيس فجأة:

– يا دكتور انت بتسوي في شنو؟ تعال شيل مع الناس ديل سريع!..

طبعاً لم أفهم فيم العجلة، ولم أفهم ما الذي ينبغي أن أحمله، ولكن على كل حال توجهت نحو باب السيارة المفتوح وحملت أول كرتونة صادفتني ودخلت بها للداخل..

نسيت أن أقول لك من قبل أن هناك غرفة يتيمة في ركن الحوش اليمين بها الصيدلية – أو ما يسمى الصيدلية – فهي عبارة عن أرفف خالية بها أقل من عشرة أدوية منتهية الصلاحية منذ عام على الأقل..

دخلت الصيدلية فرأيت عجباً عجاباً!.. تحولت الصيدلية لجزئين:

الجزء الخارجي أصبح معملاً بقدرة قادر، به طاولة فحص وجهازان محترمان للفحص الضوئي (ميكروسكوب) كما تناثرت جوارهما العديد من شرائح الفحص وتلك المظاريف الصغيرة المميزة لإبر الفحص، بالإضافة لعدد لا بأس به من قناني الصبغة بلونها الداكن المميز..

أما الجزء الداخلي فقد تحول لصيدلية متكاملة، امتلأت رفوفها حتى السقف بجميع أنواع الأدوية، وتبقت بضع كراتين لم تجد لها حيزاً فوق الأرفف، بينما وقفت أنا في بلاهة أنظر لما يحدث غير فاهم!..

ويبدو أن لعابي كان يسيل بصورة مخزية فقد جاء إلي أحد الرجال وعرف نفسه قائلاً:

– يا دكتورنا كيفك؟ أنا (أحمد) الصيدلي..

* هه؟..

– أنا الصيدلي الجديد معاكم..

* معانا؟..

ويبدو أن بلاهتي الظاهرة قد آذت مشاعره فسار مبتعداً وهو يمصمص شفتيه مصدراً صوت: تشيييييب!..

كنت لا زلت أحاول أن أستوعب ما حدث في نصف ساعة إذ تحولت الخرابة فجأة لمركز! فعلاً! كنا نجلس في خرابة معفنة والآن صار مركزاً صحياً محترماً، لا ينقصنا الآن سوى...

(كورررررررر!)

... الكهرباء! كان هذا صوت الجنريتر (أو كما يقول حاج علي: البابور) الذي اشتغل بقدرة قادر لأكتشف أن السقف به لمبات!..

وطالما أن هناك كهرباء فلا بد أن أتأكد من عمل الـــ...

(ده شنو؟)

... المروحة! كنت قد دخلت غرفة الطبيب لأفاجأ بتلك الفتاة الجالسة على مقعدي.. ترتدي بالطو أبيض خارج حالاً من الكيـــس، وعلـــى كتفيها سماعة (ليتمان)[24] أصلية، وتحمل بيدها...

(ده كتابي الأكسفورد؟)

... كانت – ويا للمصيبة تحمل كتابي الأكسفورد[25] النسخة السادســة وهي آخر نسخة وقتها (كنت فخوراً بها جداً) وكانت تقرأ فيه بنهـــم، والأدهى والأمر أنها كانت تحمل قلم رصاص وتهم بأن تجر به خطاً طويلاً تحت أحد السطور حينما تقدمت منها وقلت بعصبية:

– لو سمحتي يا دكتورة ما تشخبطي الكتاب..

وأنا لست إنساناً عصابياً وليس لدي OCD[26]، ولكن لدي مشكلة هي أنني لا أستطيع أن أقرأ من كتاب طالما فيه أيِ نـــوع مـــن لأنـــواع الشخبطة، حتى لو كانت (اذكريني يا حياتي) على الهامش! لا أنكـــر في يوم من الأيام أنني قد جررت قلماً فوق كتاب إلا لأكتب اســـمي على الصفحة الأولى – ربما.. فكيف أتحمل هذه الفتـــاة – للـــتي لا أعرف جاءتني من أي داهية – لتجلس على كرسيي وتشخبط كتابي؟ هذا كان كثيراً على أعصابي!..

خرجت من الغرفة للخارج وأشعلت سيجارة وأنا أكاد احـــترق مـــن

---

24 سماعات Littmann سماعات أصلية وذات جودة عالية وسعر مرتفع، وهي تختلف تماماً عن السماعة المرمية في ركن الحوادث التي يحلو للمرافقين وضعها في آذانهم بينما الطبيب يكشف على بطن المريض!.

25 Oxford Handbook of Clinical Medicine.

26 Obsessive Compulsive Disorder.

الغيظ.. ما الذي يحدث هنا بالضبط؟.. هناك رائحة لا أحبها أبداً وهي تزكم أنفي، وهي ليست رائحة السيجارة الرخيصة على كل حال..

* * *

بعد ساعتين من العمل الدءوب – ولحسن الحظ عدت غير مرئي مرة أخرى – كان المركز قد تحول لشئ آخر.. لو لم أكن هنا صباحاً لأقسمت أن هذا المركز يرتاده عشرون مريضاً على الأقل كل يوم.. هذا غير الدكتورة الاستايل الجالسة في الداخل.. هذه "دكتورة" حسب مفهومنا عن الأطباء.. وفهمت لماذا جاءوا بها، فأنا أبدو نصاباً ببنطالي الجينز المكفوف من أسفل وقميصي مكفكف الأكمام ونظارتي الواقعة على أنفي والسيجارة في يدي.. نظرت لنفسي ثم هززت كتفي باستخفاف، أنا لا ألومهم على جلبهم دكتورة حقيقية لتمثل دور أنها الدكتورة المناوبة في المركز، ولكن لماذا كل هذه الـ...

(فرررررررر... إيييك!)

... التمثيلية؟ فهمت أخيراً ما يحدث عندما توقفت تلك السيارة الصالون أمام المركز ونزل منها ثلاثة أشخاص تبدو عليهم الأهمية، يتقدمهم شخص يبدو أنه كبيرهم فهو يشع بتلك الهالة التي تجعلك تعرف بطل الفيلم وسط عشرة ممثلين (أو كما يقول رفعت إسماعيل).. دخلوا جميعاً للمركز ودخلت أنا وراءهم ببلاهة.. هذا تفتيش مفاجئ إذاً؟ تفتيش ممن؟ وكيف يكون مفاجئاً وهؤلاء القوم يعملون من الصباح ليغيروا وجه المركز؟..

دخلت خلفهم – بدافع الفضول – حيث كانوا قد اجتمعوا في الغرفة

التي على اليسار حيث أنها لكبر وبها سرير فحص وبعض الكراسي.. اتخذ الجميع مقاعدهم بينما وقفت أنا في المؤخرة ناظراً ببله مغولي ممتاز، هؤلاء القوم يعرفون ما يفعلون وأنا لا أعرف ما الذي جاء بي هنا!..

هنا كان الرجل المهم يتحدث مخاطباً الجميع، مع تركيزه على رئيس المنظمة مما يوحي بأنه يعرفه مسبقاً:

– يا ناس (الأتقياء) نحنا كلمناكم تلاتة مرات إنو المركز ده ما مطابق للمواصفات.. عندك دكتور واحد وفحِّيص واحد وصيدلي بتجيبوهو بالدِّين من السامراب.. الدواكويس جبتوهو والمعمل كويس جهزتوهو زي ما قلنا.. لسة عنبركم فاضي ما فيهو ملايات ولا سراير ولا خشبة العيان يطلع عليها للسرير.. ماف ستاير وماف بوسترات.. وين البوسترات الأديناكم ليها بتاعة التطعيم؟..

كان رئيس المنظمة يرد بنبرة مذنبة:

– كلمناكم يا دكتور انو الحاجات دي بتاخد زمن.. أهو الصيدلية والمعمل جهزوا زي ما شايف.. بالنسبة للدكتور عندنا دكتورة (صفاء) دي ويادوب استلمنا الدكتور الجديد..

ونظر لي بغلّ جعلني أحس أنني فعلاً المذنب!.. دقيقة، مذنب بأي شئ؟ ولكنه تجاهلني وواصل:

– والبوسترات اضطرينا نوديها لمركزنا في (الكلاكلة) انت عارف هناك الضغط عالي و...

كانوا يواصلون حوارهم الذي لا ناقة لي فيه ولا جمل، بينما كنت أنا أتأمل جدران الغرفة التي أدخلها لأول مرة.. وحانت مني التفاتة

فوجدت المسئول ينظر لي بتمعن فابتسمت مجاملاً ثم واصلت تأمـــل الديكور.. لحظة! أنا أعرف هذا الرجل! ونظرت إليه مرة أخـــرى.. نعم إنه هو! إنه (شيراز) من الدفعة التي تسبقنا في الكلية! اللعنة! أي ريحٍ منتنةٍ ألقت بك ههنا؟ (والحقوق محفوظة لدكتور (نبيل فـــاروق) طبعاً!)..

المهم أن الاجتماع انتهى، عرفت ذلك لأن (شيراز) كان يلملم أوراقه وهو يقول:

– المهم يا ناس (الأتقياء) ده آخر انذار ليكم.. أنا بديكم شهر واحـــد بس.. يا تجهزو المركز زي ما ورياكم تلاتة مرات قبل كـــدة يـــا حأختمو ليكم بالشمع الأحمر..

وكان رئيس المنظمة يحاول المفاوضة:

– يا دكتور (شيراز) أدينا تلاتة شهور بس وانت تلقى الأمور زي ما تحب..

* شهر واحد!..

قالها وهو ينهض ليغادر هو وأعوانه ومن خلفهم جماعة المنظمة ثم الحاج (علي) وأخيراً أنا..

كان الجميع واقفين خارج المركز حينما انزويـــت جانبـــاً لأمـــارس هوايتي المحببة – ليس البول على الجدران يا أحمق بل التـــدخين – حينما اقترب مني (شيراز) وهو يقول:

– بعد اذنك.. انت مش الدفعة الورانا؟..

التفت إليه قائلاً بابتسامة عريضة:

– أيوا.. أنا (خالد أبنعوف) من الدفعة الوراكم.. وانت (شيراز) أنـــا

عارفك..

* ياخ بالله كيف أخبارك وأحوالك؟ والجابك شنو البلد دي؟..

– والله يا بوص الجابني عملي الردئ.. شغال خدمة مع الجماعة ديل ووزعوني في المركز ده..

* وبصراحة كدة الشغل كيف هنا؟..

استرقت نظرة جانبية لأتأكد أن الجميع مشغولون بشئ آخر ســـوانا قبل أن أقول:

– الصراحة يا بوص طين.. كل يوم بدور عربيتي دي بجي بيها هنا أفطر وأرجع.. ماف عيانين وماف شغل..

أطلق (شيراز) ضحكة قصيرة ثم قال:

– ما تخاف يا صاحبي.. أنا عارفهم كويس ناسك ديل.. ما حيصلحو المركز ولا شئ.. أديني شهر واحد بكون ظبطتهم ليك..

في هذه اللحظة اقترب منا أحد أعوانه فأخرجت موبايلي وأنا أقول:

– طيب يا بوص أدينا رقمك ياخ نتواصل معاك..

* جداً.. أهو رقمي (.....) أديني رنة عشان أسجلك..

ثم ركب هو وأعوانه السيارة واختفوا في الأفق..

* * *

الحق يقال أنني اكتشفت أن الجماعة كانوا كسولين جداً فـــي عملهـــم عندما جاءوا! كيف عرفت؟ لأن سرعتهم في إزالة كل ما فعلوه هي بالتأكيد عشرة أضعاف سرعتهم في بنائه!..

كانت الصيدلية قد عادت حزينة برفوفها الخالية، كل الأدويـــة فـــي الكراتين وإلى السيارة.. المعمل اختفى بشرائحه وأجهزته وصـــبغاته في المقعد الخلفي.. البابور توقف عن العمـــل وعـــادت المروحـــة

لصمتها الحزين.. الملايات والكراسي والستائر وكل ما يخطر لـــك ببال.. الدكتورة نفسها ركبت الأمجاد بفخر واعتزاز كما نزلت، ولم أنس أن أنزع كتابي من يدها قائلاً:

– كتابي لو سمحتي.. شكرررراً..

ثم أوليتها ظهري وأخذت أقلب صفحاته بسرعة بحثاً عن أي خـــط.. أقسم بالله العظيم لو وجدت خطأً واحداً.. الحمد لله براءة!..

كل الأشياء حدثت بسرعة البرق حتى اختفاء السيارة في اتجاه غيـــر اتجاه سيارة المسئولين.. كل هذا وأنا أحتضن كتابي غيـــر مصـــدق نجاته من براثن العنقاء، فيما كان الحاج (علي) ينظر ببلاهة مراقبـــاً أحلامه تتلاشى وسط دخان السيارة المبتعدة..

مددت له يدي بسيجارة وأنا أقول:

– أهه يا حاج.. ممكن بعد كدة تفهمني الحاصل شنو؟..

التقط مني السيجارة وكأنما يفيق من حلم طويل، هز رأسه وأشـــعلها ثم قال وهو يحك رأسه غير مصدق:

– ديل ناس الوزارة وهم بعملو تفتيش دوري للمراكز.. كل منطقـــة عندها دكتور مسئول منها ونحنا منطقة السامراب وما حولها مسئول منها دكتور (شيراز) ده.. هو جانا قبل كدة وناس المنظمة وعـــدوهو يوفرو الحاجات الطلبها لكن طبعاً ما ظهروا تاني.. أهه الليلـــة لمـــا قالو جايين قلت خلاص كربة و"انفجرت"! ولا هي "انفرجت"! المهم ما كنت عارف إنو في تفتيش طارئ للوزارة.. وشكلو هم زاتهم مـــا كانوا عارفين لأنو أمس كنت بتكلم مع الريس وما جاب لي سيرة..

ثم تهدج صوته وهو يقول:

– هسي يعني المركز حيتقفل تاني؟..

أطفأت سيجارتي وأخرجت مفتاحي متجهاً نحو السيارة لأنصرف قبل أن يبدأ مرحلة لطم الخدود..

* * *

أنا لست رجلاً حقوداً، ولكن ما فعله هؤلاء الرجال (والبنت) بي وبحاج (علي) ضايقني جداً.. لقد تعاملوا معي بأسلوب حقير منذ البداية ولقد صبرت لأنني كنت موزعاً داخل الخرطوم، مهما كانت المسافة بعيدة فهي على الأقل تتيح لي المبيت بمنزلي.. يأخذون راتبي على قلته ويتركونني أدفع كل يوم مصاريف البنزين من جيبي لآتي لهذا المركز الغبي وأضيع اليوم في كلام فارغ ثم أرجع، قلنا ماشي.. يخدعون هذا الرجل المسكين الذي يحاول فقط أن يكسب عيشه بعد أن استثمر شقا عمره مع رجل قليل الأصل باعه وتركه ليغرق في الديون لوحده، قلنا طيب.. ولكن هذه التمثيلية العجيبة التي لا تخرج إلا من دماغ شيطاني جعلت دمي يفور ويغلي.. آه لو تمكنت فقط من أن.. دقيقة! ألم آخذ رقم (شيراز)؟..

وهنا ابتسم الشيطان الرابض في أعماقي..يا للسعادة! إن يدي ترتجف على مقود السيارة من شدة الحماس!..

توقفت على جانب الطريق وقمت بطلب رقم (شيراز)..ثوان من الرنين ثم:

- ألو؟..

* أيوا.. دكتور (شيراز)؟ أنا دكتور (خالد أبنعوف) الدفعة الوراكم..

- أيوة أيوة يا ولدنا.. كيف أخبارك وأحاويلك؟..

* والله يا بوص ياخ أنا ضارب ليك في موضوع بخصوص المركز ياخ..

– اتفضل يا ولدنا..

* الحقيقة يا بوص ما عارف أقول ليك شنو.. أنا زي مـــا كلمتـــك موضوع أجي يومي للمركز دة تعبني عـــديل والحكايـــة دي ليهـــا شهرين وزيادة.. غير إنو المركز ما شغال.. الشفتو قبيـــل ده كلـــو تمثيلية عملوها قدامك، هسة لو جيت المركز حتلقاهو فاضي يشـــكي حالو لي الله..

– آيي أنا عارف يا ولدنا.. ناس (الأتقياء) دي طريقتهم في التقوى.. أنا بس ملتزم معاهم بالقانون: تلاتة انذارات وبقفل المركز وأختمـــو بالشمع الأحمر.. أديني شهر واحد والمركز يكون قفل ولا يهمك..

* آآآآ.. في طريقة يبقن أسبوعين ولا أقل؟..

– هههههه.. مكسب يا ولدنا أصلاً أنا أديتهم إنـــذارهم بالقـــانون.. أسبوعين وأظبطهم ليك..

* حبيبنا يا بوص.. الله يكتر خيرك ياخ..

– ولا يهمك يا ولدنا.. أبقى مر علينا في المكتب ياخ نتونس معـــاك شوية..

* أبشر يا بوص ماف عوجة..

وبعد السلامات والتحيات و(كليـــك).. انتهـــت المكالمـــة، وانتهـــى المركز!..

وفعلاً بعد أسبوعين كان الحاج (علي) يتصل بي ليخبرني أن المركز تم تقفيله بالشمع الأحمر وأن المنظمة نفضت يدها منه.. كنت أشعر بالأسى فعلاً لهذا الرجل ولكن كيف أساعده وأنا ما حيلتي إلا السيارة التي تحت يدي؟ قلت له:

– وإنت حتسوي شنو؟..

* حأشوف ليهو بيعة وأشيل قروشي أستفيد منها في شئ تاني..
شعرت بقليل من الارتياح، على الأقل هو لديه خطة مـــا، إذاً هنـ اك أمل..

وفي بقية فترة خدمتي مع المنظمة لم يتم توزيعي لأي مركز آخر.. ربما عرفوا أن لي يداً في إقفال المركز.. ربمـــاللـــم يستســـيغوا أن يضعوني في مواجهة مع المرضى فشكلي نصاب كما قلت من قبل.. لا أدري ما حدث ولكنهم صاروا يتصلون علي كل فترة وأخرى يخبرونني بأن هناك يوماً صحياً مفتوحاً في الكلاكلة فأذهب لأحضر وأعود.. أو أن هناك قافلة صحية لمنطقة ما في الشـــمالية فـــأركب الباص وأذهب معهم لأقضي يومين أو ثلاثـــةفـــي الخلاء قبـــل أن نعود..
كانت القافلة الصحية متوجهة لتلك المنطقة التي لا أعرفها في الولاية الشمالية.. كان هناك عدد لا بأس به من الفنيين للمختبر والصـــيادلة بالإضافة لطبيبين هما أنا و(عادل) سئ الحظ..
كان (عادل) طبيباً آخر ممن رماه عمله الردئ لتقضية الخدمة فـــي نفس المنظمة، ولكن وضعه كان يختلف عن وضعي.. فهـــو كـــان متزوجاً ولديه طفلة، وكان يسكن في منطقة (الكلاكلة) وهـــي فـــي الجزء الجنوبي الغربي من الخرطوم، فكان عليه أن يقطع العاصـــمة بالوتر ليصل لـــ(حطاب) في الشمال الشرقي.. وقد جاء المركز مرة واحدة ثم "حرن" مثل الحصان ورفـــض رفضـــاً قاطعـــاً أن يـــدفع مصاريف الرحلة من جيبه كل يوم ليأتي لمركز ليس بـــه مرضـــى، حيث كانوا قد وعدونا بإعطائنا 50% من دخل المركز، وحيث أنـــه

لا مرضى هناك إذاً لا دخل هناك!..

المهم أننا ركبنا الباص وذهبنا للشمالية.. وكان معنا (دليل سياحي) وهو أحد أبناء المنطقة ممن يعملون بالمنظمة وكان له دور كبير في تسيير هذه القافلة لمسقط رأسه..

كان الرجل ظريفاً جداً وقد أصر أن نبيت أنا و(عادل) معه في منزله.. ذهبنا معه للمنزل وقابلنا أبويه.. شيخان طاعنان في السن ولكنهما نشيطان نشاط شباب في العشرين.. أحضرا العشاء ووقفا على رؤوسنا حتى أكلنا، ثم أصر الشيخ أن يصب لنا الماء من الإبريق حتى نغسل، رغم جميع محاولاتنا لإثنائه عن ذلك..

انتهينا من العشاء وجلسنا نتسامر مع المرشد السياحي.. كان يتعرف علينا وعلى مساقط رأسنا حينما سألنا:

– انتو يا دكاترة دحين ما بتدخنوا؟..

نظرنا لبعضنا لحظة ثم قال (عادل):

– أنا غايتو بالحيل بدخن.. وبسف تمباك كمان..

تهللت أسارير الرجل وهو يقول:

– والشيشة كيف؟..

وكأنه قد صب علي دلواً من الماء البارد في منتصف نهار قائظ! صحت لا شعورياً:

– الشيشة دي أصل الدخان يا راجل!..

كان يقفز من العنقريب وهو يقول:

– إذاً لازم نصلح ليكم حجر كارب! أنا والله كنت خجلان منكم، راجيكم تنوموا عشان أولع الشيشة!..

جرى لتحضير الشيشة بينما انفتحت نفس (عادل) فقام يبحث عن

حقيبته.. سألته مندهشاً:

– بتفتش على شنو؟..

أجابني وهو يحمل حقيبته ويضعها فوق السرير:

– لابتوبي يا مان! نزلت لي فيلم غرييييب اسمو (Ninja Assassin) لازم نحضرو على أنغام الشيشة!..

فتح اللابتوب بينما جاءت الشيشة.. ظللنا حتى أذان الفجر ندخن ونحضر الأفلام على اللابتوب.. كانت ليلة أسطورية لم نتخيلها في أشد أحلامنا جموحاً..

وفي الصباح تحركنا للعيادة.. كانت القرية صغيرة وليس بها مركز صحي، فقام أهل القرية بتحويل المدرسة اليتيمة إلى مركز صحي مبتكر.. حصل كل من الطبيبين على غرفة فحص، كما حصل الصيدلي وفني المعمل على مثلها..

بدأنا نناظر الحالات ونكتب بعض الفحوصات البدائية كنسبة الهيوجلوبين وفحص البول، ونصرف العلاج الذي تكون معظمه من البنادول والأموكسيسلين.. انقضى نصف النهار حتى سمعت جلبة من الغرفة المجاورة وهي التي يستغلها (عادل) لفحص المرضى..

أرهفت سمعي وسمعت عبارات مختلطة:

– .... تعال يا دكتور (خالد) يدك معاي.... هنا..... البت دي..... يا (خالد)!..

جريت للغرفة وأنا أتوقع أن أجد بنتاً مصابة بالصرع ترفس في نوبة تشنج.. الحقيقة أنني وجدت (عادل) يتشنج وهو يمسك فتاة صغيرة لا تتجاوز العاشرة وهو لا يزال يصيح.. دخلت الغرفة وأنا أسأل:

– مالك يا (عادل) الحاصل شنو؟..

أجابني وهو (يعافر) البنت التي كانت تتملص منه:
– تعال أمسك معاي البت دي عشان أديها الحقنة دي في لسانها!..
تسمرت في مكاني من الدهشة! حقنة في اللسان؟ هل جننت يا (عادل)؟ كان هو يواصل:
– تعال سريع عشان البت دايرة تبقى كويسة!..
تحركت لا شعورياً وأمسكت معه البنت.. كانت تصيح:
– النبي! النبي! خلاص خلوني! سيبني يا داكتور ما دايرة خلاص!..
تركها (عادل) وهو يسألها بشك:
– ما دايرة شنو؟..
أجابت وهي تجري غير مصدقة نجاتها:
– ما دايرة (كباسين) خلاص!..
زفر (عادل) وجلس على مقعده بينما كنت أنا واقفاً كالأهبل.. سألته:
– الحصل شنو ياخ فهمني؟..
أجابني وهو يزفر:
– البنت الهبلة دي جات قالت دايرة دوا.. كشفت عليها ما عندها الحبة دي.. كتبت ليها بنادول.. قالت لا دايرة (كباسين).. بعد تعب فهمت إنها دايرة (كبسولات) مضاد حيوي.. حاولت أقنعها لأبت.. قلت ليها خلاص حلك الوحيد نديكي حقنة في لسانك الطويل ده عشان تبقي كويسة.. قعدت تفرفر قمت ناديتك!..
أطلقت ضحكة طويلة وأنا أرجع لعيادتي.. يخرب بيتك يا (عادل)! من أين تأتيك هذه الأفكار الشيطانية؟..
أكملنا اليوم ورجعنا لبيت المرشد السياحي حيث مارسنا الشيشة وحضرنا بضعة أفلام أخرى على اللابتوب، ثم رجعنا في اليوم

التالي لقواعدنا سالمين..

* * *

وهكذا قضيت باقي فترة خدمتي بهذه الطريقة حتى انتهـــت.. وقـــد استفدت من هذه الفترة في إكمال امتحانات الزمالة البريطانية حيـــث كان لدي الكثير من الوقت والقليل من العمل.. حقاً كانت فـــترة فـــي غاية التفاهة ولكني استفدت منها بصورة ما حتى أحس بأن حيـــاتي لها قيمة..

(6)

في الفترة التي تلت الخدمة الوطنية، كنت قد تمكنت من الحصول على وظيفة بمستشفى قوى الأمن.. ستقول أنني ذو واسطة أليس كذلك؟ أبداً يا صديقي كل ما حدث أن لي صديقاً أخبرته بحوجتي لوظيفة محترمة، وكان هو يعمل بقسم العناية المركزة القلبية، فأخبر رئيس القسم بمؤهلاتي فما كان منه إلا أن طلب مقابلة فورية معي وقام بتعييني في القسم..

أما كيف التقيت صديقي هذا فهي قصة كفاح حقيقية..

كانت أيام الامتياز أسوأ أيام في بداية حياتنا الطبية، قبل أن يثخن جلدنا ونتعود الضرب فلا يعود يؤثر معنا.. كنا لا زلنا نحلم بأن نكون أطباء ذوي قلوب رحيمة، نعالج المريض ونغيث الملهوف ونعين على نوائب الدهر.. نسهر حتى تسقط أعيننا إرهاقاً ثم نواصل اليوم التالي في غرفة العمليات أو العيادة حتى لو لم يطلب منا ذلك.. تجد مريضاً يحتضر في الشارع فتجري لتنقذ حياته.. يا سلاااام على أحلام تلك الأيام! كنا فعلاً ساذجين للغاية..

المهم كنا في فترة الامتياز وكنا نعمل في مستشفى (البان جديد) التعليمي، وتحديداً في قسم الجراحة، أو ربما يجب أن أقول قسم الإصابات؟..

ولمن لا يعرف مستشفى (البان جديد) التعليمي فهو ليس مستشفى أولاً، ثم هو ليس تعليمياً ثانياً.. هو مؤسسة يقوم من فيها من سحرة فودو باختلاق طرق مختلفة لعلاج المرضى دون أي معينات على

الإطلاق.. تخيل أننا كنا نغسل القفاز الطبي بماء الحنفية بعد استخدامه في خياطة مريض قبل خياطة المريض الآخر لعدم توفر القفازات؟ وفي بعض الأحيان لم نكن نجد زمناً حتى لغسيل اليد؟.. تخيل أننا كنا نطلب من المرضى الذين يبدو أنهم ميسوروا الحال أن يأتوا بضعف المواد التي نحتاجها لعلاجهم (مشرطان جراحيان بدل واحد، فراشتان بدل واحدة، وهكذا) فقط لكي نخزن واحدة في جيبنا لأنك ستحتاج لها بعد ساعة واحدة في علاج مريض آخر ليس معه فلوس؟.. وفي أحيان كثيرة اضطررنا للدخول في الدم بدون قفازات (وهي عملية خطيرة للغاية لارتفاع خطورة إصابتنا بأمراض الدم من المرضى) وذلك بسبب انعدام القفازات العادية – أبو عشرة جنيه للكرتونة يا عالم!..

هل تتخيل أنه في يوم من الأيام جاءنا حادث كبير جداً، وكنا مشغولين تماماً بالخياطة وتركيب الفراشات ولإيقاف النزيف من المرضى الذين يفوق عددهم العشرة، وكان أحد الأطباء الزائرين قد رآنا مشغولين فقام بمساعدتنا تكرماً منه، وقد قام بلبس قفازين فوق بعضهما إذ لا توجد قفازات جراحية معقمة في الحوادث وهو لا يعرف نظامنا هنا في توفير القفازات، وكان المدير الطبي قد جاء ماراً فرآه لابساً قفازين، فأصابته التشنجات وبدأت يصيح بهستيريا ولم يترك الرجل حتى خلع أحد القفازين وبقي لابساً زوج قفازات واحد؟.. كل ذلك لعدم توفر القفازات..

طبعاً لن أتحدث عن المرضى المصابين بالخراجات (abscess وتنطق آبسس، أو كما قال أحد أطباء الامتياز – خريجي ثورة التعليم العالي – بذكاء: أبوسكوس!)، هؤلاء المرضى الذين كنا نفتح لهم

الخراجات باستعمال موسى الحلاقة لعدم توفر المشارط الجراحيـــة! أي والله كما أقول لك:

– يا شاب أمشي جيب درب ملح من الصيدلية وشاش وحقنـــة بنـــج موضعي، ومعاك موس من الطبلية!.. هذه كـــانت متطلبـــات فتـــح الخراج!..

أعرف أن هذه جريمة وأن هذا كلام (يودي وراء الشـــمس)، لكـــن أعطني حلاً من فضلك بدل الفلسفة والحديث عن الفضـــيلة! عشـــرة لخمسة عشر مريض خراج يومياً ولا توجد مشارط جراحية، ومـــن المستحيل تماماً أن أعيد استعمال المشرط بالطبع فهذه هي الجريمـــة الحقيقية!.. ما الذي ستفعله لو كنت مكاني؟ هه؟ ارفـــع صوتـــك لو سمحت؟ ستفتح بماذا؟ بالضبط!..

المهم أن الأمور كانت تمشي بالبركة بطريقة ما، وكنا نعالج المريض بصورة ما، حتى جاء دكتور (ناصر)..

ودكتور (ناصر) لمن لا يعرفه هو أسوأ طبيب مشـــى علـــى ظهـــر الأرض! لا، فهذا يعد ظلماً للأطباء، هو ليس طبيباً بل هو مشعوذ أو كاهن أو ساحر من سحرة فرعون (ليس الجماعة الذين آمنوا بموسى على كل حال).. هذا رجل يتعامل مع روح المريض كما يتعامل مع روح الصرصار بالضبط.. هذا رجل لا أعتقد أن لديه ضميراً حيـــاً فهو قد قتله قهراً منذ زمن طويل بسبب أفعاله الشاذة الشنيعة..

تعتقد أنني أبالغ هه؟ حسناً.. خذ هذه:

كنا جالسين في الحوادث ننتظر المصائب لتهل علينا كالعادة، حينمـــا جاء ذلك الرجل مصاباً في حادث.. إصاباته كـــانت طفيفـــة ولكـــن

بروتوكول الحوادث والإصابات العالمي يقول أنه يجب إجراء صور أشعة روتينية للرقبة والصدر والحوض لأن الكسور في هذه المناطق قد تكون مخفية والمريض لا يشتكي من شئ حتى تحدث المضاعفات.. طلبنا الأشعة وجلسنا ننتظر.. جاءت الأشعة فوقفنا ننظر لها في الصندوق الضوئي معاً (لم تكن توجد حالات أخرى في ذلك الحين) حينما هبط علينا (ناصر) فجأة – وللأسف فقد كان هو الطبيب العمومي ونحن أطباء الإمتياز – إذاً فهو السينير أو كبير الحوادث الذي يجب أن نسمع رأيه..

وقبل أن نتحدث كان ينتزع الصورة من الصندوق ويقول باهتمام:

– هذا الرجل لديه كسر في الفقرة الثالثة والرابعة..

طبعاً الصورة كانت جانبية توضح الرقبة والصدر معاً فلم نفهم لأين يقصد بالضبط – هل في الرقبة أم الصدر؟ – فسألناه:

– الثالثة والرابعة الـ..؟

* الصدرية طبعاً! T3 and T4.. مالكم يا شباب ما فطرتو ولا شنو؟..

وقفنا نبحلق طبعاً في الصورة ونحن نحاول أن نرى الكسور التي يقولها بينما كان هو يتلفت سائلاً:

- Is he breathing?..

طبعاً لم نفهم مغزى السؤال أيضاً! فسألنا ببلاهة:

– من هو الذي يتنفس؟..

أجابني (لأنني كبير أطباء الامتياز) بنفاد صبر:

– العيان يا (خالد).. العيان..

* أيوا بتنفس يا بوص.. ليه يعني؟..

هز رأسه مستعجباً من غبائي وأشار للأشعة وهو يقول:

– عندو كسر في T3 and T4! ده ممكن يضغط على العصب المغذي للحجاب الحاجز (Phrenic nerve) وبالتالي يوقف التنفس ويموت في أي لحظة.. We have to act quickly..

طبعاً نظرنا لبعضنا ونحن نحاول أن نستشف هل هو جاد أم يمزح؟ لأن العصب الذي يتحدث عنه يخرج من منطقة لا علاقة لها بالفقرات الصدرية التي ذكرها، بل يخرج من فقرات الرقبة (C3, C4, C5) وهذه ليست لها أي علاقة من قريب أو بعيد بفقرات الصدر التي كان يشير إليها.. هذه طبعاً معلومة يعرفها أي طالب طب درس التشريح في السنة الثانية للجامعة فلم نتصور أن البوص بنفسه يرتكب خطأ قاتلاً كهذا!..

ولم يمهلنا (ناصر) إذ كان يصيح:

– Come on boys!!.. بسرعة خلوا أهل العيان يجيبوا عشرة لفات PoP[27] وقطن.. وين العيان؟..

وفي لحظة كنا فهمنا ما يريد هذا المجنون فعله! يريد أن يجعل صدر المريض ورقبته بالكامل داخل الجبص! هذا يفوق الجنون بمراحل، إنه قتل مع سبق الإصرار والترصد!.. وهنا انقسمنا بسرعة كجيش صغير: أحدنا أمسك (ناصر) على جنب يحاوره في موضوع تافه ليشغله قليلاً، والثاني راح يلملم الأشعة وأوراق المريض ويدسها في مظروف كبير، والثالث راح يخبر أهل المريض أن المريض يحتاج لأن يذهب في التو واللحظة بأي حجة، المهم أنه يجب أن يغادروا الآن وحالاً!..

---

27 المادة المستعملة في عمل الجبص وتسمى Plaster of Paris.

وحينما عاد (ناصر) ولم يجد فريسته هز رأسه بحزن وقال:
- He's gonna die, poor man!..

و(ناصر) في حواراته معنا كان يحب استعمال اللغة الإنجليزيـــة، لا ليس الإنجليزية الطبية التي نستعملها جميعاً، بل انجليزية متحذلقة من النوع الذي يفخم الراء واللام أكثر من اللازم ليبرهن علـــى أنـــه (cool) بصورة ما.. أتذكر أنه كان معنا طبيب امتياز تربى وعـــاش عمره كله في بريطانيا ولكنه رجل متواضع ومهذب جداً، يأكل معنا الفتة بالفول كأنه ابن بلد أصيل متربي في الثورة الحـــارة الســـابعة، ولكن ما أن يفتح فمه حتى تندهش من انجليزيته الـــتي تنـــافس فـ ي جودتها انجليزية الملكة إليزابيث نفسها.. ولسبب ما كـــان (ناصـــر) يرى أنه يجب أن يثبت نفسه أمام هذا الشاب رغم أنه – أي الشاب – لم يتحدث بالإنجليزية ليبهرنا أبداً وإنما كانت تخرج منـــه بتلقائيـــة حسب ظروف تربيته، خاصة عندما ينزنق في كلمة باللغة العربيـــة فينظر لي ويقول مثلاً:
- What's scoundrel in Arabic, Khalid?..

أذكر أنه دخل علينا مرة وكان زميلنا فاتحاً جهاز اللابتوب لسبب ما، وأراد (ناصر) أن يسأله إن كان لديه شبكة إنـــترنت – أي إن كـــان أونلاين (Online) فقال له بحذلقة:
- Are you hooked up?..
طبعاً نظر إليه صاحبنا ونظر إلينا وهو يستغرب من هـــذا الســـؤال الوقح – وربما المنحرف قليلاً.. فلفظة (هوكد أب) معناها بالنســـبة للخواجة (هل أنت مرتبط عاطفياً؟) وهو معنى يختلف تمامـــاً عـــن

معناها بالنسبة لـ(ناصر) الذي يقصد هل أنت مرتبط بالشبكة؟، ولحسن الحظ كان زميلنا يعرف أن (ناصر) عنده صامولة مفكوكة في دماغه فلم يعره اهتماماً بل واصل عمله بهدوء..

في مرة أخرى كنا قد استلمنا مريضاً للزائدة في حوالي الساعة الرابعة صباحاً، وكان الوقت في رمضان وأذان الصبح يؤذن قبل الخامسة بقليل.. وأصر (ناصر) المجنون أن يدخل العملية الآن لأنها (Appy) كما كان يحب أن يدلعها (وهو اختصار Appendix – وهو الاختصار للذي لم أسمعه لا في الأولين ولا في الآخرين!).. المهم دخل (ناصر) غرفة العمليات قبلنا، وكنا نحن نقوم بالقرعة على طريقة (حجر، ورق، مقص) لنرى من هو الضحية الذي سيدخل معه.. كنا قد بدأنا بأن عملنا قائمة بأسمائنا وكنا ندخل معه بالدور ولكن أحدنا فقد أعصابه وقال أنه لن يستطيع أن يدخل معه مرة أخرى ولو انطبقت السماء على الأرض وقال (لا آبي لا بابي أنا ما داخل ياخ!)، فهذا الرجل – أي (ناصر) – كان كما قال صاحبنا (جزار وحيكتل العيان، بحاول أوقفو لكن ما بسمع الكلام وحيودينا كلنا في ستين داهية).. وذلك بسبب أنه كان مصراً أن يستأصل خصية مريض شاب في العشرينيات بحجة أنها تالفة، ولم يوقفه إلا أن صاحبنا أمسك يده واتصل على الأخصائي بيده الأخرى (أمام طاولة الجراحة داخل غرفة العمليات!) وأخبره أن (الحقنا يا بوص في غرفة العمليات قبل ما نسوي مصيبة!)، طبعاً لن أتحدث عن الموبايل الذي استشهد بسبب الدماء ومحاولة غسلها فيما بعد.. والنتيجة كانت أننا نقوم بالـ(حجر، ورق، ومقص) وسعيد

الحظ سيزف لغرفة العمليات كالعروس! لقد كنا رائقي البال فعلاً لو سألتني..

المشكلة أن اللعبة رسيت على صاحبنا الذي فقد أعصابه من قبل.. ولكنه لم يرض و(خرخر)، فأعدنا اللعبة مرة أخرى.. ولكن حظه السئ جعله يفوز مرة أخرى! فنظر إلينا نظرة الشهيد، وحمل ملف المريض وكيس الأدوية وسار يجرجر رجليه لغرفة العمليات.. والحقيقة أننا لم نكن في مزاج لنزفه، فهو كان سيلقي الأوراق ويذهب لبيته غاضباً وعندها كان أحدنا سيضطر للدخول مع الجزار..

وفيما بعد عرفنا منه أنهما كانا في منتصف العملية، وهي عملية بسيطة جداً لا تستأهل نصف ساعة لو كان الجراح يعرف ما يفعله.. المهم أنهما كانا في منتصف العملية و(ناصر) يبحث عن الزائدة دون جدوى، حينما توقف فجأة وصاح بطريقة درامية وهو يرفع يديه في الهواء:

- Oh my God! Do you see this?..

طبعاً كان صاحبنا واقفاً بملل وهو ينظر للساعة خائفاً أن يفوته موعد السحور فنظر نظرة جانبية وقال:

– أشوف شنو؟..

ولكن كان (ناصر) متحمساً جداً كطفل صغير يفتح لعبة جديدة وهو يقول:

- My God! This is an Ectopic kidney[28]!!..

---

28 هي الكلية الموجودة في غير محلها الطبيعي في أعلى البطن، فيمكن أن توجد أسفل البطن أو في الحوض.

اشرأب صاحبنا بنظره داخل بطن المريض، ولكنه لم ير أي شئ ذي بال، ولكن (ناصر) كان لا زال يواصل بالإنجليزية مخاطباً بطن المريض:

- Ectopic kidney, What to do? What to do?..

وهنا كان صاحبنا قد فقد صبره، فمد يده داخل بطن المريض بنفاد صبر، وأخرج الكلية (التي ما هي إلا كمية من الدم المتجلط جراء فتح البطن!) ورماها على الأرض وهو يصيح:

– مش الـ Ectopic kidney دي؟ أهه شلناها! تاني في شنو؟..

صديقنا المسكين! لم يتمكن من اللحاق بالسحور حتى بعد هذا!..

* * *

كنا لا زلنا مع صاحبنا (ناصر) والذي صار كالكابوس.. فمستشفى (البان جديد) كانت تفتقر للكوادر خاصة النواب والأطباء العموميين، فأطباء الامتياز كانوا يأتون مجبورين حسب توزيع للوزارة.. أما النواب فلا يأتي إلا نائب أو اثنان في كل قسم، وهذا عدد غير كاف لو علمت أن كل قسم به ثلاث وحداث لثلاثة أخصائيين مختلفين.. هذا غير نقص المدراء الطبيين وهي وظيفة مهمة من الناحية الإدارية، فالمدير الطبي هو الذي يمثل الإدارة بعد ساعات للدوام الرسمي..

وفي ظل هذه الظروف العجيبة كان لابد لـ(ناصر) أن يترعرع وينمو ويتحول لأخطبوط، فتجده يوماً كبير حوادث الباطنية، ويوماً كبير حوادث الجراحة، ويوماً مديراً طبياً وهكذا..

المهم كان صاحبي – واسمه (فتحي) بالمناسبة – يسد نبطشية الليل.. وقد استلم النبطشية من طبيبة كانت تعمل معنا ولكن دماغها في

مكان آخر تماماً، يستحيل أن تجدها استلمت حالة وفعلت لها المطلوب، دائماً أوراقها ناقصة ودائماً المريض غير جاهز للعملية، ودائماً كنا نضطر للجري وراءها لتغطية أخطائها الفادحة.. ربما كانت هذه طريقة ذكية منها لتتهرب من المسئولية – لا أدري..

على كل حال كان (فتحي) قد استلم النبطشية منها وسلمته هي مريضاً قامت بتنويمه في قسم الرجال.. وحينما ذهب ليعاين المريض اكتشف أنه حالة التهاب بولي لا أكثر.. وهي حالة لا تستدعي التنويم، وإن استدعت فهي تابعة لقسم الباطنية وليس الجراحة..
وعلى ذلك اتصل (فتحي) على كبير الحوادث – وهو كما خمنت حبيبك (ناصر) بالطبع – وأخبره بالحالة وأنه يريد تسليمها لقسم الباطنية، فكان رد (ناصر) المتحذلق:
- Fathi, this is your case. Take it!..
وبالطبع لم يقنع هذا الكلام (فتحي) فالقسم أصلاً ممتلئ بالمرضى فلا حاجة به لمريض باطنية في قسم الجراحة.. فذهب لحوادث الباطنية وتحدث مع الطبيبة هناك فكان ردها:
– أنا والله امتياز زيك وما بقدر أستلم.. نضرب للبوص نكلمو ولو وافق بستلم منك..
واتصلت على كبير حوادث الباطنية وتحدثت معه قليلاً، ثم أعطت التلفون لـ(فتحي) قائلة:
– البوص قال دايرك..
أخذ (فتحي) الموبايل وهو يهيئ نفسه للمعركة القادمة، ولشدة دهشته جاءه صوت (ناصر):
- Fathi, I told you: this is your case. Take it!..

وطبعا غضب (فتحي) غضباً شديداً وقرر الذهاب للمدير الطبي ليحسم هذه الفوضى.. وكان باب المدير الطبي مغلقاً فدق الشباك.. وبعد ثوانٍ فتح الشباك ليطالعه (ناصر) وهو يقول:

- Fathi. I already told you: take the case!..

أعتقد أن فتحي أغمي عليه، رغم أنه لم يذكر لي هذه الجزئية من القصة!..

* * *

بعد فترة اختفى (ناصر) – لا أدري في أي داهية – وصرنا وحيدين.. نعم كما أقول لك: وحيدين.. وهذا يعني أننا مجموعة من أطباء الامتياز الشباب بلا سند من طبيب أكثر خبرة، فالمستر رئيس الوحدة لم يكن يبالي بزيارتنا في الحوادث، والمدير الطبي لم يهتم بأن يعين لنا نائباً أو حتى طبيباً عمومياً ليكون معنا..

استمرت الحكاية فترة وصار مستحيلاً علينا أن نواصل كذلك.. لابد من طبيب أكبر سناً يكون موجوداً.. هناك الكثير من الأشياء التي لا يستطيع الامتياز فعلها.. الكثير من القرارات المصيرية: هل نفتح بطن المريض الآن أم أن الحالة يمكن علاجها بدون عملية؟.. هل ندخل لاستئصال هذه الزائدة الملتهبة؟ كيف واللائحة الطبية تمنع طبيب الامتياز من دخول غرفة العمليات وحيداً؟..

ظللنا نضغط على المدير الطبي ونهدد بوقف العمل ولكنه لم يكن يهتم.. نهدده فيهددنا برفعنا للوزارة بحجة (رفضنا للعمل).. وطبعاً كنا أغبياء فلم نعرف أنه لو رفعنا للوزارة فسيلبس هو القضية لأنه المدير الطبي ووظيفته توفير الأطباء للمستشفى..

المهم أن الضغط أثمر في النهاية عن حل وسط: علينا أن (نتصرف)

في الحوادث من الصباح وحتى المساء، وسيقوم المدير الطبي بـ(تأجير) نائب أخصائي يعرفه باليومية ليغطي معنا الحوادث فترة الليل – وهي الفترة التي تكثر فيها الإصابات..

كان النائب يأتي ليسلم علينا ويغادر للإستراحة لينام، فهو يعمل منذ الصباح في عيادة الجراحة بمستشفى آخر.. والغريبة أننا لم نكن نحتاجه إلا في حالات بسيطة جداً..

وفي ذات مساء أغبر، دخل علينا رجلان، أحدهما يتكئ على الآخر والثاني يخبرنا أن الرجل لديه حساسية أو تسمم – لا يعرف.. أخبرناه أن عليه الذهاب لحوادث الباطنية فغادر الاثنان متجهين إليها..

بعد عدة دقائق جاء طبيب الامتياز المناوب في حوادث الباطنية يسألنا:

– يا أخواننا الرجسترار بتاعكم وين؟

أجبنا بلا مبالاة:

– لسة ما جاء يستلم..

وقف يحك رأسه مشاوراً نفسه ثم قال:

– طيب ياخ ساعدوني أنا طبيب جديد لنج.. الحوادث بتاعتنا ما فيها نائب.. جانا واحد عندو حساسية شديدة أسوي ليهو شنو؟..

نظر الجميع نحوي فأجبته بهدوء (فأنا كبير أطباء الامتياز):

– أديهو حقنة (أنتيهيستامين) وحقنة (هايدروكورتيزون) وخليه يقعد للملاحظة..

جرى مغادراً الطوارئ وهو يشكرنا.. جلسنا دقائق ثم عاد الطبيب يجري مرة أخرى:

– يا بوص الزول دة أديتو الحاجات دي وماف تحسن..

* الحالة شنو بالضبط؟..

وقبل أن يرد كان الرجلان يدخلان علينا.. الرجل الأول كان في حال مزرية، فهو لا يستطيع التنفس ولون شفتيه بـــدأ يتحـــول للأزرق.. صحت وأنا أجري نحوه:

– شيت!.. الزول ده عندو (Anaphylaxis)!..

أجلسنا الرجل على سرير الفحص وأخذنا نتلفت.. كان الرجل ممسكاً حلقه ولونه يتحول للأزرق المخيف، بينما طبيب الباطنيـــة يقـــف لا حول له ولا قوة – مثلنا جميعاً.. صحت في (فتحي):

– أجري بسرعة صحي النائب!..

جرى (فتحي) في اتجاه الإستراحة، بينما جريت أنا في اتجاه غرفـــة العمليات.. وجدت المحضّر نائماً فأيقظته بعنف صائحاً:

– يا عم (علي) بالله بسرعة أديني مشرط وملقط (Forceps)!..

قام وهو يحك عينيه متسائلاً:

– مالكم يا ناس الجراحة؟ الحاصل..

قاطعته بتوتر:

– بسرعة في عيان حيموت في الطوارئ.. بسرعة مشرط ياخ..

ناولني المشرط الجراحي والملقط وعـــاد للنـــوم.. جريـــت علئـــداً للطوارئ حيث كان الأطباء كلهم واقفين بوجوم لا يدرون ما العمل.. صحت في أحدهم:

– جيب لي مخدر موضعي سريع..

سألني وهو يجرجر رجليه:

– كم (سي سي)؟..

صحت بذعر:

– أي حاجة ياخ.. إن شاء الله الأمبولة كلها!..

نظرت للمريض الذي دارت عيناه للأعلى واتكأ على جانبه.. هذا الرجل يخرج الروح أمامي والآن!.. لا بد أن أتصرف بسرعة..

كنت أعلم نظرياً طريقة فتح القصبة الهوائية لإدخال الهواء، ولكنني لم أر العملية أمامي من قبل كما أنني لم أقم بها بطبيعة الحال.. قلبت في رأسي صفحات كتاب التشريح وتذكرت بعض الخطوط العريضة.. وبسرعة بدأت أفتح رقبة المريض بالمشرط..

كان صاحبي قد جاء بالمخدر وكاد أن يرميه حينما رآني:

– يا (خالد) بتسوي في شنو؟.. الزول ده ما مخدر!..

تجاهلته وواصلت فتح الرقبة محاولاً تذكر أماكن الأوعية الدموية حتى لا أفتح أحدها وتصير حفلة من الدم.. بعد قليل رأيت الحلقات البيضاء المميزة للقصبة الهوائية.. في هذه اللحظة كان النائب قد وصل ورأى ما أفعله.. لم يستطع أن يتدخل – فيدي فعلياً داخل قصبة الرجل! – فصار يوجهني لأفتح القصبة الهوائية بطريقة سليمة.. ثم...

(هههفففففف)!

... تطايرت الدماء علينا حينما أخذ الرجل نفساً قوياً ثم أخرجه عبر الفتحة التي فتحتها.. كانت أول مرة أنقذ فيها حياة شخص فعلياً من بين فكي الموت.. وقفت أنظر للنائب مستفسراً، فالمريض يتنفس طالما أنا أمسك قصبته مفتوحه هكذا، ولكن حتى متى؟..

تذكرنا أن هناك مريضاً آخر في العنبر يتبع لوحدة أخرى، لديه جهاز فتح القصبة (tracheostomy) ومن المقرر تغييره غداً..

أرسلنا (فتحي) ليقنع أهل المريض ليعطونا الجهاز الذي لم يركب للمريض بعد، على وعد أن نأتيهم بجهاز بديل.. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لنحافظ على مجرى الهواء مفتوحاً بدون أن تكون يد أحدنا داخل رقبة الرجل طوال الوقت..

عرفنا فيما بعد أن الرجل كانت بينه وبين زوجته خلافات، فوضعت له صبغة الشعر في كوب شاي شربه قبل أن يذهب للقاء أصدقائه في النادي.. كانت شبهة جنائية تستحق فتح محضر، ولكننا كنا قد حولنا الرجل لمستشفى الأنف والأذن والحنجرة المركزي وواصلنا حياتنا البائسة..

* * *

هذه كانت طريقة لقائي بـ(فتحي) وهو شاب طموح واثق من نفسه وخدوم للغاية، وهو ما جعلني أطلب منه أن يتوسط لي للعمل في مستشفى قوى الأمن..

ولكني لم أظل في العمل كثيراً.. ففي ذلك الوقت كانت أمي رحمها الله قد بدأت تمرض مرضاً شديداً.. في الحقيقة أن المرض اشتد عليها فقط، فبداية مرضها تعود لعشرة سنين قبل ذلك..

في ذلك الوقت كان والدي قد عاد للخليج بعقد في مدرسة خاصة، ووالدتي على قيد الحياة.. والدي كان مدرساً بالمعاش، خدم لمدة أربعين سنة بوزارة التربية والتعليم، وابتعثته الوزارة للعمل بالخليج فعمل بعدة دول هناك، وقام بوضع كتب المناهج وتحضير امتحانات الشهادة الثانوية وتصحيحها لعدة سنين، ثم ضاقت به السبل في السودان فعاد بعقد خاص للخليج.. وهو رجل كان موفور الصحة متين البنيان، حليق الذقن وبه وسامة لا تخطئها عين..

عظيماً كان، مربياً للأجيال حقاً، ولكن بلادي ظلمته كما تظلم كل أولادها العباقرة..

أما أمي فلها قصة أخرى.. فهي كانت تعمل أيضاً بالتدريس – وهكذا التقت بأبي – ولكنها تركت العمل بعد ولادة أخي الأكبر لتتفرغ لتربية الأطفال وشغل البيت، كما كان عمل لأبي بالخليج كافياً للصرف على المنزل وعلى والديه ووالديها الذين كانوا جميعاً على قيد الحياة في ذلك الوقت..

وأمي كانت امرأة ذات "دماغ نظيف" بصورة غير طبيعية.. هل تذكر قصة الأصمعي مع الملك الذي كان يحفظ القصيدة من مرة واحدة؟ أمي كانت كذلك.. يكفي أن تقرأ جوارها قصيدة ما لتجدها قد حفظت أكثر من نصفها ومستعدة أن تلقيها على مسامعك مرة أخرى بدون أي خطأ..

وفوق ذلك فقد بارعة جداً في فنون الطبخ، وكانت تصر أن تعلم نفسها كل مرة طبخة جديدة.. لم أكن أعلم أن (الجاباتي) و(الباكورة) و(لقمة القاضي) و(البانكيك) و(المكرونة بالبشاميل) جميعها أكلات غير سودانية حتى كبرت واغتربت واكتشفت أنها أكلات من شعوب أخرى! كل ذلك لأن أمي عودتنا منذ الصغر أن تطبخ جميع هذه الأكلات وغيرها ببساطة وحسب الطلب..

كانت تحب القراءة والاطلاع، حتى بعد أن ضعف بصرها وكانت لا ترى جيداً إلا عبر نظارتها كانت تصر أن تقرأ الجرائد وأن ننزل لها بعض الكتب خاصة كتب السيرة والتفسير في جهاز الآيباد للذي كانت تقرأ عليه..

أمي كانت تحب (سيد خليفة) و(محمد وردي) بصورة غير طبيعية..

حتى عندما فقدت سمعها بعد العلاج الكيماوي كانت تدندن أغاني (وردي) و(خليفة) وتجعل عينيك تدمعان لأنها تغني وهي لا تسمع صوتها دعك من صوت المغني..

أمي كانت تحب برنامج (سي إس آي) البوليسي وكانت تصر أن تتفرج عليه، مهما كانت القناة التي تحضرها فلا بد أن تغير لها على (دبي ون) في مواعيد البرنامج لتحضر الحلقة.. رغم أنها لم تكن تسمع وبصرها كان ضعيفاً إلا أنك كنت ترى لذة المشاهدة في عينيها كطفل يراقب بائع الأيسكريم وهو يملأ له (Cone) بنكهته المفضلة..

أمي كانت تكتب الشعر كذلك حينما كانت شابة.. ولسوء الحظ فإن جميع كتاباتها قد ضاعت في بيت أبيها القديم في مسقط رأسها فلا أعرف ما كتبت لكني أعلم أنه كان شيئاً رقيقاً راقياً مثلها..

أمي كانت امرأة كاملة، أو كما وصفها أبي بكلمة واحدة:

- She is a Lady! Fullstop..

أمي كانت تحبني لأجل أنني هو أنا، لا أكثر.. كل من أعرفهم كانوا يحاولون تغييري بطريقة ما.. حتى خطيبتي السابقة، كانت –من منطلق حبها لي – تريدني أن أبدو مهنداً محترماً لمام للناس.. تشتري لي الأحذية الراقية من حر مالها وتهديني العطور الباريسية وتصر أن أحلق ذقني.. الوحيد الذي لم يكن يطالبني بأن أغير تفصيلة واحدة من تفاصيلي هي أمي.. لذلك أعتقد أن تعريف الحب هو أن تحب شخصاً ما بدون أن تطالبه بتغيير أي شئ فيه مهما كان صغيراً..

أمي كانت تحب كل شئ وكل شخص.. هذه ليست مبالغة لأثبت أن

أمي ملاك.. حقيقةً فإنني لا أذكر يوماً أن أمي تحدثت عن شخص ما بسوء في حضوره أو غيابه، حتى جارتنا التي كانت تكرهها تماماً وتتعمد دائماً أن "تتشفخر" أمامها بملابسها أو عدتها أو ذهبها لم تكن أمي تتضايق منها بل كانت تبتسم وعيناها في الأرض..

ويبدو أن كل هذه الصفات من غير المعقول أن تجتمع في شخص ما ويتركه الناس لحاله.. فبدأت أمي تمرض بدون أي سبب.. لم يكن مرضاً واضحاً في البداية، فهي كانت مصابة بالضغط وكانت تتعاطي الأدوية لذلك.. فجأة بدأ الضغط يهبط لمتسويات منخفضة للغاية حتى نضطر لإيقاف حبوب الضغط.. ثم فجأة يطير لمستويات مرتفعة جداً لم أرها في شخص عادي من قبل – وأنا طبيب، فنعيد استعمال حبوب الضغط ونستطيع بصعوبة شديدة أن نرجع الضغط للحد الطبيعي..

حتى هنا والأمور كانت معقولة.. ثم بدأت أمي تشعر بذلك الورم في رقبتها.. في البداية كنا نظنه غدة لميفاوية متضخمة بسبب التهاب في اللوزتين أو الحلق، ولكن الموضوع استمر لمدة شهر كامل، والمشكلة أنه لم يكن يسبب لها ألماً على الإطلاق!.. وهذه مشكلتنا في الطب: الأمراض الكارثية التي تودي بحياة المريض غالباً ما تكون غير مؤلمة، والأمراض البسيطة التي لا تحتاج حتى لعلاج تكون مؤلمة والمريض يصيح ويتلوى منها..

وأخذنا أمي وذهبنا لعدة استشاريين في الأنف والأذن والحنجرة، وتم انتزاع الورم بعملية جراحية وارسال العينة للمعمل المركزي للأنسجة المريضة، وكانت النتيجة المرعبة: أمي مصابة بسرطان

الأنف والحنجرة!..

* * *

ما حدث بعد ذلك هو محاولة التحكم في السرطان.. كان رأي الاستشاريين أن السرطان في مرحلة مبكرة وعلى ذلك فإن العملية يجب أن تكون كافية، ولكن المشكلة أن هذا النوع من السرطان مراوغ، وقد توجد خلية سرطانية هربت من العملية وقبعت كامنة في مكان ما تنتظر فرصتها، ولذلك من الأفضل أن يأخذ المريض العلاج الكيماوي والإشعاعي المصاحب (Adjuvant therapy).. وحذرونا بالطبع من الأعراض الجانبية للعلاج مثل تساقط الشعر وجفاف الجسم وتغير لون الجلد وضعف السمع واضطرابات الجهاز الهضمي..

وأخذت أمي كل دورات العلاجين الكيماوي والإشعاعي، وأعلن الأطباء أنها شفيت تماماً من السرطان.. والحقيقة أنه خلال الأربع عشرة سنة التالية لم تشتك أمي شكوى تدل على أن السرطان قد عاد إليها..

وحتى هنا كان الموضوع جيداً ومعقولاً.. ولكن ما حدث بعدها هو الذي جعلني أخرج من طوري وأفكر لأول مرة في السفر للخارج..

ففي يوم من الأيام كنت جالساً مع أمي أتحدث معها، والحديث كان عبارة عن أن أكتب لها في ورقة – حيث أن سمعها كان قد صار ضعيفاً للغاية بعد العلاج – ثم ترد هي.. وفجأة تشنجت أمي وسكتت عن الكلام.. لم يكن تشنجاً كالذي يحدث لمرضى الصرع (Seizure) ولكنها كانت حالة غريبة، غيبوبة وغياب عن للوعي بدون أي مناسبة في حين أن عينيها مفتوحتين توحيان لك بأنها تنظر

إليك..

طبعاً كان أول تشخيص في بالي هو سكتة دماغية (Stroke)، ولكنها استعادت الوعي بعد أقل من خمس دقائق وواصلت حديثها بصورة عادية.. إذاً هل هي جلطة صغيرة (TIA[29])؟ يمكن ذلك ولكن لمي كانت تأخذ الأسبرين بانتظام لسنين مع علاج الضغط؟ هل تحتاج لإضافة أدوية أخرى مانعة للتجلط مثل البلافكس؟ هذا يحتاج لرأي متخصص..

وقد أخذت جميع الأوراق والفحوصات وقمت بعمل أشعة مقطعية للرأس لها وأخذتها جميعاً لاستشاري المخ والأعصاب وأخذت رأيه.. وكان رأيه أن هز رأسه بلا معنى وقال:

– هممم.. أمممم... أوكي... أمممممم..

والخلاصة أنه لم يستطع أن يصل لتشخيص معين، ولم يستطع أن يقول لي أنت تؤلف أو أمك تمثل، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يصرف لها أدوية زائدة فوق ما كانت تأخذ لأنها لا تحتاج لأدوية زائدة فعلياً..

المهم أن الحوادث الغريبة مثل هذه بدأت تتكرر في مواقف مختلفة ومتعددة.. ولاحظت أنها كثيراً ما كانت تدخل في هبوط سكر وأن ضغطها يرتفع وينخفض كما أخبرتك من قبل.. كل هذه الأمور التي ليس لها تفسير طبي واضح جعلت "الفار يلعب في عبي"، فهي تأخذ أدوية الضغط بانتظام تحت إشرافي أو إشراف إخوتي..كان ذلك حينما بدأت نظرات الناس لها تتحول من الشفقة إلى الضيق

29 Transient Ischemic Attack, or in layman terms, mini-stroke.

فالاستياء.. فمثلاً عندما يراها أحد أقربائنا وأنا أعطيها حقنة مضـــاد حيوي بالوريد يكون أول سؤال:
– أهه مالا المرّة دي كمان؟..
وصيغة السؤال وطريقة طرحه تشي بالضيق بلا نقاش، أي كـــأنهم يقولون (هي لسة بتعيا وبتتعبنا معاها كده؟).. وأنا لا أدري ما تعبهم بالضبط؟ فأبي بالخارج وهو يرسل المال وأنا وأخوتي نأخذ بالنا من أمنا فما دخلكم أنتم ولم تتضايقون؟..

وكما قلت لك كان كل شئ معقولاً حتى بدأت وظائف الكلى عنـــدها تتدهور بدون أي مناسبة.. حتى أنها لم تشك من أي أعراض تتعلــق بالكلى كالمغص أو حرقة البول أو دم في للبــول أو قلــة البــول أو كثرته، وأنا أعلم أنه ليس لزاماً لمرض الفشــل الكلــوي أن يبــدي أعراضاً قبل ظهور الفشل، ولكن على الأقل تكــون هنــاك بعــض العلامات أو توجد بعض المسببات كالتهابــات البــول المتكــررة أو السكري أو الضغط غير المتحكم فيه، وهو ما كان غائباً في حالتها..

وسريعاً سريعاً تدهورت الحالة واضطرت أمي لأن تبدأ عملية غسيل الكلى، وهي عملية تشبه الموت ثلاث مرات في الأسبوع لهول مـــا يحدث بها للمريض.. وسأخبرك لماذا..
أولاً فإن عدد الأسرة الموجودة في أي مركز غسيل محـــدود جـــداً، وتوزيع المرضى على المراكز يتم عبر المركـــز القـــومي لغســيل الكلى، وبالتالي فمن المعتاد رؤية مريض يســكن فــي مكــان مــا ويضطر للغسيل في مكان آخر في الجهة المقابلة من المدينة، هذا لو

توفر له السرير طبعاً..

ثانياً إن مكنات الغسيل تحتاج لصيانة دورية وسوائل الغسيل يتم استيرادها من الخارج.. فمن المعتاد أن ترى أربعة أو خمسة مرضى جالسين أيديهم على خدودهم ينتظرون دورهم في الغسيل رغم أنهم جاءوا في موعدهم، لماذا؟ لأن ثلاث من مكنات الغسيل الست في المركز قد تعطلت..

ثالثاً من السهل جداً أن يتم إلغاء جلسة الغسيل للمريض، ببساطة لعدم توفر المحاليل! وعندها يظل المريض يقئ ويشكو من طمام البطن والدوار أو يدخل في غيبوبة حتى الغسلة التالية وهي أعراض ارتفاع البولينا في الدم.. وللعلم فإن المحاليل لا يمكن شراؤها بمالك الخاص فهي تتوفر عبر (الهيئة القومية للإمدادات الطبية) وترسل لمراكز الغسيل مباشرة، فيستحيل إيجادها في الصيدليات أو المراكز الخاصة!..

رابعاً أن كمية الأدوية التي يأخذها المريض لتعوض النقصان في وظائف الكلى المساعدة عدد مرعب وهو ميزانية في حد ذاته.. يبدأ الأمر من حقن (الإيبريكس) التي يجب أخذها مرتين لثلاث مرات يومياً (وهذه كانت تكلف أربعين لستين جنيه للحقنة الواحدة في ذلك الوقت – هذا إن توفرت) مروراً بحبوب الكالسيوم وفيتامين (د) والحديد والأومبرازول للمعدة وحبوب الضغط والأسبرين وربما أكثر من ذلك.. دعك من (الهيبارين) الذي يعطى مع الغسيل لمنع تجلط الدم في الماكينة، هذا غير المحاقن الفارغة وحتى البلاستر اللاصق!.. هذه الأدوية جميعها يشتريها المريض بنفسه فهي غير داخلة في التغطية الحكومية للغسيل، الذي يعلن وزير الصحة بفخر

وكأنه يمن على الجمهور: أن الدولة توفر الغسيل مجاناً لمرضى الفشل الكلوي! حقاً الغسيل نفسه هو مجان، ولكن كل ما يحيطبه ليس مجاناً!.. هذا يشبه أن يعلن صاحب الدكان أن (كمشة) الفول مجانية، فتأخذ صحنك وتذهب لتكتشف أنه يتحدث عن (الكمشة) نفسها لا عن الفول الذي يغرفه باستخدامها!..

خامساً إن منظر مرضى الغسيل وهم يرقدون على الأسرة موصلين لماكينات الغسيل منظر بائس للغاية، والمرضى نفسهم شاحبون ضعيفون متغيرو اللون، يائسون ينظرون للامكان، تحس أنهم يتساءلون في سرهم: لم اخترتني أنا؟..

الخلاصة أن تجربة غسيل الكلى تجربة مريرة تجعلك تتمنى الموت ألف مرة بدل أن تجلس مرة واحدة على ماكينة الغسيل.. أما عن الخيار الآخر وهو الغسيل الصفاقي[30] في المنزل فهذا على حد علمي يوجد له مركز واحد متواضع في مستشفى الشرطة ببري وعدد المرضى به محدود للغاية، كما أنه فرع وليد في السودان لا زال يمر بطور النضوج، والخيار الثالث وهو زراعة الكلى فهو شبه مستحيل وغالي بدرجة غير معقولة في السودان! دعك من الشعارات الحكومية وعن دكتور فلان الذي يقوم بعملية الزراعة مجاناً، هذه أحلام زلوط.. أنا أحدثك عن أمور عملية: توفر المتبرع، مطابقة الأنسجة، الأدوية مثبطة للمناعة التي تعطى فيما بعد، المتابعة الدورية لوظائف الكلى، تنظيم الأكل والحذر عند أخذ أي علاج مهما كان بسيطاً، العودة للأخصائي عند أي بادرة حمى أو مشكلة في

30 Peritoneal Haemodialysis.

التبول، وغيرها الكثير.. فلا تضع رأسك في السماء وتحلم بل انزل للأرض وفكر بمنطق المواطن العادي الذي يريد أن يعيش، فقط أن يعيش!..

المهم أن هذا الموضوع جعلني أفكر في شيئين: الشئ الأول جعلني أفكر في السفر للخليج، عسى ولعل أن أتمكن من توفير الأدوية بسهولة، ثم أتمكن من استخراج إقامة لأمي وآتي بها لتكون جواري وتغسل في مكان محترم حيث لا وجود لهذه العوائق التي ذكرتها، ومن ثم أستطيع أن أتواصل مع مركز من مراكز زراعة الكلى لأرتب لها للزراعة..
والشئ الثاني هو أنني بدأت أفكر جدياً في أن سبب مرض أمي ربما لا يكون طبياً.. ربما يكون عيناً وسحراً؟ تقول أنني طبيب ولا يجب أن أومن بالخرافات؟ ومن قال إنها خرافة؟ ألم يقل الرسول (ص) ما معناه أن نصف أهل القبور من العين؟..
والخلاصة أنني ذهبت للمملكة العربية السعودية كما أخبرتك.. ولكن المكوث هناك كان مستحيلاً.. فمن جهة كان التعامل معنا بلوننا الأسود كأنك تعامل حيواناً، وحتى الحيوان كان له احترام عندهم فهم يستفيدون منه، أما أنت فلا فائدة لك!..

أذكر أنني كنت جالساً في الحوادث، وكانت العيادة مزدحمة للغاية – فهؤلاء القوم يحبون التمارض بصورة مرضية غريبة، وكانت صلاة المغرب قد أقيمت وجميع العاملين في الطوارئ (ما عدا طبيب الإصابات) ذهبوا يصلون ما عداي، وكانت جميع الحالات – كما

نصنفها – حالات باردة (مثل الزكام والكحة المزمنة)، أي أنها يمكن أن تنتظر.. فقمت بمعاينة نصف الحالات ثم أخبرت البقية أنني ذاهب لأصلي فالمغرب سيضيع علي – لاحظ أنهم لا يريدون الذهاب للصلاة.. وكان أحدهم واقفاً وهو أستاذ مدرسة يحب أن يأتي كل يومين للمستشفى متمارضاً ليأخذ إجازة مرضية، فوقف أمامي يقول بضيق:

– إنت فين تروح وتسيب المرضى تعبانين؟..

فأجبته وأنا أدور حوله لألحق الصلاة قبل دخول العشاء:

– رايح أصلي.. لو تعبان ادخل الطوارئ جوة في دكتور..

نظر إلي وأنا أبتعد وهز رأسه وهو يقول:

– تصلي آآآ؟ طيب..

لم أعره اهتماماً، ولكني حين رجعت من الصلاة بعد خمس دقائق بالضبط وجدت المدير المناوب يستدعيني،فذهبت لمكتبه لأجده جالساً ومعه الحرس وفني الاستقبال والأشعة (كلهم سعوديون)، وكان المدير يتحدث بتعالي سائلاً:

– رحت فين يا دكتور وسبت المرضى في العيادة؟..

رددت باستغراب:

– مشيت أصلي المغرب!..

مط شفتيه وهو يقول:

– والمرضى الجالسين مترييينك في العيادة اشلون يسوون؟..

هززت رأسي ورددت بـ(لماضة):

– العيانين دول كلهم حالات باردة.. وأنا كلمتهم إنو المستعجل يدخل الطوارئ..

* دكتور الطوارئ رفض يشوفهم..
– لأنهم حالات باردة! عنده حق طبعاً! يقعدو ينتظرو، وبعدين ليش ما راحوا يصلوا هم؟..
نظر إلى الخارج ثم نظر إلي وقال:
– المهم يا دكتور لا تروح تترك المرضى في العيادة ثاني مرة..
* والله يا (...) إذا كان الإسلام الجديد يمنع الدكتور من الصلاة في المسجد فخبرني عشان أكون على بينة.. وإذا كانت تعليمات الإدارة إنو ما نصلي خبرني عشان برضو نعرف راسنا من رجلينا..
تململ المدير بسبب عدم احترامي له أمام حاشيته وقال بجفاف:
– أنا ما قلت لك ما تصلي.. على كل حال في مريض رفع ضـــدك شكوى لأنك تركتو في العيادة وهو تعبان ورحت..
كنت في هذه النقطة قد تعبت من الحوار واللف في دوائر فقلت لـــه وأنا خارج:
– خير..

كان ذلك مثالاً بسيطاً لما يحدث معنا في تلك البلد.. ولكن كانت هناك نقطة ضوء في وسط العتمة: إن هؤلاء القـــوم يحبـــون التمـــارض والإجازات المرضية، ونحن كمستشـــفى حكـــومي غيـــر ملزميـــن بإعطائها لهم، فمن رأيته مستحقاً أعطيته ومن رأيته غيـــر مســـتحق رفضت والقانون لا يلزمني بإعطائه غصباً عني، وكنا نستغل هـــذه النقطة أبشع استغلال لنسترد حقنا أو (to get even)!..
جاءني ذلك الرجل ومعه زوجته، ووارب الباب وسلم علي ماداً يده:
– اشلونك يا دكتور..

وهنا قال الصوت الصغير في عقلي: أوو أووو!! اعمل حسابك!..
وسبب ذلك شيئان: أولاً أن السعودي يستحيل تماماً أن يمد يده ليسلم عليك، فأنت أكثر قذارة من أن يلوث يده بملامسة يدك السوداء..
وثانياً أن السعودي يستحيل تماماً أن يناديك (يا دكتور) بل هو يناديك بمنتهى الاحتقار (يا زول)، وعندما تثور وتعلن (أنا دكتور وهذه ملابس Scrubs التابعة للوزارة وعليها ختم الوزارة) فهو يرد بكل براءة: ليش زعلان انت؟ مش انتم تقولون زول للرجل الكريم؟.. لا يا حبيبي أنا زول هناك في السوق أما هنا فأنا دكتور جابتني الوزارة، دكتووووور..
وعلى ذلك فحينما يقول لك الرجل (يا دكتور) ويسلم عليك في يدك فهو يريد شيئاً واحداً فقط لا غير: إجازة مرضية!..
طبعاً سلمت عليه مضطراً فمد لي طرف أصابعه وسحبها بسرعة قبل أن تتلوث، ثم بدأ يحكي لي قصة طويلة هلامية عن أن زوجته استيقظت في الصباح ولكنها أحست بتعب فتمطت في السرير ثم انقلبت، ففوجئت بأنها على جانبها الأيسر!، فانقلبت مرة أخرى لجانبها الأيمن، وظلت تتقلب حتى تعبت، ثم نهضت، ثم ذهبت للحمام، ثم عبس وفجر، ثم... لا بالجد، ظل يحكي قصة غريبة جداً لم اهتم بسماعها لأنني أعرف نهايتها جيداً...
(وطبعاً ما قدرت تروح الدوام)
... وقد كان!.. كنت أنا أخط على ورقة المقابلة طلب العلامات الحيوية من حرارة وضغط ونبض ونسبة أكسجين وغيره بالإضافة لفحص السكر، حيث كنا قد اتفقنا مع ممرضة الحوادث أن أي مريض نكتب له كل هذه الأشياء لا بد أن تؤخره خمس دقائق على

الأقل كانتقام منا لأنهم يكرهون التأخير في المستشفى!..
أعطيته الورقة وأنا أقول:
– خلاص خليها تقيس العلامات الحيوية والسكر وتيجي..
* بس يا دكتور نحنا ما نبي علاج ولا أي شئ.. بس تبي إجازة لليوم بس..
– هممممم.. قلت لي ليش ما راحت الدوام؟..
* ما قدرت يا دكتور.. وأنا كان يفترض أوصلها بس نمت، والنوم سلطان!..
صمت لحظة أفكر، ثم قلت له:
– النوم سلطان صح؟ إنت عارف إيش بحصل لينا لما موعد الدوام يجي؟ بتقوم فجأة كأن في شيطان جاءك وأعطاك كف! (وأرفقتها بصفعة من كفي على المنضدة)..
* أعوذ بالله ياخ! شيطان؟..
– أيوة.. إنت الآن لو جيت ولقيتني متأخر نصف دقيقة ليش راح تعمل؟ مش راح تشتكيني؟..
وهنا تغيرت لهجة الرجل تماماً وتغيرت ملامحه ليكشر عن أنيابه وهو يقول:
– إنت إيش فاكر نفسك؟ أنا الحين أروح المستوصف أدفع بس مية ريال الدكتور يعطيني خمسة أيام مش يوم واحد!..
* درب السلامة! ليش جيت هنا طيب؟ اتفضل المستوصف على طول!..
حمل أوراقه ونهر زوجته لتقوم وخرجا غاضبين، بينما دخل رجل أبيض يشع وجهه بنور الإيمان، له علامة صلاة بحجم البلحة في

نصف جبهته، لحيته طويلة تصل لسرته، ملابســـه بيضـــاء كلـــون الملائكة.. جلس بعد أن حياني بتحية الإسلام الخالدة، وبعد أن شكى شكوته قال:

– انتو يا دكتور ليش ما تساعدون الناس؟..

قلت وأنا مشغول بإدخال فحوصات في جهاز الكمبيوتر:

* كيف ما نساعد الناس؟..

أخرج مشطاً صغيراً مشط به لحيته وهو يقول:

– الريال يريد إجازة مرضية لأهله (بمعنى زوجته)، ساعده يا أخـــي، المسلم في عون أخيه..

تركت الشاشة ونظرت إليه قائلاً بهدوء:

– يعني أساعده هو وأنا أدخل النار؟..

* أعوذ بالله يا شيخ ليش النار؟..

نظرت إليه بثبات وقلت:

– لأني لما أشهد لواحد سليم بإنو مريض تبقى دي شهادة زور.. ولا ما شهادة زور يا شيخ؟..

* يا دكتور ما لهذه الدرجة.. الموضوع بسيط والدين يسر..

– وفين (كان متكئاً فجلس).. ولا خلاص راحت؟..

* أقول.. بس بس عطيني ورقتي!..

* * *

هذا نزر يسير مما كان يحدث في المستشفى.. ولا تظن أن الوضـــع في الشارع كان أفضل بكثير.. يمكنك أن تكون راجعاً مـــن للـــدوام للمنزل بمنتهى الهدوء، ويراك بعض الشباب ويروا لونـــك الأســـود وملابس المستشفى (لأنك تسير على رجليك فالمسافة ليســـت بعيـــدة

والمدينة صغيرة) فيقرروا أن يقودوا بسرعة كبيرة ويهجموا عليك بالسيارة ثم يبتعدوا في اللحظة الأخيرة بتفحيطة عالية.. وهي مخاطرة طبعاً لأن تقدير السائق للزمن يمكن أن يكون خاطئاً فتكون النتيجة أن تطير أنت في الهواء ثم تضرب الأسفلت بينما يفرون هم مبتعدين..

ومن الطبيعي أن تأتي داخلاً للمول لوحدك (فأنت أعزب) ليقرر فرد الحراسة أن ينهرك صائحاً:

– ارجع ارجع.. هذا باب العوائل.. روح ادخل من هناك..

ويتضح أن (هناك) عبارة عن (بويب) متواضع جداً لا بد أن تدخل ثلاث زقاقات مختلفة لتجده، هذا إن وجدته..

ومن الطبيعي أن تكون جالساً في (كنتكي) تستمع بوجبة الدجاج في أمان الله حينما تسمع الآذان، وفجأة تنقلب الدنيا رأساً على عقب.. عمال الكاونتر يجرون ليخففوا حدة الأضواء.. أحدهم ينزل الستائر على الشبابيك.. آخر يغلق الباب مقفلاً إياه على إصبع شخص كان يهم بالدخول.. ثالث يأتي مسرعاً ليقول:

– سرعة سرعة صديق.. جلدي جلدي (معناها بسرعة بلغة الأوردو).. صلاة صلاة..

ويكاد أحدهم يصيح من مكان ما: غارة قادمة!..

فلا تعرف هل تختنق وأنت تبتلع باقي وجبتك، أم تتركها، أم تأخذها معك؟..

وصاحب المحل ليس مذنباً في هذا ولا ألومه، فهو سيخسر أشد الخسائر لو جاءت لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هؤلاء

سيطينوا عيشته وسيتنيل بستين نيله لو وجدوا أنه *(يا للهول)* يبيع في وقت الصلاة، وحجتهم طبعاً أنه إذا (نودي للصلاة **من يوم الجمعة** فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع)، وقد وضعت لك الكلمات التي يحذفونها خلال النقاش في خط عريض، ورسالتي واضحة كما أعتقد!..

والنتيجة أنك تضطر لعدم دخول أي محل أو مطعم قبل أن تنظر في ساعتك وتتأكد أن الوقت سيكفيك لمدة ربع ساعة على الأقل قبل الأذان، وإلا فلا!..

هذا من ناحية الحياة العامة، أما من ناحية السكن فهذه مصيبة أخرى!..

كلمة أعزب في هذا البلد هي مرادف لكلمة (ابن حرام) أو أي سبة مشابهة، لأن الطريقة التي يتعامل بها المجتمع مع الأعزب (حتى لو كان سعودياً!) ليس لها أي تفسير آخر.. هل تذكر حلقة سامير بعنوان (بمعنى العزوبية)[31] حيث كان الجار يتحدث مع الفتى (عقيل) الأعزب، وأثناء حواره معه كان يتخيله لابساً الشارلستون والنظارة السوداء والشعر الخنفساء وزجاجة الويسكي بيده وفوقه كرة الديسكو الزجاجية تدور بلا توقف؟ هذا بالضبط ما يراه المجتمع حينما تقول أنك *(يا للمصيبة)* أعزب، وفوق هذا *(يا للعنة)* أجنبي!..

والنتيجة أنه لا أحد يقبل بأن يؤجر أي شقة في عمارته لأعزب! بل إن المدينة كلها يكون بها عدد معين من العمارات معروف تماماً أنها: عمارات العزاب! حتى الإعلانات عن الشقق يكون مكتوب

31 YouTube link: https://www.youtube.com/watch?v=RPz5kyYgXLc.

عليها: شقق عزاب!.. ويستحيل ثم يستحيل أن تؤجر شقة لأعزب في عمارة عوائل – وهي عمارات أولاد الناس على عكس عمارات العزاب!..

كنت أنا وأصدقائي الثلاثة الذين كنا نسكن معاً في شقة واحدة تمثل (الميز) لنقلل التكاليف ولصعوبة تحصيل الشقق، كنا قد انتقلنا لشقة جديدة في عمارة في منتصف البلد، فشقتنا القديمة كانت في منطقة تسمى (الحفرة) وهي فعلاً حفرة تقع على حدودة المدينة.. المهم أننا كنا ننقل حاجياتنا والعمال ينزلون الأثاث من اللوري حينما جاءنا صاحب الشقة المقابلة لشقتنا في العمارة الأخرى وأصدر مرسومه:

– أغلقوا كل هذه الشبابيك بالخشب أو أغلقوا الشيش بالمسامير حتى لا تنظروا إلينا فذلك بيت عوائل!.. كان يتحدث وأنا أنظر لشبابيك شقته التي غطاها بالكامل بصفائح الألمونيوم (أو كما نسميه الزنكي)..

كان هذا قبل أن يعرف أصلاً من نحن ولماذا جئنا، يكفي أن عرف أننا عزاب أولاد كلب!..

أما لو أردت أن تتحايل على الوضع وتؤجر شقة في عمارة عوائل على أساس أنك متزوج، فلا يا صديقي، كان غيرك أشطر! مؤجر الشقة يسألك عن عقد الزواج الموثق من الخارجية حينما توقع عقد الإيجار! ومثل ذلك لو أردت أن تأتي بخادمة لتعول أمك المريضة، لن يسمح لك مكتب الاستقدام بتأجير خادمة لو لم ير عقد الزواج!..

إذاً أنت ترى لماذا كان مستحيلاً علي أن أجلب أمي للمملكة لأحاول أن أرتب الأمور كما قلت لك من قبل، وحينها اضطررت لمغادرة

البلاد بعد أن قدمت استقالتي.. ولكن مدير شئون الموظفين رفض رفع الاستقالة للوزارة إذ كان بيني وبينه حساسية حينما رفضت إعطاء إجازة مرضية لأحد أصدقائه كما أنه كان يرى أنني عبد (متعنطز) أتعامل كأنني سيد من الأسياد!.. والنتيجة كانت أن الوزارة رفدتني رفداً تعسفياً بعد مرور أسبوعين إذ أعتبرتني غائباً عن العمل، وبالتالي رفضوا إعطائي شهادة خبرة، وليس لي مستحقات مالية ولا متأخرات، وفوق ذلك ممنوع من التعاقد مع الحكومة في أي وظيفة لمدة سنتين من تاريخه!.. الخلاصة أنني طردت طرداً من السعودية، وكان ذلك بعد أن غادرت أراضيها، وذلك بفضل رجل واحد كان يكرهني!..

لا أدري لماذا أتذكر أغنية بوب مارلي (أنا أطلقت النار على الشريف[32]):

(جاءت الحرية في طريقي يوماً ما..
وبدأت أقود خارج المدينة، نعم!
وفجأة رأيت الشريف جون براون
يوجه مسدسه ليصيبني بالرصاص..
ولذلك.. أطلقت، أطلقت، أطلقت عليه الرصاص!
وأقول: لو كنت مذنباً سأدفع الثمن!
أنا أطلقت النار على الشريف، نعم!
ولكنني لم أطلق النار على النائب!..)

32 "I Shot the Sheriff", by Bob Marley

نفس إحساس الرصاصة في الظهر التي أتتك وأنت تهرب للحريـــة، ولكن الفرق أنني لم أطلق النار على الشريف (جون براون)!..

(7)

في ذلك الوقت كنت قد رجعت محبطاً من السعودية، ليس لأنني لـــم أحقق أحلامي ولكن لأنني لم أستطع أن أنفذ ما وعدت نفسي أننـــــي سأفعله لأجل أمي..

وحينما عدت كانت حالة أمي قد ساءت تماماً.. كانت قـــد تحـــولت لهيكل عظمي يمشي على قدمين.. لا تستطيع أن تأكل أو تشرب، لا تستطيع أن تجلس أو تقف أو ترقد، لا تســـتطيع أن تخـــرج البـــول (كانت في مرحلة الغسيل الكلوي) ببساطة لم تكن تعيش..

ولم أستطع أن أتحمل رؤيتها كذلك، وكنا قد حاولنا كل ما يمكن مـــن الناحية الطبية بدون فائدة.. ورغم أنني رجل عاقل ومنطقي إلا أنني بدأت أفكر في النواحي غير المنطقية..

كنت جالساً مع (وليد) في المقهى إياه ندخن الشيشة حينما سألني:

– الحاجّة كيف يا مان؟..

* ما كويسة والله يا (وليد).. حالتها دي حيرتني ياخ.. الموضوع دة ما ممكن يكون مديكال..

نفث الدخان وسألني:

– كيف يعني؟..

تناولت منه الخرطوش وأخذت نفساً ثم قلت من خلال الدخان:

– يعني الحاجات البتحصل ليها فجأة بدون أي مناســـبة دي.. فجـــأة الضغط في السما.. فجأة في الواطة.. فجأة الســـكر تحـــت.. فجـــأة

طبيعي.. فجأة الكلى وقفت.. المفاجآت دي أكتر من اللازم..

* أهه وداير تقول شنو يعني؟..

– داير أقول إنو الموضوع ده ما ممكن يكون عين؟ سحر؟ عمل؟..

صمت (وليد) لحظات مفكراً ثم قال محاولاً أن يبدو محلياً متفتح العقل:

– الموضوع صعب والله.. صحي الحاجات دي بتجي فجأة كدة لكن أي حاجة ليها تفسير..

* أها فسر لي.. أنا غلبني.. إنت عارف الحاصل من طق طق للسلام عليكم.. فسر يا (حكيم الزمان الهمذاني)..

صمت لحظات مفكراً ثم أسقط في يده فقال:

– طيب نفرض جدلاً إنها عين ولا سحر.. وبعدين؟..

* وبعدين دايرين شيخ كارب كدة يزبط لينا الموضوع ده.. وأنا مستعد أدفع أي تكاليف ماف مشكلة..

استلم مني الخرطوش ونفث الدخان قليلاً ثم قال:

– انت عارف الشيخ البتتكلم عنو ده ما حيكون شيخ شيخ؟ انت فاهم كلامي صح؟ الجماعة ديل بتعاملوا بحاجات تانية غير القرآن؟..

صمت أنا لحظة ثم قلت بتصميم:

– والله يا (وليد) أنا جبت لأمي دي كمية من قراء القرآن يقروا ليها وما جابوا أي فايدة.. ذكروني بس (يقرأون للقرآن لا يتجاوز حناجرهم).. حالياً أنا مستعد أتحالف مع الشيطان ذاتو بس أمي تبقى كويسة.. أشوفها تاكل زي باقي البشر.. تقيف زي باقي البشر.. ياخ تنوم ساي زي باقي البشر..

صمت (وليد) لحظات ثم قال باستسلام:

– خلاص كويس.. أنا بشوف ليك الموضوع ده.. أديها صنّة بـــس وبرجع ليك..

* * *

كان (وليد) من النوع (الفهلوي) أو (الملحلح) الذي يمكن أن تطلـــب منه لبن الطير فيقول لك:

– عايزه عادي ولا كامل الدسم؟..

وقد قام بعدة اتصالات تحصل بعدها على رقم الشيخ الذي حكى لـــه القصة باختصار، فطلب منه الشيخ أن آتي فأقابله في مسيده لأن هذه الأمور لا يمكن حلها بالتلفون.. ذهبت لأقابله لأفاجأ بمئـــات للنـــاس الجالسين منذ الفجر في صفوف متداخلة ملتوية ينتظرون أن يقـــابلهم حوار الشيخ (بالضم وليس بالكسر والحوار هو الحواري أو خاصـــة الشيخ) – وليس الشيخ نفسه فهذا مقابلته في نفس اليوم مستحيلة!..

شققت الصفوف بصعوبة شديدة وتمكنت من الوصول لأحد الشـــباب الواقفين على الباب، وكان شاباً يبدو عليه الذكاء، حليق الوجه، يلبس نظارات طبية من ماركة محترمة وعليه قميـــص وبنطلـــون يخفـــي داخله أسفل القميص (حوار متحضر جداً لو أردت رأيي).. تمكنـــت من الوصول إليه وقلت له لاهثاً:

– أنا جاي للشيخ من طرف (وليد)..

لم ينظر إلي الشاب بل فتح الباب لي لأدخل، فدخلت مندهشاً – بـــل حقيقةً كنت مذعوراً – من علاقات (وليد) التي وصلت هـــذا الحـــد! يخرب بيتك يا (وليد) يا مجنون!..

الغرفة الداخلية كانت تختلف تماماً عن الخارجية.. هناك كان النـــاس جالسين على (بروش) مفروشة على الأرض، وهذا يركب فوق رقبة

هذا أو ظهره أو أذنه.. أما هنا فهذه غرفة الـ(VIP).. هنا كراسي وثيرة ككراسي الوزراء.. هنا رائحة معطر في الجو وأربعة مكيفات (سبليت يونت) تعمل بكفاءة عالية.. هنا ناس من شاكلة رئيس منظمة (الأتقياء) الخيرية التي عملت معها فترة الخدمة الوطنية – ذكرني أن أحكي هذه القصة فيما بعد..

وجدت كرسياً فارغاً وجلست عليه.. جاءني شاب مهذب من شاكلة الواقف على الباب من الخارج وسألني ماذا أشرب فشكرته معتذراً.. انتظرت دوري حيث كان هناك شاب ثالث يدخل الناس بالدور إلى الشيخ في الغرفة الثالثة من هذه الحلقة..

حينما جاء دوري وأنا بالباب همس لي الشاب بالتعليمات في أذني:

– أقلع جزمتك وخش باليمين.. سلم على الشيخ وأقعد بالجنبة.. لو ما سألك ما تتكلم.. لو ما مد يدو ما تمد يدك، ولو مد يدو سلم عليها (أي قبل يده لمن لا يفهمون هذه الأمور!).. أول ما تقعد خت البياض في الشال القاعد قدام الشيخ ده (البياض هو المال للذي تدفعه – طوعاً – للشيخ ليقدم لك خدمة، لا بد أن يكون طوعاً فالشيخ لا يأخذ أجراً على خدماته).. جبت كم بياض؟..

طبعاً كان (وليد) قد أخبرني أن آخذ معي مليونين على الأقل كبياض لأن الشيخ يعرف كمية المال الذي أضعه، وخدماته كما قال (قدر بياضك!).. أي كلما وضعت بياضاً أكثر كلما كانت الخدمة أسرع تأثيراً وأكثر ضماناً!..

أخبرته بأن معي ثلاثة أرانب (الأرنب هو المليون للجديدين على عالم الإجرام) فهز رأسه في رضا ثم أشار لي للدخول.. دخلت وفعلت كما قال بالضبط.. سلمت، جلست، وضعت البياض، انتظرت

الشيخ وهو مطرق ويجر سبحة كبيرة في يده ويتمتم بكلمات غير مسموعة، وحوله ثلاثة شباب واقفين بثبات وقفة صولات في استعراض عسكري، حتى قال بدون أن يرفع رأسه:

– قول يا ولدي.. شن جابك..

تنحنحت قبل أن أقول بصوت خفيض:

– والله يا مولانا أنا جيتك ما عشاني أنا، عشان أمي.. أمي تعبانة شديد ومرضها مستمر ليهو أربعتاشر سنة..

قاطعني الشيخ بهدوء:

– اسمها منو؟..

* نفيسة..

– اسمها الكامل؟..

* نفيسة بت الحاج محمود محمد متوكل..

صمت الشيخ لحظات وهو يجر سبحته ثم قال بدون أن يرفع رأسه:

– ما بتقدر تنزل حاجة في جوفها؟..

* أيوة..

– كان عندها المرض الكعب (يعني السرطان) واتعالجت منو؟..

* أيوة..

– ضغطها بطلع وبنزل براهو؟..

هنا كنت قد بدأت أرتجف حقيقة من معرفته لهذه المعلومات (لا أدري هل أخبره وليد؟)، وقلت بصوت مهزوز:

– أيوة..

واصل هو:

– بتغبّي (أي تغيب عن الوعي) ساعات وترجع براها؟..

* أيوة..

صمت لحظات أخرى ثم قال:

– أمك دي عارف عندها شنو؟..

أجبت بصدق:

– ما عارف يا مولانا..

أجاب بهدوء:

– عندها عمل قديم معمول ليها من هي صغيرة.. العمل شغال فيها ليهو سنين طويلة جداً.. الحاجات دي ممكن تتعالج من بدري لو اتعرفت لكن أمك وصلت مرحلة متأخرة.. الجن بيمسك في الزول المعمول ليهو عمل ويشتغل فيهو حتة حتة، يهد صحتو بالراحة بالراحة زي كأنك بتنزّل في حيطة طوبة طوبة.. آخر مرحلة هي لما يمنع الجسم من الموية لأنو ربنا قال (وجعلنا من الماء كل شئ حي).. لمن تصل المرحلة دي خلاص معناها الجن اتمكن من المريض ويومو تمّ..

كنت أرتجف تماماً عند هذه النقطة وقلت بصوت نبراته غير واضحة على الإطلاق:

– والعمل يا مولانا؟ العمل؟..

أجاب بهدوء:

– العمل عمل ربنا.. أرمي نيتك على الله والفيها خير ربنا بسويها..

وهو كلام عائم لا رأس له ولا ذيل[33].. ولكنه صمت بعدها تماماً ولم يضف حرفاً.. وأشار لي الحوار الواقف عند كتفه الأيمن لأنصرف.. كنت مذهولاً.. كنت محبطاً.. كنت يائساً.. كنت محطماً.. حاولت أن

33 مقولة عمنا رفعت إسماعيل كالعادة!

أترجاه:

– طيب يا مولانا ماف أي حاجة ممكن تتعمل؟..

لم يجبني الشيخ في حين كان الحوار فاتحاً عينيه لأقصى مدى لتخويفي وهو يصر على أسنانه ويشير بيده بحركات متشنجة لأنصرف.. قمت مكسوراً متهدل الأكتاف أجرجر أذيال الخيبة.. تركت البياض في مكانه، لبست حذائي وانصرفت والدموع تسيل من عيني في قهر..

* * *

كان الشيخ دقيقاً جداً فيما قال.. لم تمض ستة أسابيع حتى كانت أمي قد توفيت على طاولة الغسيل.. دخلت في هبوط حاد قبل انتهاء الجلسة.. حاول الأطباء انعاشها ولكنها لم تستجب.. قاموا بعمل إنعاش قلبي رئوي[34] ولكنها لم تستجب.. استمروا يعملون لمدة أربعين دقيقة رغم أن الزمن المتعارف عليه هو عشرون لثلاثون دقيقة.. وأخيراً جاءتني طبيبة الغسيل تقول بحزن:

– الدوام لله يا دكتور..

لم أستوعب حقيقةً ما حدث.. كنت أنظر إلى أمي ممددة فوق طاولة الغسيل، قميصها ممزق من جراء الإنعاش،يدها ساقطة خارج الطاولة، أحد فردتي حذائها سقطت على الأرض، تناولت الفردة وألبستها لها.. وقفت أنظر إليها والمرضى والأطباء يواسونني وأنا لا أسمع ما يقولون.. كنت أراها تفتح عينيها وتقول لي:

– (خلودي) جيب لي موية أنا عطشانة..

34 Cardio-Pulmonary Resuscitation (CPR)

كنت أراها تمد لي يدها المعروقة وهي تقول:
– حبيبي قومني عشان أقعد أصلي العصر، المغرب حيأذن..
كنت أراها تبتسم لي وترسل لي قبلة في الهواء، ثم تغمض عينيها وتحلم..
كانت آخر مرة أغمضت فيها عينيها ولم تفتحهما مرة أخرى..
وكانت آخر مرة أغمض فيها عيني وأفتحهما لأراها أمامي..

* * *

(لا يوجد شروق حينما تغادر..
الجو ليس دافئاً حينما تكون بعيدة..
لا يوجد شروق حينما تغادر..
ودائماً يكون غيابها طويلاً
في أي مرة تغادر فيها..[35])

* * *

انتشر الخبر بسرعة البرق، وجاء الأعمام والأخوال من كل مكان..
كنت كالروبوت أمشي بآلية.. يقولون لي (تعال لندفن أمك) فأسير وراءهم.. يخبرونني أن (اتصبر عارفينها كانت عزيزة عليك) فأنظر في اللامكان بدون أن أرد.. يقولون لي (تعال أكل انت ما أكلت شئ من أمس) فآكل بآلية وأمضغ الطعام وأبتلعه وأنا لا أدري هل هو حامض أم مالح..
كنت في صيوان العزاء أجلس لا لأستقبل المعزيين، فأمي ذهبت ولن يفيدني عزاؤهم بشئ، ولكن لأنني لا أعرف أين أذهب الآن.. كل حياتي كانت متمحورة حولها.. أخرج الصباح لأسلم عليها قبل أن

35 "Ain't No Sunshine", by Bill Withers.

أذهب للدوام.. آتي من الدوام لأسلم عليها أو أجدها نائمة فأقبلها فتفتح عينيها وتبتسم لي ثم تقبلني وتواصل النوم.. أحادث صديقي الصيدلي الذي يعمل بشركة (GSK) ليأتيني بالأدوية لها.. أجلس في العيادة فأتخيلها أمامي كلما قست الضغط لمريض أو وضعت سماعتي على صدر مريض بالربو..

كنت قد فقدت بوصلتي في الحياة.. كان هدفي هي، والآن لا هدف لي..

جاء أبي من السفر حينما علم بوفاة رفيقة دربه.. كان محطماً مثلي وأكثر.. كان يائساً من الحياة.. كان محتاراً قد باظت بوصلته مثلي تماماً فكان يتلفت طوال الوقت حوله حائراً لا يدري أين يتجه..

حينما قابلته لم أذرف دمعة واحدة، فقد أصبت بتبلد شعوري منذ لحظة الوفاة.. نظرت إليه ونظر إلي، التقت عينانا في حوار طويل جداً.. لم ننطق بكلمة.. احتضنني واحتضنته علي أجدها بين ذراعيه، وتشممني هو عله يجد بقية من رائحتها لدي.. لم نتحادث وجلسنا جوار بعض صامتين، وأنا أعلم يقيناً أننا نفكر في نفس الشئ: ماذا أفعل بعدك يا (نفيسة)؟..

كنت أنظر بعين لا ترى للمعزيين وهم يسألون (أين القهوة؟)، (أين الفطور لماذا تأخر؟، الناس ينتظرون) وأنا لا أفكر فيهم فهذه الأشياء صارت لا تعنيني، ولكني كنت أفكر: لو كان كلام الشيخ صائباً، فمن الذي عمل لأمي العمل؟.. ذكرني بمن قال البيت:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على النفس من وقعِ الحسامِ المهندِ؟

يأتي أخي فيقول لي:

– خالك داير يعزيك.. تعال شيل معاهو الفاتحة..

فأنظر له بعين خاوية ثم أتمتم:

– يعزيني في أمي؟ أشيل، أنا.. معاهو، هو.. الفاتحة؟ في أمي؟..

يشتمني أخي ويجرني من يدي ويقول:

– قوم الله يهديك ما ناقصين مشاكل..

أذهب لخالي وآخذه بالحضن فيقول لي ويداه بجانب جسمه لا يرفعهما ليحضنني:

– الدوام لله يا (خالد).. اتصبر..

أفك يدي من حوله وأنظر إليه بنفس النظرة الخاوية ولا أرد، ثم أنصرف..

يأتيني أخي غاضباً:

– ده شنو السويتو مع خالك ده؟ هسة قال زعلان وداير يمشي..

أرد بلا اكتراث:

– قلت لي عزيهو وعزيتو.. البكاء بكاء أختو كان داير يمش يخلي عزاء أختو هداك الدرب..

يهز أخي رأسه ويدمدم بكلام غير مفهوم وهو يبتعد..

أنظر لأبي الجالس جواري وينظر لي.. مرة أخرى تتلاقى عينانا في حوار حزين أسود باكٍ بدون كلمات.. أشفق على هذا الرجل بصدق، لأنه عاشرها أكثر مما فعلت أنا، وحقيقةً أنا أعلم مقدار ضياعه بعدها..

هذه المرأة كانت تفهمه دون أن يتكلم.. يفكر لحظة أنه يرغب في كوب من الشاي ليفاجأ بها خارجة من المطبخ وهي تحمل صينية

عليها ثيرموس شاي وكوبين وسكر، ومعها ابتسامة بعرض المستقبل!..

يكون خارجاً للعمل فتوقفه لحظة لتهندمه.. تكون في ثوان قليلة قد مشطت شعره، سوّت بذلته، ورنشت حذاءه، رفعت فردة شرابه وأعطته قبلة وداع على خده..

يحمل كراسات الإمتحانات من المدرسة إلى المنزل فتجلس معه بصبر تراجع كل ورقة وتحسب مجموع كل درجات بعده حتى لا يكون قد أخطأ في الحساب ويلام فيما بعد..

يكتب مذكرة لطلابه بخط مشفر لا يستطيع هو نفسه قراءته فتجلس هي لساعات تفك الشفرة وتطبع صفحات المذكرة، لا لشئ إلا لأنه عمل يخصه هو..

كنت أعلم أنه ضائع ولا يرغب في العيش بعدها لحظة واحدة..

بدأت أفكر مع نفسي.. أنا لم ألقن أمي الشهادتين.. أنا لم أكبر أو أؤذن في أذن أمي.. أنا لم أحضر غسيل أمي أو تكفينها.. أنا لم أنزل في قبر أمي.. هؤلاء حملوها بسرعة البرق ودفنوها بليلها ذاك كأنهم يدفنون مصيبة يحملونها على أعناقهم.. ذكرني ذلك بدفن عثمان بن عفان الذي عاش ومات مظلوماً..

كنت قد وصلت لقرار واضح: أنا لا أستطيع أن أحتمل المعيشة في هذه البلد بعد أمي.. لا بد أن أغادر هذا البلد بلا رجعة..

(8)

لم تكن العودة للسعودية في خططي مطلقاً، فهؤلاء القوم قد شـــوهوا نظرتي للإنسانية إلى الأبد..
كنت قد اكتفيت، أو كما غنى بوب مارلي[36]:

(ينزل الدلو يومياً في البئر..
يوماً ما سينقلب الأسفل للأعلى..
يوماً ما سينقلب الداخل للخارج..)

كنت في صغري أعتقد وأومن بالكلام الذي يقولونه لنا عن أنـــه (لا فضل لأحمر على أسود إلا بالتقوى).. كنت أومن أنني بشر مثل بقية البشر (أتذكر هنا قصيدة أحمد مطر بنفس المعنى) وأن لـــي نفـــس الحقوق وعليّ نفس الواجبات كأي شخص آخر.. هكذا رباني أبـــي الفاضل.. هكذا ربتني أمي رحمها الله.. ولكن الصدام مـــع الواقـــع علمني عكس ذلك..

كنت متفوقاً في جميع مراحل دراستي الابتدائية والثانوية، حيث كنـــا وقتها في الخليج حينما كان أبي مبتعثاً حكومياً.. لم أتـــرك ترتيـــبي كالأول على الصف إلا مرة واحدة (كنت حينها مريضاً) وقد آليـــت بعدها ألا أنزل من المرتبة الأولى أبداً.. لم أكن – وأنا طفل – أفهـــم نظرات الغيرة والحسد من الأولاد غير السود، كنـــت أظـــن أنهـــم

36 "I Shot the Sheriff", by Bob Marley

أصدقائي حيث كنا نلعب معاً وندرس معاً.. فهمت كل ذلك حينما كبرت واغتربت وتفتحت عيناي على الدنيا.. كيف لكون ذكياً أو طبيباً شاطراً وأنا أسود؟ هذا هو السؤال الذي أراه الآن في عيون البيض قبل ألسنتهم.. وعرفت حينها أنني كي اكسب احتراماً في العالم الأبيض لا بد أن أفرضه فرضاً، وذلك بأن أتميز في العلوم أو الكمبيوتر أو الطب أو أي شئ، المهم أن يحسوا أنهم يحتاجونك وعندها سيحترمونك!..

وكما قال أحد العلماء الكبار (هل كان طه حسين؟) للبروفسير المرحوم (عبد الله الطيب): أنت تتحدث بالعربية أحسن من أهلها!.. (يا رب السماوات! هل فعلاً قرأت "أحسن من أهلها"؟ نعم يا صديقي هذا ما حدث، أو على الأقل الرواية تقول ذلك)..

أنا لست عنصرياً، ولكن العالم عاملني بعنصرية جافة لم أستطع إلا أن أقابلها بمثلها..

أذكر أنني كنت في مطار (أبي ظبي) مسافراً لحضور مؤتمر ما في مكان ما، وكنا واقفين أمام الكاونتر لتسجيل الدخول (Check in) للسفر، وكان أمامي شخص سمين فخور بنفسه جداً (أعتقد لبناني من لهجته وطريقة تعامله المتعالي فهم يرون أنهم خواجات العرب).. وكان هناك كاونتران يعملان أحدهما أمام الصف مباشرة والآخر على بعد عدة كاونترات إلى اليسار.. جاء دور الرجل فذهب للكاونتر الأيسر، لم أتابعه بنظري لأنه لا علاقة لي بما يفعله، وكان ذلك خطأ، فالرجل تم إعادته من الكاونتر لأنهم مشغولون بشئ آخر، فوقف جواري – على مسافة آمنة، فهو لا يضمن أن أنط في حلقه

لأقرشه، تذكر أنني أسود من الغابات والسود يقرشون الحلوق – دون أن ألاحظ كل ذلك.. أشارت المضيفة في الكاونتر أمامي بأن (next) فحملت حقيبتي ووقفت أمامها.. فوجئت بالرجل يصيح من خلفي بقرف شديد وبالإنجليزية (لا بد أنه ظنني نيجيرياً):

– اكسكيوز مي؟ اكسكيوز مي؟ هذا دوري!..

لم ألتفت إليه لأنني لم أظن أن الكلام موجه لي، أنا رجل أحترم دوري فلا حاجة لي بأن أدخل في دور شخص آخر لأكسب عدة دقائق فقط.. كان الرجل واقفاً خلفي ولكن على مسافة مأمونة (تذكر قرش الحلق) وهو يحادث المضيفة بصوت عالٍ:

– هذا دوري.. هذه فوضى.. كيف يدخل هذا مكاني؟..

لم تحاول المضيفة حتى أن تسألني إن كان دوري فعلاً أم لا! نظرت لي باتهام وقالت:

– ألم تنتظر دورك؟..

لم أحاول الدفاع عن نفسي، ببساطة لأن نظرات الاتهام منها ومن ثلاثة المضيفين الواقفين كلها كانت تشير بوضوح لأنني مخطئ على طول الخط! كما كانت نظرات القرف من بقية الصف التي ترمق هذا العبد القادم من أدغال أفريقيا ليلوث الحضارة كافية للتراجع! كنت أكاد أسمع الأفكار في عقل المضيفة: ينبغي أن يتعلم هؤلاء الحضارة قبل أن يخرجوا لمقابلة العالم!..

* * *

كنت أجلس لوحدي وأفكر: كيف يكون هذا هو الإسلام؟ أنا عايشت هؤلاء القوم ورأيت ما يفعلونه.. رأيت كيف يطوعون النصوص والآيات لمصلحتهم الشخصية.. كنت أظن الكيزان فجاراً يتاجرون

بالدين بلا وازع من ضمير، ولكني اكتشفت أنهم مجرد تلميذ في الكنبة الأخيرة في صف من العباقرة المتفوقين..

عرفت كيف تكون الأنثى أنثى حينما تكون عربية – وتحديداً مواطنة، ولكنها ليست أنثى (ولا بشراً) حينما تكون أي شئ آخر!..

جاءني ذلك الرجل الملتحي صاحب علامة الصلاة وأنا جالس في الطوارئ في المملكة، وسألني بكل تهذيب:

– فين يا دكتور ألقى دكتورة حرمة؟ معي أهلي (أي زوجتي) أبيها تكشف عليها..

رددت باحترام فأسلوبه كان راقياً جداً:

– ادخل الطوارئ جوة يمكن تلقى دكتورة حرمة.. احنا اليوم دكتورين رجال في العيادة..

انصرف من عندي، وبعد عشرة دقائق كان يطل علي مرة أخرى قائلاً بنفس التهذيب:

– شكراً لك يا دكتور لقينا الدكتورة وكشفت على الأهل.. الحين بجيب لك الشغالة تكشف عليها!..

رفعت رأسي مستغرباً:

– الشغالة مش حرمة؟..

* إي بس هي أثيوبية!..

عرفت حينها ذلك الدرس القاسي: الأسود ليس بشراً!..

على أنني – والحق يقال – قد عرفت أن هؤلاء القوم لديهم مشكلة حقيقية مع النساء.. كان من الطبيعي أن تكون جالساً في غرفة الإصابات لتأتيك امرأة منقبة يقودها شاب صغير (فالرجل ليس لديه

وقت ليجلبها للمستشفى)، ينهرها الولد لتتقدم.. تدخل المرأة الستار وتدخل أنت وراءها.. تفتح النقاب لتفاجأ بوجه أحمر متورم وعينين حمراوين تقف الدموع على طرفهما.. تسألها باستغراب:

– ايش اللي حصل؟..

فتجيبك دامعة:

– زوجي ضربني بالمداس على وجهي..

و(المداس) لمن لا يعلم هو الشبشب.. تنظر لها باستغراب وأنت لا تصدق!.. كيف يمكن أن يضرب الرجل زوجته بالشبشب على وجهها حتى يتحول من الأبيض للأحمر المتورم هكذا؟.. بعد فترة اكتشفت أن جميع النساء اللواتي يأتيننا في الحوادث هن مغربيات أو تونسيات أو مصريات متجنسات.. ومعنى متجنسات أن السعودي يتزوج هذه المرأة ثم تعطى الجنسية السعودية بالتبعية.. دائماً كانت المرأة هي الزوجة الثانية لأن العرف السعودي لا يسمح للرجل بأن تكون زوجته الأولى أجنبية إلا في ظروف خاصة جداً و(controlled).. وحتى هنا يجب أن يحصل على موافقة رسمية لزواجه من أجنبية.. كانت المرأة تدمع وهي تقول:

– أنا مش عاوزة علاج.. أنا عاوزة يتفتح محضر في الشرطة علشان زوجي يتأدب وما يمدش إيدو عليا تاني..

وعرفت بعدها أن المرأة السعودية التي تُضرب بالمداس لا تأتي للحوادث.. ببساطة لأن الزواج عندهم قبلي، فلو جاءت المرأة واشتكت زوجها ستقوم حرب البسوس في الحي لأن زوجها غالباً ما يكون ابن عمها أو ابن خالها أو أي شئ في إطار القبيلة، إذاً هذا العالم يقف مع الرجل صاحب المداس ولا يقف مع المرأة المظلومة..

كنا جالسين في الطوارئ حيث لم يكن هناك مرضى، وكان موظف الاستقبال السعودي شاباً ظريفاً يحب الدردشة، وكنا ندخن أمام باب الطوارئ ونتحدث في مواضيع تافهة حينما سألني:

– انتو يا دكتور صحيح عندكم في السودان ناس يمشون بلا ملابس؟ صحيح في ناس يعيشون في الغابة؟..

وحينها عرفت الدرس الثاني: الأسود ليس بشراً، وإن كان، فهو بالتأكيد ليس متحضراً!..

كنت جالساً في غرفة الإصابات حينما جاءني ولدان بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، كانا مصرين على أن أكشف على إصابة قديمة برجل أحدهما وأنا أقول:

– هذي طوارئ الإصابات مش عيادة العظام.. تعال بكرة العيادة..

وكانا مصرين تماماً على أن أكشف على الولد، ولما أصررت على موقفي رفع الولد رجله فوق الطاولة أمام وجهي بالضبط وأشار للجرح القديم قائلاً:

– يلا زين جيب لفة! (واللفة تعني الرباط الضاغط)..

استفزتني الحركة فقمت من مكاني وذهبت لموظف الاستقبال وأصررت عليه أن يتصل على الشرطة حالاً، بينما نادينا الولدين في مكتب المدير.. جاءت الشرطة بعد خمس دقائق ولما دخل الصول للمكتب سلم على الولدين سلاماً حاراً رغم أنه لا يعرفهما، ثم التفت إلي وأنا ألبس الزي الرسمي وقال:

– ايش المشكلة يا زول؟..

وحينها عرفت الدرس الثالث: العبد عبدٌ ولو طالت عمامته!..

* * *

ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء ينشرون الإسلام على طريقتهم الخاصة وحسب فهمهم.. كنت أناقش أحد أصدقائي وأتحدث عن علماء السلطان (كما يسميهم الفاتح جبرا) فكان مغتاظاً جداً وهو يقول:

– كيف تقول كدة عن علماء السنة؟.. انت مش شايف مساعداتهم للسوريين والروهينجا والفلسطينيين؟..

وكنت أنا أرد:

– آآآآه كدة انت جيتني في محلي!.. أشرح لي لو سمحت ليه الناس ديل مقومين الدنيا تبرعات لسوريا، في حين إنو الصوماليين ديل ديشهم طالع من ما قامت دولة الصومال؟يـاخ أي صورة بتلعة مجاعة تلقاها في النت تكتشف إنها من الصومال.. موش زمـــاااان أيام المدرسة كان غلاف الكراس مرسوم فيهو العالم العربي والإسلامي، والصومال جزء منو؟ ولا غيروهو؟.. ماف عالم ولا داعية بتذكر الصومال ليه؟..

صمت صديقي فيما واصلت:

– أنا ما بقول سوريا ما فيها أزمة.. أنا بقول إنو الناس ديل عندهم (خيار وفقّوس).. الأسود دة حيفضل تحت الجزمة بغض النظر عن إنو مسلم ولا بطيخ..

صمت أنا لحظة لأبتلع بقية لعابي الذي كان يتناثر حولي كالمطر ثم واصلت:

– بعدين تقول لي الروهينجا؟ ياخ هسي دي أفتح اليوتيوب واكتب (الإبادة العرقية في أفريقيا الوسطى) وشوف المجازر البتحصل!.. ليه ماف زول اتكلم عن ابادة المسلمين في (أفرقيا الوسطى)؟..

فتحت له الفيديو الذي يجعلك تتقيأ.. مجموعة من العساكر الأفارقة واقفين باستمتاع بينما هناك مجموعة بائسة من الرجال (الأفارقة أيضاً) الذين يلبسون ثياباً رثة وهم يجلسون مقيدي الأيدي ينظرون للأرض باستسلام.. ينادي العسكري الواقف وبيده ساطور أطول من السيف، ينادي أحدهم فيقوم مستسلماً ويرقد أمامه متخذاً وضع الذبيحة.. يضع أحدهم (البوت) العسكري فوق رأسه ليثبته، بينما يبدأ الآخر في ذبحه بالساطور وهو في قمة الاستمتاع!.. تسيل دماء الرجل على الأرض ويفرفر ويرفس والروح تخرج منه بينما يدفعه العسكري بقدمه ليسقط في.. يسقط في حفرة مليئة بالأجساد التي تفرفر وترفس والروح تخرج منها!..
الفيديو وطريقة تصويره وارتجاف يد المصور وزاوية التصوير ورداءة جودة الفيلم تؤكد أنه ليس فيلماً (هوليودي) التصوير كأفلام (داعش) التي أثارت التساؤل حول حقيقتها.. هذا الفيلم حقيقي لدرجة الألم..

غادرت السودان وذهبت للإمارات حيث وجدت عملاً بقسم الباطنية بمستشفى كبير بـ(أبي ظبي).. عملت هناك سنتين ونصف وكنت سعيداً لأن معظم مرضاي من غير الناطقين بالعربية، رغم أنني عايشت الهنود وعرفت أنهم أرذل من هؤلاء وهم يتعاملون بعنصرية شديدة مع بعضهم، حيث توجد درجات ومراتب وقبائل تتمايز عن بعضها بالحسب والمال، تماماً كما هو الحال هنا.. رأيت مرة هندياً يعمل في وظيفة مرموقة يصيح في هندي آخر يعمل جامع قمامة ويذله (بالهندي لحسن الحظ) والثاني يقف ذليلاً منكس للرأس لا

يرد.. رأيت كيف يحتقر الهنود الباتان (الباكستانيين)، وكيف يحتقر الباتان البنغالة، وكيف يكره البنغالة الهنود، رغم أنهم جميعاً جنس واحد! حيث كانت دولة الهند واحدة ثم قسم الإنجليز الدولة لهند وباكستان، ثم فصلت بنغلاديش عن باكستان![37]..

كنت مستقراً هناك، إلا أن المدير الطبي الهندي كان يضايقني بشدة.. فهو طبيب عمومي وأنا طبيب أخصائي بشهادات عالية كما قلت لك من قبل، كما أن تعاملي مع المرضى تعامل راقٍ لا لشئ إلا لأنني تعلمت ذلك من الإنجليز خلال دراستي للزمالة.. كان يكرهني كالموت، وصار يدخلني بالقوة في أي خانة خالية يجدها: إذا ذهب طبيب لإجازة فعلي أن أغطي مكانه، إذا حصل نقص في الأطباء فعلي أن أغطي ذلك، ووصل الأمر مرحلة أن يطالبني بأن أسد نبطشيات مع النواب، وحينها رفضت وقدمت استقالتي للتي قبلها بمنتهى السرور.. طبعاً وصل الأمر للإدارة على هيئة (طبيب يرفض العمل) وليس بالصورة الحقيقية!..

تركت البلاد مضطراً وذهبت لقطر وعملت فترة بها وواجهت مشاكل متعددة كلها تدور في نفس الفلك، وربما يمكنك أن ترى الآن لماذا أكره الهنود بشدة.. حينما أرى تلك الصورة المنتشرة على الفيسبوك والتي تمجد الهند وتقول أن الرؤساء التنفيذيين لمايكروسوفت وجوجل وآبل وأوراكل كلهم هنود فأنا أحس برغبة عارمة في أن أفرغ معدتي على الأرض..

لا تفهمني خطأ فأنا لا أكره كل الهنود أو الباتان أو البنغالة.. بعض

---

37 استقلت باكستان عن الهند في 14 أغسطس 1947، بينما استقلت بنغلاديش عن باكستان في 26 مارس 1971م.

من أفضل من قابلتهم في حياتي من هذه الجنسيات، وبعضهم لا زالوا أصدقائي نتواصل عبر الفيسبوك والواتساب.. لكنني أتحدث عن السمة العامة التي لاحظتها..

الموضوع بالضبط يشبه ما يحدث عندنا في السودان: أنا جعلي وأنت شايقي، أنا مسلم وأنت حلفاوي نص ديانة، أنا عربي وأنت غرلبي، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً.. ولكن عندما نذهب للخليج فجأة يتحول السودان لـ(وطني ولا ملي بطني) و(العازة بلدنا) و(يا وطني يا بلد أحبابي) وتمل أذنك سماع أغاني الحنين والرغبة في العودة للوطن.. طيب ما دام الوطن حلو كدة وأنتو ناس حلوين كدة وقلبكم عليه ليه ما رجعتو؟ أرجع وعمّر بلدك يا أخي بدل تعمّر بدل الغير.. ولكن لا أحد عنده الجرأة للعودة لأنه يعلم أن كل هذا كذب.. فقاعة ننفخها ونملأها بأحلامنا وما نريد من (الوطن) أن يمثله، ثم نصدق الكذبة ونصدق أن (حلمنا) عن الوطن هو (حقيقةً) الوطن..

لا زلت أذكر حتى الآن حينما ذهبت لأستخرج الرقم الوطني، وأخذت الاستمارة لأملأها، فوجدت أعلى الاستمارة في أول سطر مكتوب بعد الإسم مباشرة: القبيلة!.. هذا يريك أننا لا نختلف كثيراً عن الهنود.. هم على الأقل تمكنوا من صنع مفاعل نووي وقمر صناعي وموتر باجاج.. دعهم يتشدقون يا أخي فهم على الأقل فعلوا شيئاً ما..

وأرجو ألا تدخل بي في متاهة (ديل الخواجات أولاد الكلب)، و(دي مؤامرة صهيونية ماسونية ضد الإسلام)، و(الغرب يخاف مما يمكن أن نفعله إذا اتحدنا ولذلك يفرقوننا) ومثل ذلك، هذه عبارات بليت من كثرة ما لاكتها الأفواه..

من الذي أكل أموال مشروع الجزيرة وغيره من المشاريع الزراعية حتى دمرها؟ من الذي أكل مليارات الدعم الخارجي التي كانت تتدفق علينا أيام توقيع اتفاقية السلام؟ من الذي أكل مليارات البترول – على قلتها؟.. عقدك لحاجبيك وصمتك المتوتر يعني أنك تفهم ما أريد قوله! لا تحشر الخواجات في كل شئ، نحن بيننا أولاد الكلب أيضاً.. أمريكا لم تترك كل شئ في يدها بما فيه العراق وأفغانستان وروسيا وأمسكت فقط بجلابية السودان لتمزقها.. الوطن مزقناه نحن بطائفيتنا قبل أن تمزقه أمريكا.. وفضلاً لا تقل لي أننا محاصرون اقتصادياً فكيف نتصرف؟ يا أخي إيران محاصرة مثلنا تماماً ولا زالت تسير بخطى حثيثة نحو النووي، واليابان تدمرت تماماً بعد الحرب العالمية الثانية وضربت بالقنبلة النووية وكانوا لا يجدون ما يأكلون حتى صاروا يأكلون أي شئ يتحرك[38]! (وهي مقولة تاريخية حقيقية بالمناسبة)، والآن حينما نتحدث عن اليابان نقول (كوكب اليابان) مما يدلك على المرحلة التي وصلوا لها رغم كل شئ..

أنا لا أقول أنه ليس هناك مؤامرة.. ولا أقول أن الأمريكان لا يريدون العالم أن يمشي بمزاجهم هم.. ولكني أقول أن الشرب داخلنا أكبر من كل مؤامرات (الصهيونية–الماسونية–الأمريكية) مجتمعة.. لا تنسَ (ستيفن) من (جانقو بلا قيود) من فضلك..

* * *

جئت (سلطنة عمان) وعملت بها أكثر من ثلاث سنين وكنت مرتاحاً جداً.. المواطنون متواضعون مهذبون.. الصوت خفيض ولا مجال للصياح.. الناس تحترم الدكتور وتقول له يا دكتور، ويعتذرون لك لو

38 They ate any thing that moved!

دخلوا أمامك من الباب.. الداخل من الباب يمسك الباب لمن وراءه حتى يدخل.. المرأة تأتي أولاً في كل شئ.. الصف يحترم حتى لو كان أمامه بنغالي أو هندي أو سوداني، لا يقول أنا مواطن وسأدخل أولاً بل ينتظر دوره.. السائقون ملتزمون بقواعد المرور بحرفية شديدة والحوادث قليلة.. ولأول مرة أكتشف أن سائق التاكسي يمكن أن يكون رجلاً عاقلاً – لا قاتلاً مأجوراً: لا يتهور في الشارع ولا يتخطى خطأ ويلتزم بقواعد المرور! ليس ذلك وحسب،بل يكون مثقفاً يتحدث الإنجليزية!..

هؤلاء القوم ما إن يخلع أحدهم عمامته ويجلس ليدردش معك، حتى تكاد تنسى أنك لا تتحدث مع أحد بني جلدتك لولا اختلاف اللهجة.. متواضعون كما يكون التواضع.. يتحدث معك فلا ترى لمعة الاحتقار في عينيه.. عينان صادقتان شفافتان تخفيان خلفهما بحراً من الحب والألفة.. يقول لك (يا زول) ليتودد لك فتحسها برداً وسلاماً على قلبك، عكس (يا زول) التي تأتي في شكل صيحة تخرج من حلق السعودي وهو يكاد يفقد الوعي من شدة قرفه منك..

لم أكن أنوي الاستقالة من البلد، والحقيقة أنني لم أقدم استقالتي، بل كانت الظروف الاقتصادية هي التي اضطرت الوزارة لتسريح عدد 400 طبيب من مختلف التخصصات، ونظراً لأن مديري هندي أيضاً فقد كانت لي معه مشاكل متعددة، والنتيجة أنه وضع اسمي أعلى لائحة التسريح، وقد كان! تم رفدي مع خطاب شكر مهذب للغاية.. أنا لست حاقداً، على العكس أنا شاكر جداً لفترتي التي قضيتها في السلطنة فهي قد أعادت لي بعض إيماني بالإنسانية الذي كنت قد فقدته منذ زمن..

كان سبب المشكلة مع المدير الهندي أنه كان في إجازة حينما جئت أنا للبلد واستلمت عملي، فلم أقابله ولم أره.. وحينما جاء كنت لأنا جاهلاً بشكله بالطبع، ولكن هذه كانت غلطة فادحة: فالرجل يرى نفسه – بدون مبالغة – إله المستشفى..

وفي ذلك اليوم كنت أنا قد جئت لمعاينة مريض تم الإتصال علي لأن حالته معقدة، فجئت وعاينت الحالة، وكنت أدردش قليلاً مع طبيب الطوارئ، فهؤلاء الأطباء العموميون يحملون هموم للدنيا فوق أكتافهم وهم – بلا مبالغة – عماد المستشفيات في الخليج، ولولاهم لانهار النظام الصحي برمته.. أقول كنت أتحدث قليلاً مع الرجل قبل مغادرتي حينما وصل المدير ودخل علينا..

طبعاً لم ألاحظ أن الطبيب العام المسكين قد قام من كرسيه فجأة كأنما اشتعلت فيه النار، كما أنه كان متوتراً وتجاهل عبارتي التي وجهتها له تماماً وهو يقف صامتاً ينظر للرجل باحترام وهيبة.. لم أربط هذه الأشياء مع دخول الرجل الذي بدا لي مجرد هندي آخر جاء لمقابلة الطبيب..

تركت الرجل وكنت خارجاً حينما سد المدير باب الغرفة بكرشه العظيم وقال لي بلهجة آمرة:

– من أنت؟..

أصدقك القول أنني لم أنظر له في وجهه أبداً ولم ألحظ البطاقة المعلقة على صدره والمستريحة فوق كرشه، كما أنني كنت قد تترفزت تماماً من طريقته الجافة وأسلوبه غير المحترم في فرض نفسه على الحضور فقلت بعجلة وأنا أبحث عن منفذ بين كرشه

والباب للخروج:
– أنا (أبنعوف)..
لم أقل حتى أنني دكتور وهو ما يوضح لك أنني لم أعـــره اهتمامـــاً أبداً.. ولكن الرجل أوقفني بصدمة من كرشه ومد يده قائلاً بقوة:
– دكتور (راجا).. المدير الطبي..
طبعاً كان يتوقع مني أن أنزل على ركبتي وأبكي من الفرحة لرؤياه، ولا بأس من بعض الـــ(آآآه) و(أوو ماي قود) وربما (يا عين يا ليل) لو سمح الوقت! ولكنني كنت قد "قفلت" منه تماماً فسحبت يدي وقلت وأنا في طريقي للخارج:
– مرحباً..

طبعاً كانت هذه بداية النهاية.. ظل الرجل "يبحبت" و"ينكت" ورائـــي طوال ثلاث السنين بحثاً عن خطأ.. وفي قسم مزدحـــم مثـــل قســـم الباطنية لا بد أن توجد أخطاء صغيرة وبعض الحالات المشكوك في أمرها، ولكن المشكلة أن رئيس القسم الباكستانيلـــم يكـــن يحبنـــي أيضاً! وهكذا اجتمعت عليّ القوى الهندية تبحث عن طريقة لإزاحتي بعيداً..
أنا لا أحاول أن أمجد نفسي هنا ولكن أقول ببساطة أن الرجل للـــذي يظن أنه إله قد جرحت كرامته من قبل عبد أسود، وهو ما لم يغفره لي إطلاقاً، فقام بتجنيد كل من أمكنه تجنيـــده لكـــي يزيحنـــي عـــن الطريق.. وقد عاونه رئيس القسم في ذلك لا لشئ إلا لأنه – وكمـــا وصفه أحد أصدقائي الزملاء – كائن جبـــان بلا نخـــاع شـــوكي (Spineless creature)، فكان يكتب التقارير السيئة والتوصـــيات

"زي الزفت" حسب طلب المدير..

حدثت بيني وبين المدير الهندي عدة احتكاكات حاولت ألا "أطوّل لساني" عليه فيها، لا لشئ إلا لأن طولة اللسان دليل على فقدان المنطق، وأنا لا أريد أن أبدو عاجزاً أمام هذا الرجل ببساطة لأنه مثل النمر يشتم رائحة الخوف ويهجم عند مرأى الدماء.. كنت دائماً ما أتركه يقول ما يريده ثم أهز رأسي وأنصرف، تاركاً إياه يفكر بما يشاء و"يفهمها زي ما عايز"..

المشكلة الحقيقية كانت أنه قد أقنع المشرف على شئون الأطباء بالمنطقة الصحية أنني فعلاً "عيار فالت" و"دكتور مالوش لازمة".. وهذا الأخير له كلمته المسموعة في الوزارة فهو بحركة إصبع يمكنه أن ينهي مستقبلك في الوزارة..

أتذكر أنه كانت هناك حالة مختلف عليها، فالرجل كان ضابطاً في الشرطة، وقد أحضروه للطوارئ حيث أنه فقد توازنه فجأة، وأصبح يتعرق بشدة ويشكو من دوخة، إلا أنه لم يفقد الوعي ولم يصب بتشنجات أو حمى..

تمت معاينته في الطوارئ من قبل الطبيب العام والنائب، وتم وضع التشخيص المبدئي: ضغط وسكر حديثا التشخيص، ونزلة معوية..

تم تقدير سبب الدوار الذي حدث بعد ذلك لانخفاض مستوى الأملاح في الدم بعد ما فقده من سوائل عبر القئ والإسهال.. ولكن ارتفاع الضغط كان لا يتماشى مع فقدان السوائل العام والجفاف، كما أن الدوخة التي استمرت أكثر من يوم رغم ترسانة الأدوية التي كان يتناولها في المستشفى كانت تثير التساؤل..

وحينها اتصلنا على رئيس القسم فهو كبير الأخصائيين، وقد جاء وعاين المريض وكشف بدقة على وظائف الجهاز العصبي، وكان رأيه واضحاً: لا يوجد خلل عصبي في هذا المريض.. الدوخة سببها تداخل الأدوية مع بعضها بالإضافة لفقدان الأملاح من الجسم.. ولكن أخت المريض – وهي طبيبة – كانت كالكابوس: كيف تجزمون بأنه لا يوجد خلل في الجهاز العصبي؟..

تركت الحوار لرئيس القسم، حيث أكد لها أن الرجل قد كشف عليه ثلاثة أطباء مختلفون وجميعهم يرون أن جهازه العصبي سليم، كما أنه كان يسير بنفسه للحمام مما يدل على كفاءة عمل المخيخ (وهو الجزء المسئول عن توازن الحركة في الدماغ)..

استمر الحوار فترة ثم انتهى بأن اتفق الجميع على تحويل المريض لمستشفى كبير به تخصص أمراض الجهاز العصبي ليتم معاينته وعمل أشعة مقطعية أو رنين مغنطيسي للدماغ، وقد كان..

بعد فترة اكتشفنا أن الرجل قد تم عمل الرنين المغنطيسي له، واكتشف طبيب الجهاز العصبي وجود جلطة في المخيخ هي التي سببت الدوار المستمر كما أنها قد بدأت تضغط على السائل الشوكي وتمنعه من الحركة، وتم تنويمه بالمستشفى وعمل قسطرة دماغية له لتفريغ الضغط عن السائل الشوكي..

عرفنا ذلك فيما بعد وكان رأي رئيس القسم أن مثل هذه الحالات تسمى حالات رمادية (Grey cases)، ولو أتيت بالخواجة (ديفيدسون) صاحب مرجع الطب الباطن نفسه لتحير في تشخيصها! دعك من عدم توفر الأشعة المقطعية وتخصص المخ والأعصاب لدينا مما يجعل يديك مكبلتين فعلاً عند محاولة تشخيص مريض ما

تشك في إصابته بمشكلة عصبية.. ثم إنك لو أردت أن تتهم كل مريض يأتي بدوخة بأن لديه مشكلة في المخيخ فسوف تكون ليلتك سوداء! نصف مرضى عيادة الباطنية يشتكون من دوخة!..

تم رفعنا بعد ذلك للجنة تحقيق مكونة من مجموعة من الاستشاريين في كل التخصصات، وتم استجوابنا بشدة في كل ما يمت للحالة بصلة، ثم كانت توصيات اللجنة واضحة: هذه حالة رمادية صعبة التشخيص، وليس على فريق الطب الباطن حرج ولا تقصير ولا توجد شبهة تشخيص خاطئ أو إهمال طبي!..

ولكن ذلك بالطبع لم يعجب صاحبنا الهندي، فعقد اجتماعاً لنا مع المشرف لمناقشة الحالة، ولكن الحقيقة أن الاجتماع كان هدفه إيصال رسالة لي، وقد قالها لي المشرف بصورة واضحة وبالعربية حتى لا أدعي عدم الفهم:

– أنت لست طبيباً! أنت لا تفقه شيئاً في الطب الباطن! لو كنت مكانك للزمت كتابي أقرأ فيه حتى أتمكن من معالجة المرضى بدل قتلهم! أنت لا تصلح للعمل في ورشة سيارات.. لا أدري ماذا أقول غير أنك لا تصلح للعمل كطبيب!..

كانت تلك صافرة النهاية للمباراة.. كنت أعلم أنني لن أعمّر في هذه البلد طالما أنني تحت رحمة هؤلاء القوم، وبالفعل كان خطاب الشكر قد جاءني بعد شهور قليلة..

* * *

رجعت للسودان مذموماً مدحوراً.. بحثت عن عمل واستطعت الحصول على وظيفة جيدة، كما وجدت بعض الأصدقاء القدامى ممن

لم يهاجر والذين ساعدوني في استخراج رخصة لعيادتي المتواضعة في منطقة (الحاج يوسف)..

كنت في ذلك الوقت لا زلت أسائل نفسي عن حقيقة الإسلام.. وكنت بدأت أقرأ في كتب السيرة والتفسير بنهم.. كنت أرى أشياء عجيبة وغير منطقية.. واكتشفت أن كتب السيرة تمتلئ بالعنصرية حتى حلقومها.. بين كل حديث وحديث يوجد حديث عنصري!.. لا أستسيغ أن النبي محمد (ص) يقول لأبي ذر أن عليه السمع والطاعة حتى لو كان الوالي عبداً حبشياً أجدع الأنف! هذه الألفاظ أكثر قساوة من أن ينطقها رجل مرهف الحس كالنبي (ص)، للذي تتحدث الروايات عن رومانسيته وحبه لنسائه والسيدة عائشة وكيف كان يدلعها!.. هذه ألفاظ أقسى من أن ينطقها رجل كان ينادي بالمساواة بين الناس طوال عمره، ويقبل حفيديه الحسن والحسين ويلعب معهما!..

كنت قد بدأت أتفهم لماذا ينادي الشيعة وغيرهم بالتمسك بالقرآن وترك السنة، رغم أنني لا أوافق على ذلك لكنني أقول أنني أتفهم، فكتب السيرة مليئة بالأشياء الغريبة العجيبة – أنا أتحدث من ناحية العنصرية التي تعج بها الكتب! هل يمكنك أن تخبرني لماذا لم يذكر شئ عن بلال بن رباح بعد وفاة النبي (ص)؟ دعك من ذلك، كم قصة ذكرت عنه أيام حياة النبي (ص)؟ كم قصة ذكرت عن غيره؟ ألم يكن له دور ما في حياة الرسول (ص)؟..

كنت أيضاً أساءل نفسي: كيف يرضى ربي بأن يعذب أمي على مدى أربعة عشر عاماً بهذه الطريقة؟ ما الذنب الفظيع الذي جنته حتى تستحق ذلك؟.. أنا لا أحاسب ربي ، أستغفر الله، ولكني أحاول أن

أفهم..

كنت قد ذهبت للعمرة عدة مرات أثناء وجودي في المملكة، وفي كل مرة أتعلق بأستار الكعبة وأدعو الله أن يشفي أمي ويعفو عنها.. ولكنه لم يفعل قط.. أنا لم أطلب شيئاً لنفسي، كل ما كنت أطلبه هو أن تكون هي مثل بقية الناس: تأكل وتشرب وتمشي وتنام.. أنا لا أطلب خدمة لقاء خدمة والعياذ بالله، أنا فقط أحاول أن أفهم الحكمة من وراء تعذيب المرأة هكذا..

هذه المرأة صبرت صبراً لم يصبره شخص قط.. لا تقل لي (أيوب) فضلاً، فـ(أيوب) في النهاية دعا الله ليشفيه، بغض النظر عن فترة صبره، أما هذه المرأة فقد صبرت حتى ماتت بعد أربعة عشر عام.. (أيوب) دعا ربه حتى دله على مكان يضرب فيه برجله فيتفجر ينبوع من الماء، يغتسل منه ويشرب ليشفي داء بدنه، أما هذه المرأة فقد صبرت حتى النهاية.. صبرت وهي ترى أعضاءها تفشل وتتوقف عن العمل واحداً بعد الآخر ولم تدع ربها ليشفيها بل صبرت.. كانت ترى الشفقة ممزوجة بالتشفي والحقد في عيون كل من زارها، ولكنها لم تجزع ولم تطلب الشفاء بل واصلت الصبر.. لو أردت رأيي هذه المرأة صبرت أكثر من (أيوب) نفسه.. فيجب أن يكون المثل (صبرت أكثر من صبر نفيسة)..

كنت في حالة إيمانية مزعزعة تماماً.. كنت لا أدري هل أنا حقاً مسلم أم لا؟ الإسلام ليس نطق الشهادتين فقط كما تعلم.. أنا أتحدث عن الإيمان الموجود في القلب.. كنت أفتقد شيئاً ما.. كنت أفتقد يقيناً

كان موجوداً من قبل وانطفأ حينما رأيت شعلة الحياة تنطفـــئ فـــي عينيها.. اللهم ساعدني!.. كنت كما غنى مايكل جاكسون[39] بالضبط:

(ولكنهم يقولون:
لا بد للرجل أن يكون مؤمناً..
وأن يمشي حينما لا يقدر..
وأن يقاتل حتى النهاية..
ولكنني مجرد بشر!..)

كنت أبحث في كتب السيرة محاولاً إيجاد الإسلام الذي عرفته أيـــام الطفولة، أيام الجهل، أيام كان أطول حديث حفظناه هو (النظافة مـــن الإيمان) قبل أن يحدثوننا أنه حديث موضوع.. أليس هـــذا الحـــديث الموضوع أفضل من (عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)؟..
كنت قد فقدت إيماني بالإنسان ونقائه ونظافته بعد ما رأيت، خاصـــة بعد خروجي من معترك السياسة أيام الجامعة.. ماذا؟ لم أحدثك عن هذا من قبل؟.. إذاً حان الوقت لنتحدث قليلاً عن السياسة!..

39 "Free Willy Song", By Michael Jackson.

(9)

أكتوبر من سنة 1996م..

كنت في السنة الأولى الجامعية، وقد دخلنا كليـــة الطـــب بجامعـــة الخرطوم التي غنى لها محمد وردي (الجميلة ومســـتحيلة) رافعيـــن رءوسنا كما يجب لطلاب الطب أن يكونوا.. كنا لا نعلم شـــيئاً عـــن العلوم غير أن أسماءها لا بد أن تنتهي بكلمة (ology) كعلم الحيوان (zoology) وعلم الأمراض (pathology)، وكنا نستغرب من علم النبات (botany) فكيف يكون علماً وهو لا ينتهي بـــــ(ology)؟.. كانت نكتتنا المفضلة هي نكتة البنت التي ركبت القارب مع الشـــيخ وسألته:

– يا عمو انت بتعرف زوولوجي؟..

فأجاب باقتضاب أن (لا)..

فواصلت:

– نص عمرك ضاع.. طيب بتعرف باثولوجي ولا فسيولوجي؟..

فأجاب بضيق بنفس الإجابة: لا..

فأجابت بسرور:

– نص عمرك ضاع..

وفي منتصف البحر اكتشف خرماً في أرضية المركب يكفي لمـــرور قط صغير، فرفع جلبابه وقال:

– يا بنتي، انتي بتعرفي (عومولجي)؟..

فأجابت بدهشة: لا..

حينها كان يقفز في النيل وهو يصيح:
– عمرك كلو ضاع!!..
كنا نسرد تلك القصص أمام الناس ونضحك بمرح بينما ينظرون هم لنا بغباء: ما هذا الكلام الفارغ؟.. حينها بدأت أفهم أن نكاتنا لا تضحك الناس، كما أننا لا نستمتع بنكاتهم! سجن كبير فرضه علينا الطب والمجتمع بدون ذنب..

في ذلك الوقت كنت متعطشاً للمعرفة.. لا، ليس الطب، في الحقيقة كنت أقرأ أي كتاب تقع يداي عليه سوى كتب الطب..قرأت لطه حسين والعقاد والمنفلوطي وحسن نجيلة وعبد الله الطيب والطيب صالح وأجاثا كريستي وفيكتور هوجو.. قرأت كدودة أرض لا تشبع من قرض الكتب..

ثم تعرفت على (سارة).. اسمها (سارة) هه؟ وليس (سارا) كالبنت الخواجية تلك..
(سارة) كانت فتحاً لي في عالم البنات – وليس النبات!.. كنت شاباً مراهقاً دخل الطب من مدرسة للمتفوقين حيث الكلمة الأولى والأخيرة للكتاب، لا نعرف شيئاً عن البنات ونسخر من كل من نكتشف أن له علاقة بالبنات حتى لو كن أخواته!..

أتذكر صديقي (جعفر) من أيام المدرسة الابتدائية، حيث ترعرعنا سوية بحكم معرفة والدينا القديمة وعملهم سوية بالتدريس.. درسنا في المدرسة الأساسية ودخلنا المدرسة الثانوية سوية.. كان شاباً فحلاً كما ينبغي أن يكون: شنب يقف عليه الصقر، ذقن نابتة تشبه النجيلة

حديثة القص (غالباً كان يحلقها فهي لا تتماشى مع شـــاربه الكـــث)، أكتاف عريضة وجسم ثخين من دون رياضة..

كان صديقنا الثالث (مجدي) من أيام الطفولة، وهو شاب ترعرع في أمريكا بحكم عمل والده في السلك الديبلوماســـي.. كـــان (مجـــدي) شخصاً ضعيف البنية مثلي في ذلك الوقت، وكان أكثر ما يمتعنا هو إثارة غضب (جعفر)، فهو حين يغضب لا يرى أمامه..

كنا نلقبه بلقب جميل جداً وهو (خروف)، نظـــراً لبنيتـــه الجســـدية وتصرفاته حينما يغضب كما أخبرتك..

كان الجرس يدق لفسحة الصلاة، وهي فسحة صغيرة زمنهـــا ربـــع ساعة بين الحصتين السادسة والسابعة.. لم يكن همنا الصلاة بقـــدر تحضير المقالب لـــ(جعفر).. نتركه يخرج للصلاة حيث ينزع حذاءه وشرابه ويتركهما في الصف، لنتسلل نحن ونأخـــذ أربعـــة الأشـــياء (فردتي حذاء وفردتي شراب) فنوزعها كيفما اتفق: شـــراب فـــوق المروحة، حذاء فوق السور، وهكذا كيفما يساعدنا خيالنا الخصب..

يأتي (جعفر) من الصلاة فلا يجد أشياءه ويكاد يصيح كالنينجـــا فـــي فيلم أحمد مكي (لا تراجع ولا استسلام): أين أشيائي؟..

كنا نسمع صراخه وسبابه من خارج الصف، حينها كان يرلنـــا مـــن شباك الصف نكاد نسقط على الأرض من الضحك لولا اتكاؤنا على بعضنا البعض.. يأتي قافزاً من الشباك بقوة شمشونية (تذكرك بقفزة براد بيت حينما طعن الرجل في بداية فيلم طروادة) وهو يصيح:

– انت يا كلب انت وهو! حاجاتي وين؟..

وتكون هذه صفارة البداية للماراثون.. يجري (مجدي) في اتجاه وأنا في اتجاه آخر.. يقفز (مجدي) داخل أحد الفصول، وهو خطأ قاتـــل،

فهذا الصف بالذات هو صف (البلطجية) أو (الشرّامة)!.. هـــؤلاء لا يركعون في صلاة ولا يهمهم سوط الناظر المنادي للصلاة.. يمسكون (مجدي) وهو يصيح:

– يا أخواننا دقيقة! الموضوع..

ولكنهم لا يتفاهمون! أنت الكلب من صف المتفوقين أليـــس كـــذلك؟ يرقعونه علقة ساخنة ويحملونه من يديه ورجليـــه ويلقـــونه كجـــوال البطاطس من الشباك المواجه للساحة الخلفية، يسقط ويتدحرج مسافة ثم يقوم وينفض التراب وهو لايـــزال يضـــحك مـــن مقلبنـــا فـــي (جعفر)!..

في هذا الوقت يكون (جعفر) قد قرر أن (مجدي) فريسة لا تستحق، دعه فهو قد وقع في شر أعماله!.. يتركه ويتلفت بحثاً عني، ليجدني أقف بعيداً وأنا متكئ على الحائط أضحك.. يأتي مســـرعاً كســـيارة (دودج) ثمانية سلندر تجرف أمامها (أتـــوس) متواضـــعة.. لحـــاول الجري ولكن رئتي المملوءة بغاز الضحك لا تساعدني.. اللعنة! أقف جانب الحائط لئلا أقع، بينما يعجز هو عن ضغط الفرامل فيســـحقني بين جسده الضخم والحائط.. أئن من الألم وأسقط أرضاً وأنا لا زلت أضحك!.. يرفع سبابته منذراً وهو يقول:

– تاني بتعملو كدة؟..

لا أستطيع أن أرد فأهز رأسي بلا معنى.. يمسكني من رقبتي كدجاجة صغيرة ويرفعني ثم يدفعني أمامه مشيراً بصوت هادر:

– وريني حاجاتي وين بسرعة!..

كنا ضائعين تماماً.. فمدرستنا خالية تقريباً من المدرسين ونحن على

أعتاب الجامعة.. كيف؟ سأقول لك كيف..

كان لدينا أستاذ لغة انجليزية من أعظم من قابلتهم في حياتي.. أستاذ (عصمت).. كان رجلاً قامة، خواجة كما ينبغي أن يكـــون.. كـــان يدخل الحصة مع بداية الجرس فيكون أول جملة هي:

- Good morning..

ويتوالى الإنجليزي حتى نهاية الحصة.. حتى لو سألته عـــن معنـــى كلمة فيجب أن تسأل بالإنجليزي، وهو يجيبك بنفس اللغة..لـــو لـــم تفهم سيحاول مرة أخرى، لو لم تفهم سيرسم لك على السبورة، المهم ألا يسمع كلمة غير انجليزية في صفه! ولو تجرأت ونطقـــت كلمـــة عربية سيتجاهلك تماماً كأنك لست موجوداً..

كنا متضايقين منه تماماً فقمنا بتقديم شكوى للمدير نطلـــب تغييـــره.. وقد كان، غيروه لنا بوكيل المدرسة وهو من كنا نسميه (فوكس) لأنه ثعلب يمشي على قدمين.. كان يدرسنا الإنجليزي بطريقة: ثاراصدي والتي تعني – للأسف – Thursday!.. كنت أشك في أنه مـ درس أصلاً رغم أنهم يصرون أنه يدرس الانجليزية لمدة ثلاثة عشر عاماً خلت!..

(فوكس) كان ثعلباً، يتسلل وراءك كما يتســـلل الثعلـــب إلـــى عـــش الدجاج، بهدوء ودون صوت، فلا تفيق إلا على صـــوت (ســـبتاح) المميز لوقوع السوط على ظهرك!..

كان جميع الطلاب يعانون من سوط (فوكس) الغادر، فطلبوا مني أن أحل المشكلة لأنني أكثر طالب مشاغب في المدرسة.. ذهبت لمكتب الوكيل واستأذنت فأدخلني مرحباً بي، حيث أنني كنـــت الأول علـــى المدرسة.. بدأت أتحدث معه في أمور دراسية: حصة اللغة العربيـــة

خالية، أستاذ الفيزياء لم يحضر، إلخ إلخ بينما يدي تتسلل للمكتب وتسرق السوط لتخبئه خلف ظهري.. ظللت أتحدث خمس دقائق حتى لا يحس بالخديعة ثم استأذنت وغادرت.. كان نصراً وفتحاً مبيناً!..
بعد دقائق اكتشف (فوكس) أن السوط ليس في مكانه..لم يفكر كثيراً.. مد يده وتناول سلكاً للكهرباء كان مرمياً في ركن المكتب.. طواه من منتصفه ثم برمه حول نفسه وخرج..
كنا نلعب كرة القدم باستخدام (الدومة) حيث لم تكن معنا كرة – فـ(فوكس) قد صادرها – وكانت الحصة الخامسة ونحن لا نأبه.. لم نفق إلا على صوت (سبتاح) المكتوم مع صيحة أحد أفراد الفريق: آآآيي!!..
التفتنا لنجد (فوكس) يشق الصفوف كأنه (خالد بن الوليد)في فتح دمشق.. ركبنا الرجل بالسوط الكهربائي حتى نسينا أسماءنا!.. صاح بي أحدهم بعد أن (سبتاح) على ظهره:
– يا ديش وديت السوط القديم وين؟ الله يجازيك ياخ رجع للديش ده سوطو!..
لم يكن ذلك ممكناً طبعاً لأنني قد رميت السوط من فوق السور لأخفي أدلة إدانتي!..
هذا بالنسبة لـ(فوكس)، أما بالنسبة لـ(محمد أحمد) فقد كان الموضوع مختلفاً..

الشيخ (محمد أحمد) من عائلة عريقة ومعروفة.. هم قراء وحفظة ومدرسون منذ بدء التاريخ.. الرجل كان حجة في علوم اللغة العربية، يكفي أن تبدأ له بيت شعر ليكمل لك باقي القصيدة.. كان

رجلاً عظيماً، وكنا أولاداً ضائعين!..

كان يدخل الحصة ليكتب عنوان الدرس، ليفاجأ بورقة ملفوفة ومليئة بالبصاق بحجم حبة التسالي (وهو الفصفص للمتربين في الخليـــج!) تلتصق بالسبورة جوار يده، حذفها عليه أحدهم عبر تفريغ قلم (البيك) من داخله واستخدامه كآلة صيد بالنفخ..

يلتفت وهو يصيح بغضب:

– العمل العملة دي منو؟..

ليفاجأ بأن الصف ليس معه، فكل يغني على ليلاه.. هذان يلعبان (ولد بنت جماد)، وهذان يلعبان لعبة توصيل الخطوط على ورقة أمامهما، وهؤلاء ينظرون من نافذة الفصل لبنت قادمة من بعيد (الصف كـــان في الطابق الثاني مطلاً على السور)، وهؤلاء يتسامرون.. لم يكـــن منصتاً له غير شيخ (سعد) وشـــيخ (نـــاظم) العراقييـــن وصـــاحبنا (حسيني) القادم من جزر القمر..

يصيح مرة أخرى:

– يا أولاد وروني العمـــل العملـــة دي منـــو ولا حأمشـــي لأســـيب الحصة!..

فتتصاعد أصوات الـــ(أووووه) والـــ(آآآآآه) من خلف المقاعد، مـــع تحريك الطاولات لتصدر أصواتاً مزعجة..

يرتفع ضغطه وتحمر عيناه وهو يصيح:

– أولاد قليلين أدب! أنا حأعرف أربيكم!..

ويخرج غاضباً ليخرج وراءه "الشيخان" يقنعـــانه بـــالرجوع ولكنـــه مصمم.. يمضي لمكتب الناظر، وبعد دقائق يأتي ومعه الناظر ليجـــد الصف هادئاً تماماً كصفحة ماء راكد في حلتنا.. يسأل الناظر:

- يا شباب مالكم مزعلين أستاذ (محمد أحمد)؟..

لا نرد تأدباً للناظر!.. ينظر هو لأستاذ العربية الذي يكاد يشد شعر رأسه من الغيظ ويقول بهدوء وكأنه يعاتبه:

- واصل حصتك يا أستاذ ولو في شئ ناديني..

نستمر صامتين حتى نضمن أن الناظر قد نزل السلم، لتبدأ الفوضى من جديد..

يصيح أستاذ (محمد أحمد):

- يا أولاد، يا أولاد.. لو سكتوا لحدي نهاية الحصة حأديكم بيت شعر قليل أدب ينفع مع أشكالكم دي!..

نقلب العرض لحظات ثم نقبل على مضض.. يدرس الدرس على عجل، وعندما يدق الجرس يهرول خارجاً فنصيح:

- بيت الشعر وين؟..

يعود مصلحاً عمامته التي كادت أن تقع، ويخط بعجل وبخط مائل على السبورة:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهمُ قالوا لأمهمُ بولي على النارِ

ويريد الخروج فنصيح بغضب: البيت ده عارفينو! جيب غيرو!.. فيصلح من وضع عمامته ويبتسم بمكر قائلاً: لكن البعدو ما عارفينو!.. ويكتب:

فضيّقت فرجها ضنّاً ببولتها فلا تبول لهم إلا بمقدارِ!

ويجري مسرعاً بينما نشيعه بالتصفيق والصفير!..

هذا الرجل لن أستغرب لو قيل لي أنه أصيب بالضغط والسكر من

جراء تدريسه لنا!.. استمر الألم ثلاث مرات في الأسبوع حتى فاض به الكيل.. دخل يوماً الحصة ونحن نتوقع الموشح اليومي من الصياح وشد الشعر، ولكنه كان قد حزم أمره:

– انتو أولاد صعاليك!.. العلم ما بنفع فيكم!.. انت أحقر من حشرة يا تافه!.. أيوة، انت وانت وانت وانت!.. أمشي كلم أبوك.قول ليهو أستاذ (محمد أحمد محمد علي) قال لي انت أحقر من حشرة، عارف ليه؟.. لأنو الحشرة طالعة من بيتها الصباح عارفة ماشة وين وتسوي شنو، انت طالع من بيتكم ما عارف ماش وين يا تافه!..

صمت لحظات ليبتلع لعابه ثم واصل:

– انتو نهايتكم تقعدوا في المصطبة جنب الدكان تشاغلو البنات.. حتكونو ناس الكيس والتخميس.. عارفينو؟ كيس التمباك اللي ما عندكم حقو فتقومو تخمسوهو يا تافهين يا طير!..

ويغادر مسرعاً، بينما تلاحقه الأوراق الملفوفة المليئة بالبصاق من أقلام البيك المفرغة!..

أما أستاذ اللغة العربية الآخر فقد كنا نسميه (خسيس).. والحقيقة لا أعرف سبب التسمية فهو لم يكن خبيثاً مثل (فوكس)، ولكن كان هناك جو عام من عدم الارتياح حوله.. كان نظامه بسيطاً جداً: حل الواجب وصححه قبل الحصة القادمة، وإلا سوف تجلد!.. المشكلة أنه لم يكن يتواجد في أي مكان في المدرسة قبل الحصة القادمة!.. أظن أنني عرفت سبب تسميته (خسيس) الآن!..

كنت لا أحب الجلد، خاصة عندما كان (ميمون) يجلدنا، وهو أستاذ التاريخ الذي سميناه (ميمون) لشبهه بالقرد صاحب الإسم فأننا

كبيرتان تطلان من جانبي رأسه كجناحين..
كنت أعرف أن (خسيس) لا يتواجد إلا لمدة خمس دقائق قبل جرس الحصة، والتي عادة تكون بعد فسحة الإفطار، وهو كما ترى زمن ضيق خاصة لو عرفت أن يومنا كله كان ضائعاً في لعب كرة القدم في ميدان كرة السلة، حيث لا ميدان لكرة القدم في المدرسة.. كنت أعرف ذلك ولذلك يتعذر علي تصحيح الدرس، وأنا كذلك لا أريد أن أجلد، فما الحل؟.. تزوير توقيع المدرس طبعاً!..
كان يأتي للحصة وهو يعرف من صحح عنده فهم يعدون على أصابع اليد.. يقف أمامك فترفع يديك دون كلام لتأخذ نصيبك من السوط فأنت لم تصحح الدرس.. يأتي لجاري فيجلده، ثم يقف أمامي منتظراً.. لا أفتح يدي.. ينظر لي مندهشاً فأرفع الكراس وأشير للتوقيع:
– الدرس مصحح يا أستاذ!..
ينظر لي مندهشاً ثم يمسك الكراس ويقربه من عينيه.. يفرك عينيه، لا جدوى! يقلب الصفحات، كلها مصححة! كيف؟ هو لو يرني في صف التصحيح.. هو لم يصحح كراسي بالتأكيد.. لكن هذا توقيعه!.. ينظر لي شذراً ويتأفف ويعطيني ظهره بينما ابتسم بانتصار وجاري ينظر لي بحقد..

يأتي دور أستاذ الرياضيات، وهو أستاذ طيب جداً ولكنه عظيم الجسم، ولذلك سميناه اسماً عبقرياً: خروف!.. أرجوك لا تخلط (جعفر) الخروف مع الأستاذ الخروف، هذان خروفان مختلفان تماماً!..

هو رجل طيب، ولذلك كان يخبرنا قبل شهر أن نحضر كراس الرسم البياني بعد شهر، ثم يذكرنا قبل أسبوع مرة أخرى.. ونحن طبعـــاً لا نهتم.. ولذلك في يوم الحصة الموعود وجرس الطابور يـــدق كـــان جاري يقول لي بهلع:

– يا (خالد) جبت الكراس؟..

أجبته وأنا منهمك بأن (أدقّل) بالكرة برجلي:

– هممممم؟..

* يا بني آدم كراس الرسم البياني! الليلة الحصة!..

سقطت الكرة من قدمي وأنا أنظر إليه:

– لا ياخ.. الحصة يوم 18..

* والليلة يوم كم يا ديش؟..

– شيييييت!..

تلفت حولي وأنا أفكر (Don't panic! Don't panic!) ولكني كنت أولول:

– أهه والعمل شنو؟ الجرس دق!..

يجرني من يدي ويجري بي ناحية باب المدرسة:

– أرح المكتبة القريبة دي بنلقى فيها..

جرينا نحو المكتبة لنجدها مغلقة.. تذكرنا وجود كشك جرلئـــد عنـــد الناصية فجرينا إليه.. أخبرنا بلا اهتمام وهو يطالع جريدته أنـــــه لا يبيع كراسات وأن علينا الذهاب للمكتبة.. عدنا نجرجر أذيال الخيبـــة وصاحبي يفرك يديه سوية.. سألته بدهشة:

– بتسوي في شنو؟..

* بحضر يديني للجلد!..

كنت مصمماً ألا يتم جلدي في الحصة.. ولكن ما العمل؟..
جاء الأستاذ (خروف) للحصة، وبدأ بأن قال:
– طلعوا كراسات الرسم البياني فوق الطربيزة..
ومن بين ثلاثين الطلاب قام خمسة فقط بإخراج كراساتهم.. اليوم ستكون حفلة!..
بدأ (خروف) من بداية الصف جهة اليمين، كل من لا يجد لديه كراس الرسم البياني يصفعه بيده على ظهره.. ويد خروف أشبه بالظلوف الناشفة، أنت تفضل عشرة جلدات بالسوط من ضربة واحدة من يده!.. كان يتقدم في الصفوف بينما...
(تررراااااح!)
... أفكر أنا كيف أخرج من هذا المأزق.. كنت جالساً في أول الصف جهة اليسار مما يجعلني وجاري آخر فردين في المصفوفة.. كان لا زال يتقدم الصفوف وأنا أتذكر...
(تررررااااحح!)
... أن معي كراساً خالياً لا يحمل ديباجة على غلافه.. أخرجته بسرعة ووضعته جوار كراس الجبر، وفتحت كراس الجبر على صفحة تحمل توقيع الأستاذ (ليس مزوراً هذه المرة!).. كان قد وصل لكنبتنا حينما بدأت أنظر لجاري وأشير له وأكتم ضحكة.. وقف الأستاذ ونظر لي ولجاري، ثم...
(تررررررررااااااحححح!)
... كان جاري يتوحوح (أي يصدر صوت آآآآحح!) بينما لأنا أواصل الضحك.. نظر لي الأستاذ وقد حار في أمره.. نظر لطاولتي فرأى كراسين، أحدهما مفتوح على صفحة تحمل توقيعه.. اقتنع أن

الكراس الآخر هو كراس الرسم البياني وأنني أضحك على غباء جاري، تركني وانصرف، بينما جاري يكاد يطبق على رقبتي من الغيظ..

كل هذا جميل، ولكن الأجمل منه كان (دافنشي).. هذا الرجل كان مدرس الفنون، وحقيقة لست أدري اسمه الحقيقي فنحن نعرف أنه (دافنشي) منذ بدء الخليقة.. كان (دافنشياً) في كل شئ: الشعر الأبيض الثائر، النظارة ذات الإطار الأسود الغليظ، الملابس التي يمكن أن تقسم أنه لبسها وهو نائم بسبب عدم تناسقها، القميص الكاروهات ذو كم مرفوع وكم مسدل، البنطلون المكفكف.. كل شئ يوحي بالبوهيمية والضياع، لكنه كان فناناً بحق.. يمسك الطبشورة ويبدأ في رسم خطوط عشوائية على السبورة، تنتهي بعد لحظات بحديقة وارفة الظلال أو طائر يزقزق في العش..
كنا لا نهتم كثيراً بالفنون – فنحن ضائعون كما قلت لك – فكنا نكسب زمن الحصة في لعب الكرة كالعادة.. أرفع أصبعي لأقول:
– يا أستاذ.. يا أستاذ..
يلتفت لي ويقول بمودة أبوية:
– نعم يا إبني؟..
* يا أستاذ في طلبة قليلين أدب (داكّين) الحصة.. قاعدين يلعبوا في ميدان الباسكت.. أمشي أجيبهم؟..
تظهر لمحة حزن – ليس غضب بل حزن! – على ملامحه ويقول ببساطة:
– أيوة أمشي ناديهم يا إبني..

أتناول الكرة من تحت رجلي وأعطيها لجاري الذي يعطيهـــا لجـــاره وهكذا حتى تصل الكرة خارج الصف.. أحملها وأجري نحو ميـــدان الباسكت منتظراً بقية الفريق لينضموا إلي.. نلعب طوال فترة الحصة إلى أن...

(سبتاح!)

... يهوي سوط (فوكس) على ظهورنا فنتفرق تاركين الكرة خلفنا.. يحملها بثعلبية شديدة وينظر إليها بجذل وكأنه وجد بيضة ديناصـــور ثم يدخل بها إلى مكتبه.. تظل هناك حتى أتسلل مرة أخـــرى آخـــر اليوم وأسرقها من تحت الطاولة..

ندخل الفصل لنفاجأ بأن الحصة هي حصة الفيزياء.. يدخل لنا (ديك المكوة) حاملاً مذكرة في يده – فهو لا يستطيع أن يدرس من كتـــاب الوزارة فهو لا يفهمه جيداً..

هه؟ ماذا تقول؟ آآآهه نعم اسمه (سيف) لكن نحـــن أســـميناه (ديـــك المكوة).. أتعرفه؟ هل تعرف مكواة الفحم القديمة الحديدية؟ هل تذكر كيف كان يوجد ديك واقف على رأسها – ربما كعلامة تجارية؟ هذا الديك صار رمزاً لعدم فعل (أو فهم) أي شئ: مالك واقف أهبل كدة زي ديك المكوة؟.. هكذا سمينا الرجل بهذا الاسم، فهو لا يفقه شـــيئاً في الفيزياء.. الحقيقة أنه استاذ رياضيات لمرحلة الأساس، ولكنهـــم اضطروا أن يرقوه لأستاذ فيزياء لمرحلة الثانوي العام، فكل الأساتذة يرفضون تدريس فصلنا!..

المهم أن (ديك المكوة) دخل الصف وبدأ يدرس باب (الضوء).. كلام جميل، لكن المشكلة أن الحصة السابقة كانت عن باب (الكهرباء)!..

هل تكهربنا بهذه السرعة؟.. أخبرتك أنه لا يفقه كوعه من بوعه في الفيزياء..

تجاهلت الحصة لأن (كلام الما بفيدك بنعسك) وأخرجت كتاب الأحياء وبدأت أذاكر.. كان الفصل يتحرك كحركة الالكترونات في مدار الذرة.. فوضى غير خلاقة بتاتاً.. هذا يقف على الكرسي يمد يده للمروحة لأن صاحبه تحداه أن يوقفها بيده.. هذا يصنع طائرات ورقية يطيرها في فضاء الصف ويضحك حينما تصطدم بوجه (ديك المكوة).. هذا يقرأ جريدة كمعلم يشرب شيشة على القهوة.. هذا يقهقه ضاحكاً على نكتة بذيئة حكاها جاره.. أنت ترى الصورة هنا.. كان الرجل قد فقد أعصابه.. صاح حتى بح صوته ولا أحد يعيره اهتماماً.. نظر لي ووجدني أفتح كتاب الأحياء وأنا في الكنبة الأولى أمامه مباشرةً.. كان هذا أكثر مما تحتمله أعصابه، فلم أفاجأ إلا وهو أمامي ينظر لي بعينين محمرتين ويقول صاكاً أسنانه:

– انت بتسوي في شنو؟..

* بذاكر..

قلتها بلا مبالاة وأنا أواصل الكتابة في كراسة المذاكرة.. فجأة تناول الكتاب وصفعه بيده وهو يصيح:

– دي حصة فيزياء بتقرا فيها أحياء لييييييه؟..

نظرت له بلا مبالاة، فتحت الكتاب وواصلت المذاكرة.. لم يحتمل فصفق الكتاب مغلقاً إياه ثم حمله وسار للطرف الآخر من الصف ووضعه في أول طاولة هناك وواصل الدرس الذي لا يسمعه أحد..

أشرت لزميلي في الجهة الأخرى أن (يباصي) الكتاب.. تنقل الكتاب بين ستة أيدي حتى وصلني.. فتحته وواصلت المذاكرة.. حانت من

(ديك المكوة) التفاتة فرآني مرة أخرى.. هذه المرة جاء وهو يقـــول والزبد يسيل من شدقيه (أشك أنه سيصاب بنوبة صرع بعد قليل):

– انت يا بني آدم مش قلت ليك أقفل الزفت ده؟..

لم يكن في وعيه.. دفع الكتاب بيده بقوة فألقاه أمام السبورة.. نظرت للكتاب ببرود وقلت:

– جيب الكتاب ده..

اتسعت عيناه في دهشة ممزوجة بالغضب من هذه الوقاحة وصـــــاح وهو يغالب السكتة القلبية:

– انت.. انت.. بتقول لي.. انت..

ثم تفجر الغضب في صيحة هادرة:

– قوم على حيلك أطلع برة..

كان الصف قد هدأ الآن وهم يتابعون في شغف هذه القصة المثيرة.. نظرت له نظرة خاوية وكررت:

– زي ما رميت الكتاب ده جيبو..

كان الرجل يحرك يديه في الهواء ويحاول أن يجيب، لكن الصـــدمة كانت أقوى منه.. بدأ جاري يحاول تهدئته:

– يا أستاذ (سيف)..

تدخلت بهبالة:

– بالله (ديك المكوة) اسمو (سيف)؟..

أحسست أنني سأتسبب بمقتل الرجل ببرودي فقمت واقفاً وأحضـــرت كتابي ووضعته أمامي.. كان الأستاذ في هذا الوقت قد بعـــث أحـــد الطلبة لينادي الصول (وظيفة الصول عنـــدنا كـــانت جلـــد الطلاب فقط).. جاء الصول فأشار لي الأستاذ آمراً:

– أجلد الود ده عشرة جلدات..

نظرت باستخفاف للصول الشاب وقلت:

– أتجلد عشرة جلدات ليه؟ عشان انت جدعت كتابي في الواطة؟..

نظر لي الصول ثم للأستاذ ينتظر أمره.. أشار الأستاذ للخارج:

– وديهو مكتب المدير يا حضرة الصول..

كنت قد قدرت أن الأمر لن ينتهي إلا بإحضار ولي أمري، فقصرت الشر وقمت واقفاً وذهبت مع الصول لمكتب المدير.. أجلسوني في الخارج انتظر فقد تبقى على زمن الحصة خمس دقائق فقط.. دق الجرس ورأيت (ديك المكوة) يأتي نازلاً السلالم، ينظر لي بحقد ثم يدخل مكتب المدير..

دقائق كنت أسمع خلالها صياح الأستاذ من الداخل وإن لم أتبين كلامه، ثم خرج وألقى علي نظرة شامتة وانصرف..

أدخلوني لمكتب المدير حيث كان الصول يقف.. أشار لي المدير وقال للصول:

– أديهو عشرة جلدات يا حضرة الصول..

كنت أحترم المدير القديم جداً (فهو كان رجل تعليم بحق وحقيقة) فوقفت صامتاً بينما الصول يعطيني عشر الجلدات وينصرف.. نظر لي المدير وقال كأنه يعتذر:

– يا ابني أنا عارفك ود كويس والله.. بس كمان ده أستاذ ولازم نديهو مقامو.. أمشي الله يسهل ليك..

غادرت مكتب المدير وأنا أحك مؤخرتي بغضب، مقسماً أن أنتقم منك يا ديك..

في هذه اللحظات كانت الشائعات قد انتشرت كالنار في الهشيم..

قابلني أحدهم وأنا أصعد السلم:
– ده شنو يا (خالد) قالو اتضاربت مع (ديك المكوة)؟..
لم أرد وواصلت الصعود.. سألني آخر:
– يا زول قالوا أديت (ديك المكوة) بونية؟..
ابتسمت وواصلت طريقي للفصل.. سألني ثالث:
– يا ولدنا قالوا حصل (كوماج) صحي الكلام ده؟ ليه ما ناديتونا نحضر ياخ؟..
ضحكت هذه المرة.. هؤلاء المراهقون خيالهم خصب للغاية! عند نهاية اليوم لن أستغرب لو تحولت القصة لأن أكون قد رميت (ديك المكوة) من نافذة الطابق الثاني أو نفذت (سوبليكس) مصارعة على أرض الفصل مستخدماً رأسه..
الحصة التالية لم أفتح الكتاب، ولكني ظللت متحفزاً.. انتهى الأستاذ من الدرس، وجلس على أول طاولة والطلاب يأتون واحداً واحداً ليصححوا الدرس، فهم يريدون أن يقصروا الشر بعد حادثتي السابقة.. أخرجت كراسي بهدوء أمام أعين الأستاذ، أخرجت قلمي الأحمر، نظرت في دفتر جاري لأرى التوقيع، ثم خططت توقيع الأستاذ على كراسي وهو ينظر ببلاهة!.. قام من كرسيه وجاء إلي، نظر في كراسي إلى التوقيع، نظرت إليه فالتقت عينانا،لم ينبس بكلمة ورجع لمقعده..

كنا ضائعين تماماً، وامتحان الشهادة الثانوية لم يبق له سوى ثلاثة أشهر.. لا يوجد أساتذة.. جميعهم يرفضون تدريس مدرستنا – وتحديداً فصلنا.. المدير المحترم كان قد اغترب وذهب للسعودية،

وصار (فوكس) هو المدير المؤقت.. كان هذا من حظنا لأنه لم يكن لديه وقت كثير ليمارس هوايته المحببة بالتسلل لعش الدجاج..
جاءنا مدير جديد من المديرية.. مدير قديم من الكيزان القدماء الذين كانوا قابضين على جمر القضية.. تشتعل الحماسة الدينية في عينيه ما بين نيران الخبث والدهاء.. جاءنا وكما فعل الحجاج بن يوسف في أول خطبة له لأهل العراق حينما قال:
أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

جاءنا الرجل وخطب فينا خطبة عصماء، كان مفادها:
– انتو مدرسة بايظة.. ريحتكم وصلت المديرية.. الناس كلها بتشتكي منكم.. مافي أستاذ عايز يدرسكم.. انتو قرونكم كبار، عشان كدة رسلوني ليكم عشان أكسرها.. أنا جيتكم مخصوص انتو بالإسم، وخصوصاً انتو يا ناس تالتة أحياء..
يا للهول! هذا الرجل كـ(حجارةٍ من سجيل) التي كانت تحمل اسم كل ضحية!.. هذا الرجل جاء في مهمة واحدة فقط: وهي أن يكسر شوكة تالتة أحياء، ولكن هيهات!..

بدأ الأمر بتنظيم طابور الصباح.. كنا ضائعين تماماً كالمحششين، لا ندري ماذا نفعل، تماماً كما قال عنا أستاذ (محمد أحمد).. كان برنامج طابور الصباح على الفصول بالدور..كان طلاب الصف الأول نشيطين جداً، برنامجهم يقارب الساعة (من الملل).. أما يومنا فكان يوماً جميلاً جداً!.. يصيح الصول:
– وين مقدم البرنامج؟..

فتسمع صوت صرصور الحقل.. لا أحد..

– البرنامج الليلة على ناس منو؟..

فيرد أحدهم في الصف الأول:

– على ناس تالتة أحياء!..

وحينها يعرف الصول ألا برنامج، فيبدأ في الـ(صـفا، انتبـاه)ـثـم يصرفنا لفصولنا..

كانت نظرية المدير الجديد أن يشكمنا باللجام حتى "نستعدل".. حينما يأتي دورنا في الطابور ولا يوجد برنامج، يصيح:

– أطلع يا (خالد) قدم البرنامج!..

اللعنة! من قال لي أن أكون أول المدرسة؟.. كان قد حفظ اسمي الذي لمع في سماء الدراسة والشغب.. أخرج وأقف أمام الحضور وأقول:

– صباح الخير يا مدرستنا.. برنامج الصباح مع صف تالتة أحياء.. القرآن الكريم مع الطالب..

وأنظر للطابور بحثاً عن فريسة.. آها رأيتك!..

– أبوبكر أحمد! فليتفضل مشكوراً!..

يتململ الطالب ويخرج من الطابور مكرهاً كأنه يساق إلى الذبح، ولا ألومه، فلا أحد يريد من هذا المدير أن يحفظ اسمه.. يقرأ لنا سـورة (الانشراح) بسرعة ويعود.. أمسك الميكرفون لأغرد:

– والحديث الشريف مع الطالب.. (أنور)!..

يخرج الطالب وهو يرمقني بكراهية شديدة (لو كانت النظرات تقتل!) ويمسك الميكرفون:

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: النظافة من الإيمان!..

يترك لي الميكرفون لأفتش عن ضحية جديدة:

– وحكمة اليوم مع الطالب.. (وليد)!..

يخرج مجرجراً رجليه وهو يفكر في هذه المصيبة.. كيف الحل؟ آها:

– رأس الحكمة مخافة الله!..

يترك الميكرفون ليعود فيصيح المدير:

– يا ابني قول حكمة زي الناس! أرجع قول حكمة!..

يعود الطالب وهو يكاد يقتلني بنظراته الكارهة، يفكر قليلاً ثم يقول:

– النظافة من الإيمان!..

يهز المدير رأسه بأسى وفقدان حيلة ويتمتم (hopeless-case) بينما الطالب يعود للصف.. أصدح مرة أخرى:

– وفقرة هل تعلم؟ مع الطالب.. (معاذ)!..

يتأخر (معاذ) في الخروج وهو يسأل الطلاب عن أي معلومة يقولها، أي شئ يا جدعان! أخوكو مزنـــووووق! ولكنهـــم يتهربـــون منهـــم كمريض الجذام!.. يتقدم للمنصة ويمسك الميكرفون ويحك رأسه:

– هل تعلم؟.. هل تعلم أن الحوت الأبيض هو أكبر الثدييات؟..

يرمي الميكرفون ويهرول راجعاً.. أرفع الميكرفون صائحاً بحماس:

– والآن.. مع نشيد العلم!..

وتبدأ المدرسة في إنشاد النشيد الذي لا يحفظه أحد:

(نحن جندو للاااااه.. جندووو لوطن
إن دعا داعي.. الفدا.. كيدكم
نتحدى الموت.. إن إن نهم
نشتري المجدا... بأغلاا ثمن

هذه الأرض لنا.. فليعش سوداننا
عالماً.. بين المممممم
يا بني السوداااان.. هذا رمزكم
يحملو لعباً.. ويحمي أرضكمممممممم..)

اللعنة! لو علم من كتب النشيد بهذه المجزرة لفكر ألف مرة قبل كتابته!..

كانت نظرية المدير الثانية أن الصلاة عماد الدين، فلا بد أن يتعلم هؤلاء الفسقة الصلاة.. لذلك عندما يرن جرس فسحة الصلاة، كان يقوم بتوزيع الأساتذة على منافذ المدرسة.. ومنافذ تعني الأماكن التي كنا نتسلل منها خارجاً لنذهب لسوق (الخرطوم 2) ونتوزع: بعضنا يدخل (Games World) ليلعب ألعاب الفيديو (وهؤلاء أولاد الذوات الذين معهم مصروف جيب كافٍ)، بعضنا يذهب لـ(ميمي آيس) ليس يأكل الآيسكريم بل ليسيل لعابه من مرأى البنات – تلك الكائنات الأسطورية التي لم يكن لنا احتكاك معها من أي نوع.. وجزء – وأنا منهم – كانوا يذهبون لمحل (سونيك إنترنت) وهو مقهى لنترنت (على قلة مقاهي الانترنت في ذلك الزمان).به ميزة مهمة: أن الأجهزة كانت في كبائن منفصلة وكان ذلك قبل اختراع نظام التحكم الأبوي في الموقع! لماذا كان ذلك مهما؟ أنت ساذج يا أخي! أولاد في سن المراهقة يدخلون النت في أول بداياته حينما كانت المواقع مفتوحة، لماذا في ظنك؟.. كنا ندخل ثلاثة طلاب في كابينة لسببين: الأول تقليل النفقات، والثاني أن اثنين سيجلسان لتصفح المواقع بينما

الثالث يقف لمراقبة الممر!..

هذه المنافذ التي قلتها كانت تشمل: المقصف (هو الكافتيريا للزوم التحذلق!) حيث بها شباك خلفي يطل على الشارع، والزقاق خلف الفصول، والباب الخلفي للمدرسة، وطبعاً لا تنس صفنا في الطابق العلوي، حيث قمنا بكسر الحديد المحيط بالشبابيك، وتصرف بعض أولاد الذوات فأحضروا لوري من الرمل ردموه خارج السور مباشرة، فكنا نقفز من الطابق العلوي خارج السور على تل الرمل، ثم ننطلق للسوق!..

في هذا العهد الجديد كنا نرى الأساتذة يقفون بالمرصاد في منافذنا وتعلوهم نظرة (لا تنفذون إلا بسلطان)، وطبعاً لم يغير هذا كثيراً فينا لأننا كنا نتصرف لنجد منافذ أخرى..

والنظرية الثالثة للمدير كانت أن (فرق تسد).. فكان يضع جاسوساً في كل فصل يكون غالباً من المساكين المغلوبين على أمرهم للذين يريدون فقط أن (ياكلوا عيش وينجحوا)، ثم يتعمد أن يظهر أمامنا هذا الجاسوس ويعرفنا بأنه جاسوسه حتى نفقد الثقة في بعضنا.. هاجمنا مرة في الفصل على حين غرة ونحن نمارس الفوضى غير الخلاقة كالعادة.. وبعد أن هدأت الأصوات سأل:

- وين الألفة؟..

أشارت جميع الأصابع باتجاهي.. لم يصدق عينيه فهو قد رآني أقفز فوق الكنب حينما دخل الفصل!.. سألني بهدوء أسد ينظر لفريسته:

- وين المهرجلين يا ألفة؟..

قمت واقفاً وأخرجت خمسة طلاب عشوائيين على أنهم المهرجلون..

لم يعلق بل نظر نحو جاسوسه وقال:
– وين المهرجلين يا ألفتي؟..
قام الولد بخجل من فضيحته وأشار للمهرجلين، وعلى رأسهم أخوكم بالطبع.. نظر لي المدير وقال ببرود:
– الألفة ومهرجل؟ يعني حاميها حراميها؟..
أدار عينيه في الوجوه ثم قال:
– حنغير الألفة.. وين أول الفصل؟..
أشارت جميع الأصابع نحوي مرة أخرى.. كتم غيظه وهو يقول:
– أمري لله.. حتكون الألفة لحدي ما نشوف لينا صرفة..
وواصلت كوني الألفة حتى تخرجنا من الثانوية، فالرجل أسقط في يده بعد كل شئ ولم يتمكن من كسر شوكة تالتة أحياء..

* * *

أما فترة الجامعة نفسها فهي كما قلت لك: نلتقي يومياً في القهوة نشرب الشيشة والسحلب والشاي ونتحدث فيما شاء لنا للقدر أن نتحدث.. نجلس بالساعات الطوال هناك.. كنا قد كونا صداقات مع الزبائن الدائمين بالمحل، وللأمانة فإن معظم الزبائن كانوا ثابتين لا يتغيرون..
لديك مثلاً هؤلاء الستة والذين عرفنا بعد فترة أنهم نواب كبار في تخصصات مختلفة تشمل الجراحة والباطنية والعظام والنساء والولادة.. كانوا يلتقون يومين في الأسبوع على مدار السنين، لا يتخلف أحدهم عن الموعد حتى لو كان في غرفة العمليات.. كل يوم اثنين وخميس ستجدهم في القهوة، يحتلون طاولة معروفة أنها طاولتهم، يدخنون الشيشة ويلعبون الكوتشينة لساعات وساعات..

اليوم صاروا كلهم من كبار الأخصائيين في تخصصـــاتهم ولكننـــي أعرف يقيناً أنهم لم يتركوا عادتهم في اللقاء للـــدوري الأســـبوعي، وإنني لأحسدهم على صداقتهم هذه التي كانت تنافس صـــداقتي مـــع الشلة قبل أن "تنفرتك" ويطير كل منا لبلد..

كان هناك شاب يأتي كل يوم لـــ(يصطبح) بحجر الشيشـــة وكـــوب القهوة ويقرأ جرائد الصباح ثم يغادر.. عرفت فيما بعد أنه محامي!.. كان من الزبائن الدائمين للقهوة مجموعة محامين، مجموعة صيادلة، شلتا أطباء، مجموعة مهندسي بترول، لواء بالمعاش، قاضٍ بالمعاش، أساتذة وصحفيون.. صدقني أنا لا أمزح! يذكرك هذا بقهاوي هيكـــل والعقاد في مصر أليس كذلك؟.. فعلاً كان الأمـــر أقـــرب للمقهـــى الثقافي.. تدخل صباحاً فتجد (سامي) معلم القهوة قد أحضـــر جميـــع جرائد الصباح السياسية والرياضية ووضعها على كرسي في مدخل القهوة.. لو دخلت يمكنك أن تجلس مع أي شلة ترغب فيها فهم لـــن يمانعوا، وعندئذٍ ستجد العجب العجاب: كل شلة تتحدث في موضوع ما، غالباً يكون موضوعاً سياسياً أو دينياً أو ثقافياً أو رياضـــياً، أي أنها كلها مواضيع هادفة.. تلتفت ببساطة لأحدهم وتقول:

– يا (رامي) عليك الله دايرك تجيـــبـــلـــي عينـــات بتلعـــة أدويـــة للمرضانين بكرة..

في حين يلتفت إليك أحدهم ويقول:

– يا دكتور (خالد) بالله بعدين المساء حأجيب ليك فحوصـــات لأمـــي عايزك تديني رايك..

باختصار كانت القهوة ملتقى لجميع الفئات الراقيـــة والفعالـــة فـــي

المجتمع، الملتقى الذي يصعب أن تراه في أي مكان آخر، كما أن أي شخص من هؤلاء لن تقابله ويحدثك بمزاج عالٍ وطيب نفس كما يحدث هنا!..

حتى بالمناسبة تطوعنا لشرح ما صعب من مواد لبرالمتنا كان يتم في القهوة!.. من أراد من (خالد) سنة خامسة أن يشرح له الفسيولوجي فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة! أعني فليذهب للقهوة.. وكان منظراً طبيعياً أيام الامتحانات أن تجد مجموعة من الشباب متحلقين يحيطون بشاب آخر يبدو أنه يحاضرهم أو يدرسهم، بينما صوت الـ(قر قرررر) المميز للشيشة يتعالى في الخلفية!.. طبعاً لن أقول أن البنات لم يكن يتمكن من حضور هذه المحاضرات لأسباب لوجستية واضحة!..

على كل حال كانت حياتنا أغلبها خارج الجامعة، أما دخولنا للجامعة فنادر جداً ويحدث غالباً أيام الامتحانات، أو ربما نأتي ليلاً بعد منتصف الليل حيث يكون البنات قد عدن لداخلياتهن وانصرف أغلب الناس، فيخلو لنا شارع (المين) لنجلس ونصيح ونضحك بصوت عالٍ كما يحلو لنا.. نحن ملوك الليل!..

ولكني لن أنسى أبداً دكتور (أحمد خالد) رئيس قسم الميكرو في ذلك الوقت.. هو رجل عبقري – لا يوجد وصف آخر.. مضطلع وعالم في علم الفيروسات وهو ممن يعمل مع منظمة الصحة العالمية وله أبحاث وأعمال مهمة – لم أفهم كلمة منها – ولكنها تبدو مهمة حينما بحثت عن اسم الرجل في (جوجل)..

الرجل كان حاضر البديهة، سريع الإجابة، طويل اللسان في وقت واحد.. وهذا الكوكتيل كان يخرج لنا بالغرائب دائماً مما كنا نضحك

له رغم أنه كان مؤلماً في أحيان كثيرة.. مثلاً كان له تصنيفان فقط للبشر: (كباتن) و(جرابيع)!.. فالكابتن هو الطالب الذي نسميه (الضب) أي دودة الكتب الذي يقرأ طوال السنة.ثم يحرز أعلى الدرجات لأن (الطب حفظ وتسميع كما علمونا).. أما الجربوع فهو أي شئ آخر!.. وعلى ذلك كان حوالي 10% فقط من أي دفعة هم (الكباتن) أما البقية فهم (جرابيع)!..

ورغم أنك ستغضب حينما تقرأ اللفظة وتظن أنها إساءة إلا لأنه – صدقني – لو كنت واقفاً أمام دكتور (أحمد) وقال لك: يا جربوع! فإنك ستضحك حتى تقع على قفاك!.. كانت له طريقة خاصة في إيصال الكلمة بصورة ساخرة تجعلك تتجاهل فحوى الكلمة وتضحك على نفسك..

كانت صداقتي مع الرجل لسبب بسيط، هو أنه يعلم أنني كنت (جربوعاً) في السنة الثالثة، ثم فجأة صرت (كابتن الكباتن) في السنة الرابعة!.. لدرجة أنني كنت سأتحصل على جائزة الجامعة في علم المايكرو لولا أنني لم أكن أحضر المحاضرات ولذلك كان تحصيلي في أعمال السنة يقارب الصفر، وهو ما نسف درجتي النهائية ومعها الجائزة.. وقد كان دكتور (أحمد) ساخراً كعادته حينما ذهبت إليه في المكتب.. لماذا؟ سأخبرك لماذا..

النظام عندنا في الكلية هو أنه بعد التصحيح الأولى للأوراق، وقبل الامتحان الشفوي، يتم الإعلان عن قائمة المرشحين لجائزة الكلية في كل مادة، لينظم لهم امتحان شفوي لوحدهم بعيداً عن (الجرابيع)، حيث يتنافس ثلاثة أو أربعة طلاب على الأكثر لينال أحدهم الجائزة في كل مادة..

كانت قائمة المرشحين لجائزة المايكرو تشمل بنتين فقط، وقد علقت على البورد العظيم في وسط الكلية.. قرأت الإسمين ثم ذهبت لمكتب دكتور (أحمد خالد) وطرقت الباب ليجيبني من الداخل:

– ادخل..

فتحت الباب ونظرت للداخل فرأيت اثنين من المعيدين بقسم المايكرو جالسين مع الدكتور.. عرفت أنني لن أستطيع أن أتحدث بحرية كما أفعل دائماً معه.. كنت أريد الخروج ولكنه بادرني:

– عايز شنو يا (جربوع)؟..

ابتسمت وقلت:

– أنا (جربعتي) خليها.. إنت الدفعة دي ما فيها رجال ولا شنو؟..

جر القلم على ورقة أمامه وهو يقول:

– هو فعلاً ما فيها رجال.. لكن السؤال ليه؟..

* شايف المرشحين بتاعين الجائزة بتين بس.. ويييين الرجال؟..

هز رأسه وأصدر صوت (تؤ) ساخر من فمه، واصلت:

– ويييين (سامر) وويين (أمجد)؟..

كان هذان من يحرزان أعلى الدرجات من الأولاد طوال سني الدراسة.. قلب هو الورقة التي أمامه وواصل الكتابة:

– أنسى.. (جرابيع).. عندك غيرهم؟..

نظرت للمروحة مفكراً ثم نظرت إليه وقلت:

– ومحسوبك؟..

أوقف الكتابة وصمت لحظة ثم رفع رأسه لي وقال:

– إنت؟ أنا كنت قايلك (كابتن) لكن طلعت (جربوع)..

وقبل أن أعلق أشار لي قائلاً:

– أمشي وتعال لي بعدين نتفاهم..

كان نادراً ما يحدثني بجفاء فعرفت أن الأمر لا يحتمل النقاش أمـــام حضور.. ذهبت و"صعت" بقية اليوم ثم جئته آخر اليوم في المكتب.. وجدته لوحده، فطلب لنا كوبين من الشاي كعادته ثم جلس ينظرلـــي بابتسامته الساخرة التي لا تفارق شفتيه.. قلت له:

– أها قلت لي بالنسبة للكابتن الطلع جربوع؟ الحصل شنو؟..

هز رأسه بلا معنى.. خلع نظارته وقال:

– يا (جربوع).. نحنا صححنا الورق بتـــاع الإمتحـــان النهـــائي.. الدرجات كانت فظيعة.. أول مرة يجيني البروف جاري شايل ورقة في يدو ويقول لي: دي ورقة نموذجيـــة!.. ده أحســـن Essay أذ ا أصححو في العشرة سنة الفاتو!.. الود ده اسمو منو؟..

وسبب الدهشة أن البروف كان بروفسيراً لعلم المناعة وهو من ألطف الناس خارج قاعة الإمتحان.. أما لو رماك حظك العاثر لتدخل معـــه الأورال (الامتحان الشفوي) فإن (طيارتك قـــامت) أي أن عليـــك أن تبدأ بلطم الخدود وشق الجيوب! لماذا؟ لأنه لا أحد ينجح معه حـــتى ولو كان يحفظ الكتاب عن ظهر قلب!.. لا تصدقني؟ اسمع ما قـــاله أحد الطلاب بعد الأورال:

– دخلت للبروف.. قال لي اتكلم عن الـــ(Spirochetes[40]).. قلـــت ليهو يا بروف دي ما مقررة علينا!.. قال لي: انت بتتكلم معاي كمان يا كلب! أطلع برة! برررررة!..

هذا مثال، والآخر الذي أجاب له إجابة خاطئـــة فصـــاح للـــبروف:

---

40 عائلة من عوائل البكتريا يسبب أحد أفرادها مرض الزهري.

أستغفر الله العظيم! أطلع برة! برررررة!..
الخلاصة أن البروف لن يجعلك ترسب فحسب، بل وسيزفك أيضاً!..
ولذلك كانت الدهشة عظيمة حينما كان البروف يتحدث بإعجاب عن ورقتي!.. نعود لدكتور (أحمد خالد) الذي كان يواصل:
– طبعاً شلت الرقم وشفت الإسم لقيتو (الجربوع الأعظم).. سبحان الله! شكلك عايز تبقى كابتن!..
ثم رشف رشفة من كوب الشاي وواصل:
– أها بعد يومين جاني دكتور تاني شايل ورقة تانية قال لي دي أحسن إجابة شافها في حياتو.. والود ده عندو عقلية بحثية علمية ولازم نقنعو إنو بعد ما يتخرج ينضم للقسم.. طبعاً لقيت اسمك (المجربع) برضو.. بقينا في مرحلة رصد الدرجات ولمن بجمع في النتايج لقيتك فاضحني الله لا كسبك: مقفّل الـ MCQs (أي محرز الدرجة الكاملة) والـ Essays وهي الدرجة اللي ما شاف طالب تاني في دفعتك جابها، وساقط لي في أعمال السنة!.. جاني البروف يقول لي: أها طبعاً الجائزة أمرها محسوم السنة دي، ما حنعمل أورال لأنو الطالب داك حياخدها!.. عاينت ليهو بالجنبة وقلت ليهو: الطالب منو؟ (خالد أبنعوف)؟ ده جربوع ساي!..
تذكرت هنا (عادل إمام) وهو يصيح (ساقط يا كلب!).. المهم..
رشف الدكتور رشفة أخرى من الشاي وهو يعلق باستمتاع:
– ياخ أنا قلت أخيراً جانا (كابتن) من وراء الجماهير!.. طلعت مجربع جربعة!.. الله يفضحك ياخ!..
ورغم كمية (الجربعة) التي قيلت فإنني كنت أضحك نصف الوقت.. أخبرتك أن الرجل كوميدي بصورة غير معقولة وأنت يجب أن تراه

كي تقدر فنه!..

عرفت من بعض الطلاب فيما بعد أنه كان بعد صدور النتيجة يستخدم أوراقي "النموذجية" حينما يناقشه الطلاب في درجاتهم.. تأتي له فتطلب إعادة تصحيح الأوراق، وبعد ذلك تعترض على لأنه تم إعطاؤك 3 من 10 في مقالة ما، فيخرج لك ورقتي من الدرج ويقول لك: أقرا دي.. لو كتبت زيها بتاخد 9 من 10!.. فتقرأ المقالة وتصاب بالإحباط وتغادر بلا كلمة.. كان ذلك مستمراً حتى فعلها يوماً مع طالب ما ولكن هواء المروحة قلب الورقة، فاستطاع الطالب قراءة اسمي، فنظر للورقة بلا اكتراث وقال لدكتور (أحمد خالد):

– آآآآه دي ورقة (خالد أبنعوف)؟ياخ ده جايب (Pass)في الباثولوجي أنساك منو!..

وبعد هذه الحادثة لم يستخدم (أحمد خالد) أوراقي أبداً خوفاً من أن يعيروه بدرجاتي المنخفضة في الباثولوجي!.. كان ذلك ربما لأنه في اجتماع مجلس الكلية حينما كانوا يناقشون درجات الطلاب لإجازة النتيجة، ثم توقفوا عند درجاتي وسألوا:

– كيف يكون الطالب ده جايب (Pass)في الباثولوجي والفارماكولوجي وجايب إمتياز في المايكرو؟..

ثم نظروا لصاحبنا متهمين قسمه بالتراخي وتوزيع الدرجات للطلاب بلا حساب، وكانوا مصرين أن يتم تنزيل الدرجة من امتياز لجيد جداً!.. ترك الرجل الاجتماع وجرى للقسم حيث أخرج أوراقي وجاء بها للمجلس، ودارت الأوراق حول جميع الأعضاء حتى اقتنعوا بأنني فعلاً أحرزت هذه الدرجة وعندها تركوني أحصل على امتيازي في علم الميكرو!..

كان دكتور (أحمد خالد) رجلاً سريع البديهة فعلاً.. كان يمسك الميكرفون في القاعة ويعطينا درساً عن علم الفيروسات، حينما دخل أحد الشباب من الباب الخلفي للقاعة محاولاً ألا يحدث ضجة.. رآه (أحمد خالد) فنظر إليه وقال:

– يا (محمد عثمان)، جاي متأخر!.. ما تخاف خش ساي، المحاضرة دي زي الفيلم الهندي أوله زي آخرو يعني ما فاتك حاجة!..

وكان في يوم آخر يرجع بسيارته في موقف الكلية الضيق وهو يحاول أن يستعدلها ليغادر.. رآه دكتور بقسم الأطفال فأراد أن يمازحه قليلاً فقال:

– أعمل حسابك ما تعمل حادث!..

أخرج (أحمد خالد) رأسه من زجاج السيارة ونظر إليه وهو يلبس بذلة خضراء اللون، صاح به:

– وانت أعمل حسابك ما تاكلك غنماية!..

كان هذا الرجل من الأسباب الأساسية التي تجبرك أن تأتي للجامعة، فقط كي تقابله وتسمع بعض تعليقاته الساخرة ثم تغادر متجهاً للقهوة..

(10)

يا أخي لا تتركني أسرح في الكلام هكذا حتى أنسى رأس الموضوع!.. كنا نتكلم عن (سارة)..

(سارة) كانت من الناشطات في العمل السياسي، وكانت منضمة للحزب الشيوعي..

وأنا منذ أن تعرفت على السياسة ولي نقطة ضعف أمام الحزب الشيوعي.. لا تسرح بأفكارك بعيداً.. أنا لا أتفق معهم فيما يقولون وأعتقد أن ما يريدونه هو الفوضى لا غير.. حكم الشعب؟ هذا يعني الفوضى غير الخلاقة – تماماً كما كنا نفعل أيام الثانوية..

مصدر احترامي لهم هو أنهم – كأفراد – شديدو الثقافة..لم ألتق شيوعياً أو يسارياً حتى اليوم لم يبهرني بثقافته.. وأنا كما أخبرتك اطلعت على كمية كبيرة من الكتب وقرأت كثيراً، ولكني لا زلت طفلاً صغيراً يفتح عينيه انبهاراً حينما يسمع معلومة جديدة..

و(سارة) كانت دائماً ما تبهرني – كعادة جميع الشيوعيين..

جذبتني بأفكارها الجديدة (في ذلك الوقت كان كل شئ جديداً علي)، وبحديثها المستفيض عن (كارل ماركس) و(لينين) (وديكارت) و(نيتشه).. كانت لديها الطاقة لتتحدث ساعات بدون توقف، وكنت أرى ذلك حينما كانت تخطب في أركان النقاش التي كانت تقام في شوارع الجامعة.. كنت أتابعها من شارع (المين) بمجمع الوسط، لشارع (المين) بالمجمع الطبي، لمجمع شمبات، لمجمع الصحة.. كانت حينما تتكلم تعيش الموضوع وتتأثر به، فتحرك يديها وترفع

صوتها، تهز صدرها وظهرها وتضحك بصوت عالٍ أو تكشر حتى تتحول للبوة مفترسة..

لم أكن أنظر إليها من ناحية جسدية.. هي كانت جميلة نعم، ولكنها كانت تتعمد (بشتنة) نفسها كأن (البشتنة) جزء من بوهيمية النضال والمعاناة..

كانت تخرج من بيتهم واضعة طرحتها فوق رأسها لئلا يغتالها أبوها الملتزم، ثم تنزلها فوق كتفيها أول أن تلف من طرف الشارع.. كانت تتعمد أن تفتح ثلاث أزرار من أعلى القميص وتبعدهم عن بعضهم كأنها تتفاخر بأنوثتها أو تعوض نقص الهرمونات لديها.. كانت تلبس شبشباً من النوع (أبو سير) أحمر اللون، رغم أنني أعرف أنها تملك دولاباً كاملاً من الأحذية، فأبوها تاجر معروف وعائلتها ميسورة، ولكنه بورتريه (أنا مناضلة) ذاك..

(سارة) كانت بالنسبة لي مفتاحاً لعالمين: فمن جهة هي شيوعية مثقفة جداً وأنا استمتع بالثقافة، ومن ناحية هي فتاة – تقنياً على الأقل – فهي دليلي لعالم البنات الساحر الذي لم أكن قد دخلته من قبل..

تابعت (سارة) فأقنعتني بأن العمل السياسي فرض عين وليس فرض كفاية كما يفهم أغلب الناس.. "إن لم تذهب للحرب جاءت هي إليك"، كما كانت تردد دوماً.. لم أقتنع لحظة بأفكارها الماركسية ولكنني اقتنعت بضرورة خوض معترك السياسة إن أردت أن أحدث تغييراً ما.. كنت شاباً وكنت متحمساً للتغيير..

دخلت معهم في الحزب الشيوعي وبدأت تأخذني لاجتماعاتهم.. اجتماعات بسيطة ذات طابع حميمي، تحت شجرة (لبخ) في كلية الهندسة، أو جوار (ميري) بائعة القهوة في مجمع الطب.. وبدأت

أتعرف على أفراد الحزب النشطاء.. (ناجي).. (محمود).. (عطا).. وآخرون.. لم تمض أسابيع حتى كنت أصرخ رافعاً عقيرتي بالنداء:

(أهلاً مرحب.. حس طلابي وشارع أرحب..
الأطفال يا فاطمة بغنوا..
لما شليلنا عطش في إيدنا..
قمنا قطعنا عشانو وريدنا..
يا كاتلنا وعامل سيدنا..
بطشك ما بكسرنا بزيدنا..)

كنت مستمتعاً تماماً بإحساس (النضال) وبأنني (جزء من شئ مـــا).. شئ أكبر مني وله هدف.. ولكن ما الهدف؟..
واصلت النضال الثوري مع الزملاء، حيث كنا في ذلك الوقت نصب اهتمامنا على عودة اتحاد طلاب جامعة الخرطوم الذي كان موقوفـــاً عن العمل لأكثر من ثلاثين عاماً.. كنا نطالب بعودة الاتحاد وعـــودة حقوقنا المهضومة، ونسقط ذلك على الواقع السياسي فـــي الشـــارع السوداني، ونستغل قضايا الشارع لتوضيح فكرنا المعارض ورأينا.. ولكنني ظللت أسأل: ما الهدف؟..
كان أفراد الحزب في البداية يتقبلون أسألتي بصدر رحب، ويجيبونني إجابات ملتفة من نوع: من أنا هو السؤال الخالد.. فأقاطع بعصبية:
– أنا لم أسأل من أنا؟ سألت ما الهدف؟ ما الغاية من وراء النضال؟ ما النتيجة النهائية أو الـــ End result؟..
فيدور الحـــوار ليتمحـــور حـــول الطبقيـــة وصـــراع البرجوازيـــة

والبروليتاريا، وأن (الدين أفيون الشعوب)..
كنت أتنهد وأنا لا أجد إجابة لسؤالي.. لو سألتني اليوم عن معنى (الدين أفيون الشعوب) لأجبتك ببساطة: الدين أفضل مخدر يستخدم لتخدير الشعوب.. اهدأ يا صديقي، أنا قد تركت الشيوعية منذ زمن، ولكني أقول لك: في العالم الثالث، لو أردت أن تشغل الناس عن أي شئ فاذكر لهم موضوعاً دينياً وسينسون ما هم فيه.. لو أردت أن تثير الفتنة فافتح موضوعاً دينياً.. لو أردت أن تنال مكانة بين الناس فارفع من مكانتك الدينية بينهم.. التجارة بالدين مربحة جداً في عالمنا يا صديقي..

في العالم المتحضر هم قد تركوا الدين واشتغلوا بالقوانين واللوائح.. أنا لا أنادي بالعلمانية، ولكني أقول أن الدين حينما يصبح شيعة وسنة، وقتل باسم الله، ومذابح ترتكب باسم الرب في حين أنه بريئ منها، واثنان يقتلان بعضهما وكل منهما يؤمن تماماً أنه في الجنة وصاحبه في النار، عندها يجب أن يحدث أحد شيئين: إما أن تترك الدين فهو صار عائقاً، أو أن تراجع فهمك للدين لأنك صرت عائقاً..
المهم أنني واصلت بضع سنوات مع الشيوعيين، ولم أتلق إجابة لسؤالي، بل أصبحوا يتضايقون كلما سألت هذا السؤال.. واكتشفت أنهم هم أنفسهم لا يعرفون الإجابة.. هم سعيدون لأنهم يناضلون.. لأجل (محمد أحمد) المسحوق.. لأجل أطفال الشوارع وأيتام (المايقوما).. حسناً، وماذا بعد؟.. تخيلوا أنكم استلمتم زمام الحكم الآن وفي هذه اللحظة، ما هي خطتكم؟ ما هو الهدف النهائي؟ إسقاط الحكم؟ ثم ماذا؟ حكم الشعب؟ هذا تخريف وكلمة حق يراد بها

باطل..

وفي النهاية اقتنعت أن هؤلاء القوم يناضلون لأجل فكرة النضال، لا لأجل هدف معين.. كنت قد اكتفيت من الصياح في شوارع الجامعة وتأليف الأشعار الثورية وكتابتها في عشرات البوسترات وتعليقها ليلاً فقط لأن خطي جميل، أكتب وأنا لا أستوعب نصف ما أكتب.. أكتب لأن (سارة) تخبرني أن أكتب.. أكتب لأحس أنني أناضل لأجل قضية ما، لكن ما هي؟..

حينها تركت الحزب الشيوعي وقررت أن أعتزل السياسة.. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة للأسف..

* * *

كنت نشطاً جداً أيام الحزب الشيوعي، ولذلك كان اسمي معروفاً في أروقة السياسة في الجامعة، فضلاً عن أنني كنت أكتب جريدة حائطية سياسية أسبوعية مستقلة..

وبالطبع انتشرت أخبار انسلاخي عن الحزب الشيوعي.. لكن الأحزاب الأخرى لم تهتم بأن تجندني – فهم يخافون من الشيوعيين باعتبارهم المنافقين وأحفاد ابن سلول – ولم أكن أهتم صراحة فأنا قررت اعتزال السياسة..

ولكن الأخوان المسلمين كان لهم رأي آخر.. هؤلاء يرون أن "الانتهازية" واستغلال الغير هي "فهلوة" و"تفتيحة" ويؤمنون بميكيافيلليلة التفكير التي تقول أن الغاية تبرر الوسيلة..

وعلى ذلك فقد قرروا الاستفادة من خبراتي ومعلوماتي الداخلية عن الحزب الشيوعي، بالإضافة لمهاراتي الشعرية والفنية، ليدعموا موقفهم.. وبدأوا يتقربون مني قليلاً قليلاً..

أصدقك القول أنني لست ذلك الرجل الملتزم، وأنني لا أصلي كل الفروض.. ولكنني أدخل جامع كلية الطب غالباً وقت صلاة الظهر حينما نكون قد خرجنا من معمل أو جئنا عائدين من مرور في مستشفى، فأصلي الظهر وأرقد قليلاً..

بدأ جماعتك في التقرب مني خلال هذه الفترة.. صلى أحدهم جواري – بالصدفة المتعمدة – ثم جلس يسبح بينما مارست أنا هوايتي المعتادة في الرقاد على ظهري.. التفت إلي وسألني بعفوية:

– يا دكتور انت بتقرا في سنة كم؟..

أجبته من خلال (سبحان الله سبحان الله):

– تالتة..

واصل تسبيحه قليلاً ثم التفت إلي مرة أخرى:

– غريبة ما شفتك قبل كدة!..

همهمت بكلام غير مفهوم عن أن (الدنيا واسعة) ولكنه انتهى من تسبيحه والتفت بكامل جسمه إلي:

– أنا (همام) من سنة خامسة..

* اتشرفنا..

قلتها ببرود محاولاً إنهاء الحوار.. كنت قد بدأت أكون فكرة عامة عن غرضه من التقرب إلي، وأنا لا أرغب في ذلك.. عرفت من اسمه أنه إسلامي، لا أعرف هل هو أخ مسلم أم أنصار سنة، ولكنه اسلامي.. لا تسألني لماذا ترتبط بعض الأسماء ببعض التوجهات الفكرية رغم أن الإسم لا تختاره أنت؟ لا أدري، ربما كان الاسم عامل جذب يسيرك في اتجاه معين.. ربما كان أبواك ذوي احساس فائق عند صغرك فسمياك بذلك الإسم.. لا أدري حقيقةً، لكن كل ما

أعلمه أن الشيوعي لا يمكن أن يكون (همام) أو (القعقـــاع) كمـــا أن الأخ المسلم لا يمكن أن يكون (عطا) أو (التاية)..

لكنه كان كالجاثوم فوق صدري:

– أنا شفتك عدة مرات في أركان النقاش..

* مممم... فففف... هممممم...

لم ييأس وواصل:

– انت زول شكلك فاهم ومضطلع.. وانت كمـــان مســـلم وبتصـــلي هداهو..

اعتدلت جالساً وأنا انظر في موبايلي (لا أحب لبس الساعات) وأقول:

– اتشرفنا يا (قعقاع) بس أنا مضطر أمشي عنـــدي تيوتوريال فـــي المشرحة..

مد إلي يده باسماً:

– (همام) ما (القعقاع)!.. نحنا ما داخلين معركة أحد!..

استمرت بعدها اللقاءات – بالصدفة أيضاً – بعد صلاة الظهر، ممـــا جعلني أكاد أترك الصلاة تماماً، ولكنني بصراحة كنت أحتاج لترييح ظهري بعد عناء الصباح، وإلا كنت سأصلي فـــي (جويمـــع) كليـــة الصيدلة الذي هو عبارة عن (برشين) مفروشين وأمامهـــا مصـــلاية للإمام..

هؤلاء الأخوان المسلمون لديهم عيب خطير جداً: هم لا يسأمون.. هم لا يخجلون.. هم لا يتراجعون.. مهما كانت المحاذير، هم سيستمرون في (النقة) طالما أن ذلك يخدم القضية.. سيواصلون طرق الحديد في نفس المكان ولا يهم لو انكسر طالما ذلك يخدم أهدافهم.. لذلك عرفت

أن هؤلاء قد قرروا تجنيدي وهم لم يتركوني إلا أخاً مسلماً..
هذا كما قلت عيب خطير، فمن الخطأ أن تركز كل محاولات تجنيدك في مكان واحد وزمان واحد.. يا أخي الكلية كبيرة، لم لم تقابلني – بالصدفة – في المشرحة؟ أو جوار ماسورة الماء؟ أوفي نجيلة (البغدادي)؟ أو في قاعات المذاكرة؟ أو حتى في الصلوات الأخرى؟ لماذا دائماً نتقابل في الجامع بعد صلاة الظهر – ودائماً بالصدفة؟ يا أخي هذا يبعث الملل والشعور بالحصار عند المجند – ولكن اكتشفت فيما بعد أن هذا هو المقصود بالضبط: أن يشعر الهدف بالحصار فلا يكون لديه خيار سوى الانضمام.. ولعمري إنه لحزب فقير ذلك الحزب الذي يعتمد على خوف الاعضاء عند الانضمام لديه!..
كنت قد بدأت أقلب الأمر في ذهني ووصلت لنتيجة: لأنا عنيد ويمكنني أن أواصل تجاهلهم وهم عاجلاً أو آجلاً سيسأمون مني ويتركوني.. ولكن ذلك العِرْق الذي "ينتح" عليك والذي يخبرك أنه (لازم تكون أداة للتغيير) و(انت شاب ولازم تخدم وطنك) كان قد بدأ العمل.. وخزني ضميري الذي كنت قد أعطيته حقنة مهدئة بعد انسلاخي عن الشيوعيين، ولكنه استيقظ وهو بكامل قوته ويخبرني عن خيانتي للأمانة وعن بيعي للوطن و.. و..
قررت أنني سأنضم لهؤلاء.. ولم لا؟ الأرض جربت الحجريا أخي.. ثم إنني بخبرتي السياسة بالإضافة للإمكانيات المتوفرة لدى هؤلاء والتي لم تكن لدينا في الحزب الشيوعي سوف أتمكن من إنجاز أشياء عظيمة فعلا..
وكالعادة كنت مخطئاً على طول الخط..

* * *

نصيحة مني لوجه الله تعالى: مهما كان ما يقوله لك الأخ المسلم، فخذه واقلبه لتحصل على الحقيقة..

لو قال لك: نحن نحترم فكرك ومنهجك، فمعناها: نحن نحتقر فكرك ونبول على منهجك!..

ولو قال لك: أنت رجل مفكر والمفكر رجل حر، فمعناها: أنت كلب ابن كلب وصاحب بدعة ولا بدعة في الإسلام!..

ولو قال لك: الإسلام كرم المرأة وحررها من العبودية، فمعناها: أن الإسلام حرر المرأة ولكننا نعطيك الأحاديث المشوهة أو التي تدعم قضيتنا نحن في تكبيل المرأة وجعلها في خدمتنا!..

أعتقد أنك بدأت تفهم المنهاج هنا..

ونصيحة أخرى: لا تحاول أن تحاور أخاً مسلماً أو أنصار سنة.. وللشهادة فإن الحوار مع الأخ المسلم مسلٍ للغاية، فهو يريك كيف يمكن أن تقفز من موضوع لآخر وكيف يمكن أن تضلل السامع فلا يخرج بشئ مما كنت تقوله، ولا تجيب سؤاله في الأساس!.. أما أنصار السنة هؤلاء فهم ألعن وأضل سبيلاً.. الحوار لن يكون حواراً بل هو محاضرة، فما أن يبدأ الحوار حتى يسكتك بعلو صوته – وربما بيده أيضاً – ويبدأ في توجيه المحاضرة (ليس للسائل) بل للجمع الواقف.. والمحاضرة تكون في موضوع لا علاقة له بالسؤال بتاتاً، ولو حاولت أن تصحح ذلك فستكون الصرخة الهادرة:

– اسمع العلم الشرعي وسيبك من الإسفاف!..

وأنصار السنة طبعاً يفترض أنه هو إله العلم وأنه لا أحد يعرف أي علم شرعي غيره.. والحقيقة أنني دائماً ما كنت أتساءل ما الذي سيحدث لو التقى أنصاريا سنة معاً في حوار ما؟ من سيسمع من؟

والغريبة أنني لم أر في يوم من الأيام أنصاريي سنة يلتقيان في جلسة أو حوار كأنما هم يتعمدون ذلك..
لدي طبعاً تحفظ على لفظة (علم شرعي) كما لدي تحفظ على حكاية أن تكون إمام الجامع وظيفة يدفع لها أجر.. أنت تقول أنك تتبع سنة الرسول (ص) أليس كذلك؟ أخبرني إذاً أين ذكر في كتب السنة أن الرسول (ص) أو الخلفاء الراشدين قاموا بدفع مال أو (ماهية) لشخص ما ليصلي بالناس؟.. قام عمر بن الخطاب بتعيين قضاة للولايات نعم، وكان الوالي يصلي بالناس ويأخذ أجره كوالٍ وليس كإمام، وكان الخليفة يصلي بالناس في المدينة.. أين ذكر أن إمام كل جامع كان يأخذ مالاً عن إمامته؟.. أين ذكر أن الصحابة كانوا يعتبرون إمامة الصلاة وظيفة في حد ذاتها تستحق مرتباً؟.. المهم..

نعود لانضمامي للأخوان.. كنت سعيداً جداً لأنني سأتمكن أخيراً من تحقيق شئ ملموس غير الشعارات التي كنا نصدح بها في الحزب الشيوعي.. بدأت أذهب للاجتماعات – وهي كثيرة بحق – والتي لا بد أن يكون في مكان يليق بها، وهو غالباً أحد الأوكار – أقصد المكاتب – المنتشرة في الجامعة والتي لم أكن أتخيل وجودها: مكتب للحرس، مكتب داخل مكتب الحرس، مكتب داخلي متفرع من المكتب الداخلي للحرس، عدة مكاتب بلا مسمى في كليات الصحة والتمريض والصيدلة، وغيرها الكثير.. ودائماً يكون المكتب في منطقة مظللة بعيداً عن الأنظار، وغالباً ما يكون ضيقاً به طاولة اجتماعات تكاد تحتل جميع مساحة المكتب، بالإضافة لبعض الكراسي الخشبية المتواضعة حولها..

كنا جلوساً حول المنضدة لاجتماع المكتب السياسي للـــذي صـــرت رئيسه فيما بعد، وكان الأمين العام للجامعة يتحدث مخاطباً إيانا:
– يا أخواننا وين (أحمد) و(فارس) و(فاطمة)؟..
رد عليه أحد الحضور:
– (أحمد) اعتذر قال عندو اجتماع في مكتـــب صـــحة.. (فـــارس) و(فاطمة) ما قدموا اعتذار..
رد عليه الأمين العام (والذي كانوا يسمونه العقيد):
– خلاص نحنا نبدا اجتماعنا عشان عندي اجتماعين تاني..

ولمن لا يعرف، فحياة هؤلاء تتمحور حول الاجتماعات.. يجتمعون ليتناقشوا ويقرروا مواعيد الإجتماع القادم.. اسأل مسئولك أي سؤال مهما كان بسيطاً ولن يجيبك بل سيقول بغموض:
– في الإجتماع..
هؤلاء قوم يحبون نظرية المؤامرة بصورة مبـــالغ فيهـــا.. ولأنـــا لا ألومهم فهؤلاء قد قبعوا في الزنزانات وفارقوا ضوء النهار منذ أكثر من ستين سنة.. هؤلاء كانوا مناضلين بحق.. ولكنهم صاروا كالجرذ الذي خرج من المجاري ليفاجأ بالشمس والدفء والضـــوء، فصـــار يتخبط يميناً ويساراً حتى صدمته سيارة سحقته تماماً..
والشئ الثاني أن هؤلاء يحبون التنظيم بصورة مهووسة مرضـــية.. أيام الحزب الشيوعي كان التنظيم الحزبي بسيطاً: (ســـارة) مســـئولة الإعلام والأركان، (ناجي) مسئول الأنشطة الثقافيـــة والاجتماعيـــة، و(عطا) مسئول النشاط السياسي.. أما هنا فالتنظيم مهول:

– كل دفعة بها أعضاء من الأخوان المسلمين، وهؤلاء عليهم مسئول،
– كل المسئولين عليهم مسئول كلية، ومسئولو الكليات عليهم مسئول للمجمع المعني،
– كل كلية عليها مكتب سياسي ومكتب إعلامي ومكتب ثقافي ومكتب علاقات عامة ومكتب مالي، ولكل مكتب رئيس وعضوية من أربعة كوادر، ولكل مكتب ممثل في كل دفعة،
– كل المكاتب تتبع لمكتب رئيسي واحد يتمركز في مسجد الجامعة الكبير أمام كلية العلوم،
– رؤساء المكاتب المركزية يتبعون للأمين العام للجامعة،
– الأمين العام للجامعة يتبع لنائب رئيس الجمهورية مباشرة!..

وصاحبنا (العقيد) كان هو الأمين العام للجامعة، وصراحة لا أدري حقيقة تسميته بـ(العقيد)، فقد سمعت قصتين:
* الأولى أنه كان هناك مجموعة من الكوادر قد تم احتجازهم من قبل الشرطة لسبب ما، فذهب هو للملازم المسئول وعرف نفسه أنه فلان الفلان عقيد في الجيش، وقام بإطلاق سراح الكوادر وإنزالهم من البوكس، وهي قصة حامضة قليلاً لو فكرت فيها..
* الثانية أنه لبث ثلاث سنوات ليكمل السنة الدراسية الثانية، وأربع سنوات ليكمل السنة الدراسية الثالثة، حتى قال له أحدهم ضاحكاً: إنت هسي دفعتك بقوا (عقداء)!.. فأخذوها وحولوها لمصلحتهم، وصار اسمه (العقيد).. وهذه القصة أقرب للتصديق..

نعود لاجتماعنا، فقد بدأنا الاجتماع نتناقش في أمور سياسية مختلفة، أغلبها تتعلق بالنشاط السياسي في المجمع الطبي.. وفجأة دق البـــاب وظهر (فارس) و(فاطمة).. دخلا محمري (أو مسودي؟) الوجه مـــن الخجل يعتذران بشدة.. كان (العقيد) صارماً جداً وهو يقول:

– انتو عارفين التأخير بدون عذر ما مقبول.. أي تأخير لا بد من أن تعاقب عليه..

وقف الاثنان كطفلين مذنبين بسرقة الحلوى ينظران للأرض.. أخرج العقيد من جيبه سلك كهرباء صغير (لا أدري لم تذكرت فـــوكس؟) وقال لـــ(فارس) آمراً:

– أفتح يديك..

أطاعه (فارس) بصمت فيما كان صوت الـــ(سبتاح) يتردد عبر أثير الغرفة المغلقة، مذكراً إياي بأيام الجلد في المدرسة الابتدائية!..

انتهى (العقيد) من جلد الرجل فأشار له بالجلوس، ثم نظـــر ناحيـــة البنت وقال لها:

– انتي عقابك ما حيكـــون جســـدي، عقـــاب الأخـــوات روحـــي.. حتستغفري ألف مرة وتســـبحي تلتميـــة مـــرة وترجعـــي الداخليـــة كدراوية!..

أومأت (فاطمة) برأسها إيجاباً ثم جلست على خجل وهي تبـــدأ فـــي التسبيح بهمة ونشاط.. من الذي يستخدم الاستغفار والتسبيح كعقاب؟ هل هذا الرجل مجنون؟ هل هو يزرع فـــي كـــوادره أن الاســـتغفار عقاب، فيما كان نبي الله نوح يقول (اســـتغفروا ربكـــم إنـــه كـــان غفاراً)؟..

استمرت الاجتماعات تتلوها الاجتماعات، بدون أن يكون هنـــاك أي حركة جادة في أي اتجاه.. فقط نحن نجتمع لنحدد موعد الاجتمـــاع القادم ونفترق حتى يأتي الموعد.. نلتقي في الكليـــة لأي ســـبب فلا نتحدث أمام الناس بل يجر أحدنا الآخر لجـــانب ونتحـــدث بصـــوت خافت ونحن نتلفت حولنا خوفاً أن يسمعنا أحد، حتى لو كان الحديث عن مذكرة فسيولوجي.. عقيدة (الجرذ) التي حدثتك عنها مـــن قبـــل كانت قد تأصلت فينا وصرنا نمارسها لا شعورياً..

أما عن الدراسة فحدث ولا حرج.. جماعة أمينها العام هو (العقيـــد) فما الذي تتوقعه منها؟.. كان الرسوب في الجامعة فخراً، وكان عدد سنواتك الجامعية أوسمة تضعها على صدرك.. أما حينما نكون فـــي اجتماع عام ويعرف الناس نفسهم على أنهم: (أحمد) من كلية الطب: السنة السابعة جامعة، تالتة طب! وتقوم أنت لتقول بخجل: (خالد) من كلية الطب: السنة التالتة جامعة، تالتة طب! فالنظرات تكاد تســـلخك حياً، لا حسداً – معاذ الله – فالحسد حرام ولكن احتقاراً لك! كيف لم ترسب سنة واحدة في الجامعة؟ كيف يا ابن الـــ(...)؟..

كنا في ذلك المؤتمر الذي جهزته أمانة الجامعة لكل الكـــوادر علـــى مستوى الجامعة.. ونظراً لأنني الوحيد الذي لم يرسب سنة واحدة في حياته فقد كنت في ذلك الوقت الأمين الأكاديمي للمجمع الطبي.. كان علي أن أقدم ورقة علمية عن.. لا أدري عن مـــاذا، فهـــي اســـمها (الورقة الأكاديمية) والسلام..

كان المؤتمر يتكون من ثلاث ورقات سيتم نقاشها في ثلاث جلسات: الورقة السياسية أولاً لأهميتها، ثم الورقة الإعلامية، وأخيراً الورقـــة

الأكاديمية، حيث ستكون صلاة الظهر شـــارفت للـــدخول ويمكـــن اختصار الورقة لعدم أهميتها..

كنت قد حضرت ورقة محترمة جداً عن أهمية التحصيل الأكاديمي، وعن رؤية عملية لكيفية تحسين وضعنا الأكاديمي.. لم أتحدث عـــن نظريات بل وضعت نقاطاً واضحة لما يجب عملـــه حـــتى نرتقـــي بمستوانا الأكاديمي.. قدمت الورقة للأمانة العامة حيث سيتم "لفهـــا" في الآلة ونسخها لألف نسخة لتغطية الحضور..

ما لم أكن أعلمه هو أن الأمين العام كان ينظر للورقة ويضحك،ثـــم قام بمعاونة صاحبه مسئول المكتب السياسي بتغيير الورقـــة تغييـــراً جذرياً، مسحوا النقاط المحورية التي كتبتها، أضافوا بعـــض النقـــاط الفارغة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، اختصروا الورقة – التي كانت في ست ورقات A4 – لتصبح ورقتين! ثم اختصـ روا كميـ ة الورق فنسخوها على ورقة واحدة أمام وخلف! والورقـــة لا تـــزال تحمل اسمي للأسف..

كان يوم المؤتمر يوماً عظيماً.. الناس تتناقش وتتحاور وتفور وتمور في القاعة.. أخذت الورقة السياسية نصـــف لليـــوم، تلتهـــا الورقـــة الإعلامية، حتى أذن الظهر،فـــأعلن رئيـــس الجلســـة أن المـــؤتمر سيواصل بعد الصلاة، وأهاب بالناس أن لا يغادروا لأنه يعلم أنهـــم يستهزئون بالورقة الأكاديمية، ولكن معنا خبير أكـــاديمي ســـيحدثنا حديثاً مهماً فنرجو العودة!..

طبعاً لم يعد غير نصف الحضور من الصـــلاة!.. غـــادر الجميـــع، بالذات الذين يحتاجون لسماع ما أقول – جماعتـــك،نـــاس (ســـابعة جامعة، تالتة طب) كلهم اختفوا..

جلست في المنصة حيث وضعوا لي ورقتي أمامي.. نظـــرت إليهـــا وقلبتها.. ما هذا؟ هذه ليست ورقتي!.. هز الشاب الذي وضعها كتفيه وغادر المنصة بلا اكتراث..

نظرت للصف الأول فوجدت الأمين العام ينظـــرلـــي ويضـــحك.. الأمين السياسي يضع يده على فمه يكتم ضحكته.. نظـــرت للقاعـــة فوجدتهم جميعاً ينظرون للورقة ويقلبونها بين أيديهم ضاحكين.. "إنها فعلاً ورقة بمعنى الكلمة!" سمعتها تعبر أذني كالطلقة..

شعرت بأن أذني طويلتان جداً.. بأنني ألبست طاقية الحمار.. ولكـــن هيهات، على غير ابن (أبنعوف) يا شباب!..

حملت الميكرفون باليد اليسرى، حملت الورقة باليد اليمنى ورفعتهـــا قائلاً:

– شباب! شايفين الورقة دي؟ أنسوها تماماً..

رميت الورقة وبدأت أتحدث من رأسي:

– الورقة دي ما عندها أي علاقة بالورقة الأنا كتبتها عشان أناقشها الليلة.. شكلو كان في مشكلة في الطابعة..

قلت العبارة وأنا أنظر للأمين العام الذي اتسعت عيناه ذعـــراً مـــن تهوري! هو لا يصدق ما أفعله كأنني "أفحط" بالسيارة أمامه، واصلت بلا اكتراث:

– شايفكم بتقلبوا في الورقة وبتضحكوا من إنها ورقة واحدة.. ودي مشكلتنا تحديداً: بنتحمس للنقاش السياسي وبنفقد الحماس تماماً فـــي النقاش الأكاديمي.. ممكن أسألكم سؤال: نحنا شنو؟..

هتف أحدهم من مؤخرة القاعة في حماس:

– أخوان مسلمين!..

تصاعدت صيحات التكبير و(ليليليليييي) من القاعة.. تركتهم حتى هدأت الأصوات ثم واصلت:

- غلط.. نحنا طلاب في جامعة الخرطوم قبل ما نكون أخوان.. عشان كدة اسمو (تنظيم الأخوان المسلمين بجامعة الخرطوم).. دي الحقيقة البننساها عن قصد.. يعني لازم تكون طالب ناجح أولاً ثم تكون كادر فعال ثانياً..

بدأت الهمهمات تعلو وهم يفكرون لأول مرة في هذه الحقيقة.. أكملت:

- ما شايف أي مفخرة في إني أقول: أنا سنة سابعة جامعة، تللتة طب.. على العكس، ده بينعكس سلباً على التنظيم، وبيظهرنا في صورة إننا بنؤخر التحصيل الدراسي عشان مصلحتنا الحزبية.. ولمن الطالب يكمل الحد المسموح به في لائحة الجامعة ويطردوهو، منو الحيرجعو؟ التنظيم؟ ما حنقدر نعمل ليك أي حاجة لأنو دي لوائح جامعة، حتنطرد وفي اللحظة ديك لا حتكون طالب لا كادر تنظيمي..

اتسعت أعين بعضهم وهم يستوعبون الحقيقة المُرّة.. واصلت الطرق على الحديد بقسوة:

- أنا اقترحت انو المكاتب الأكاديمية للكليات تتفعل.. وده ما حصل.. عندنا في كلية الطب كمية من السناير البشرحو للبرالمة بالمجان، ما دايرين شكر ولا عرفان.. ديل أحسن مننا في شنو؟ لَنا سكيت برالمتنا المنظمين وحنستهم تحانيس عشان يجو أشرح ليهم زي ما بشرح لي باقي الناس وهم رافضين.. شايفينها عيب إنو يذاكرو.. العيب في شنو وروني؟..

واصلت ضربهم بقسوة حتى أتت الساعة الثانية فاكتفيت وغادرت القاعة، معلناً انسلاخي عن المكتب الأكاديمي وانضمامي للمكتب السياسي..

تدرجت بعدها في المكتب السياسي حتى وصلت لأمين عام المكتب السياسي.. كانت الأوضاع قد تغيرت والجامعة قد سمحت بعودة الاتحاد.. كنا فرحين للغاية بهذا النصر.. لماذا النصر؟ لأن الاتحاد كان يسيطر عليه الأخوان المسلمون قبل ثلاثين سنة..

وهذا هو العيب الثالث في الأخوان – وربما فينا جميعاً: نحن نعيش في الماضي.. نتلمظ ونحن نحكي باستمتاع عن أمجاد الماضي البائدة.. كنا أمة قرآنية وكنا أمة منتصرة وكنا وكنا.. هذا تاريخ انتهى يا صديقي، أخبرني عن هويتنا الآن من فضلك ودع الماضي فـ(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم)..

المهم أن الاتحاد في دورته الأولى والثانية قد فاز به الشيوعيون.. كانوا يمرون علي ويضحكون ويتغامزون.. هذا هو الأهبل للذي تركنا وانضم للأخوان المسلمين.. هاه هل نفعك الأخوان؟..

كنت أميناً سياسياً كما قلت لك، وكانت لي رؤية واضحة: لا يمكن أن نظل طوال السنة في حالة كمون، ثم نأتي لأيام الانتخابات ونقيم منتدى شعرياً ومحاضرتين، ثم نستغرب لماذا لم يصوت الطلاب لنا وصوتوا للشيوعيين الفجرة؟.. هذا غباء تنظيمي واضح في رأيي..

حاولت أن أقنع الأمين العام بأن يكون نشاطنا السياسي مستمراً طوال السنة، لا بأس من ندوة أو منتدى كل شهرين أو ثلاثة، الفكرة في الاستمرارية.. المشكلة أن أي برنامج كنت أرفعه كان للدعم يأتي

مباشرة من مكتب نائب الرئيس (رئيس الجمهورية أعني!)، ولكنه يذهب لجيوب الأمين العام وحاشيته..

كنت قد ذهبت بصحبة بعض الأصدقاء (غير المنظمين) لنائب العميد للشئون الأكاديمية، وأقنعناه بأن يهبنا غرفة خالية غير مستعملة لنحولها لمكتبة الكترونية.. وافق على مضض، فهو كان من الأخوان المسلمين قبل كل شئ..

رفعت تصوراً كاملاً عن احتياجات المكتبة من كمبيوترات وطابعات وسكانر ومودم لتوصيل الإنترنت، وتعهد الشباب بأن يدفعوا مبالغ شهرية من حر مالهم للكهرباء والإنترنت.. كان برنامجاً عظيماً سيغير وجه مجمع الطب، إذ أنه لا وجود لمكتبة الكترونية مجانية بهذا الشكل في كل الجامعة، وربما بقية الجامعات السودانية كذلك..

لمعت عينا (العقيد) حينما قرأ التصور.. هذه ثلاثين مليوناً جاءته تجري لتدخل جيبه! وفي ذلك الوقت كان ثلاثون مليوناً مبلغاً محترماً.. كان لي شرط واحد: أن أكون أنا المسئول عن المكتبة وأن أقوم بشرح فكرتها لمن سنقوم بطلب الدعم منه..

قام (العقيد) بعدة اتصالات، ثم دبر لنا لقاءاً مع المرحوم د. (مجذوب الخليفة)، وهو من "النظيفين" في هذا الحزب حسب ما أحسسته من لقاءاتي القليلة معه..

ذهبنا للرجل في مكتبه وقابلناه.. بدأ (العقيد) يتحدث كلاماً كثيراً ويلف ويدور في دوائر.. (نحن أولادكم في جامعة الخرطوم).. (انتو آباءنا وكبارنا).. (المسلم أخو المسلم).. بلا بلا والكثير من الكلام الذي لا محل له من الإعراب هنا.. هذا الشاب يعتقد أنه يتحدث في منبر سياسي..

بدأ الدكتور يتململ، فهو رجل مشغول ولا زمن لديه للكلام الفارغ..
أحسست بأن العملية ستفشل قبل بدئها فتنحنحت وقلت معتذراً:
– متأسفين يا دكتور عارفين مشغولياتك.. الموضـــوع إنـــو عنـــدنا تصور لأول مكتبة الكترونية طلابية في مجمع الطب في الجامعة..
التفت لي الدكتور وقد أحس أنه هناك شخص يفهم في هذا الوفد بعد كل شئ.. سألني مستفهماً فشرحت له الفكرة ببساطة..
رحب جداً بالفكرة وأخذ مني التصور.. أخبرنا بتهذيب أن هذا المبلغ يحتاج بضعة أيام ليوفره لنا، ولكن بصورة مبدئية يمكنه أن:
– يا (محمود) جيب مليونين من درج المكتب..
كان هذا نداؤه لمدير مكتبه الذي فتح الدرج وأخرج رزمتين مـــدهما بالطبع للأمين العام.. برقت عيناه في جشع ولكني كنت الوحيد الذي لاحظ ذلك..
غادرنا مكتب الدكتور وأنا ممتلئ بالآمال.. طبعاً اختفت المليونـــان ولم أرهما بعد هذا، كما أن الدعم المذكور لم يصل لخزينـــتي حـــتى اليوم..

عرفت حينها أن هؤلاء لديهم من قوة الأعصاب وانعدام الضمير أن يبيع أحدهم أمه في سوق النخاسة ليحصل بضعة جنيهـــات.. كنـــت متأففاً ومليئاً بالقرف حينما جلست في المنطقة الخلفية التي نســـميها الاكستنشن (Extension) وهي منطقة بعيداً عن الأعين تجلس بهـــا (ميري) بائعة القهوة ونشرب فيها السجائر..
كان معي شباب الشلة، وسألوني لماذا أنا متجهم على غير العـــادة؟

أجبت بضيق:

– المكتبة الالكترونية شكلها ما حتقوم..

سألوني عن السبب؟ أجبتهم باختصار أن الدعم غير متوفر.. كانوا شباباً متحمسين وذوي ضمائر نظيفة فعلاً.. اقترحوا أن نستخدم المكتبة الالكترونية التابعة للكلية بعد مواعيد العمل الرسمي فهي مجهزة ويمكن استخدامها لو أقنعنا نائب العميد..

سقت الشباب وذهبنا لنائب العميد.. أقنعناه بعد جهد بأن يفتح لنا المكتبة بعد ساعات الدوام.. كان متضايقاً لأنه قد منحنا غرفة من قبل فماذا فعلنا فيها؟.. المهم أنه اقتنع وترك لنا المكتبة الالكترونية..

قام الشباب بمجهود عظيم جداً.. قسمنا نفسنا لمجموعات، كل مجموعة ستقوم بتدريس كورس معين: مبادئ الكمبيوتر، نظام ويندوز، وورد، إكسل، بور بوينت، فوتوشوب.. كل مجموعة قامت بتحضير مذكرة كاملة عن الكورس وتحضير المحاضرات.. أعلنا للطلاب عن قيام كورسات متكاملة بمبلغ رمزي نستخدمه لتصوير المذكرات.. بدأ الطلاب يتوافدون بصورة لم نتخيلها في أكثر أحلامنا جموحاً.. الدورة الأولى سجل بها ما يزيد على 300 طالب.. الدورة الثانية قفز العدد لـ 650 طالب.. الدورة الثالثة جاءنا طلاب من الهندسة والصيدلة والعلوم يسألوننا: هل يمكن أن نسجل في كورساتكم؟.. كان نجاحاً منقطع النظير لمجموعة من الشباب غير المنظمين سياسياً.. كان هذا هو العمل الطوعي في قمة نجاحه..

بدأنا نفكر في أن نرتقي بمستوى العمل.. بحثنا في موضوع أن نسجل أنفسنا كجمعية لتقانة المعلومات بصورة رسمية، وقد كان.. سجلنا أنفسنا بعمادة شئون الطلاب وصار لنا اسم رسمي.. بدأنا نفكر

في أن نسجل أنفسنا في منسقية العمل الطوعي لنتمكن من إصـــــدار شهادات رسمية يستفيد منها الطلاب في حياتهم العملية.. كان العمل يسير على قدم وساق، والشباب يتبرعون بمـــالهم وجهـــدهم وزمـــن مذاكرتهم لإنجاح العمل بدون أي عائدات تعود عليهم..

جاءني الأمين السياسي الجديد للجماعة (فقد غادرت العمل السياســـي لانشغالي بجمعية تقانة المعلومات)، مارس عقيدة الجرذ فأخذني على جانب وحياني:

– أخبارك كيف يا أخ (وليد)؟ لينا زمن ما شفناك في الاجتماعات؟..

أجبت متبرماً:

– مشغول شوية.. انت عارف..

أجاب بابتسامة باهتة:

– عارف.. وعارف كمان جمعيتكم بتاعة تقانة المعلومات.. ما شاء الله شغل ممتاز عاملينو الشباب..

حركت قدمي في التراب راسماً بعض الأشكال وأنا أدمدم:

– فعلا.. شغل كويس.. الحمد لله..

هز رأسه مواقفاً ثم دخل في الموضوع:

– انت عارف الانتخابات قربت.. نحـــن محتـــاجين لجمعيتكـــم دي كواجهة..

وأنا أعرف شغل الواجهات هذا.. هو يشبه غسيل الأموال الذي كانت تقوم به المافيا.. تنشئ جمعية عادية أعضاؤها شباب غير منظمـــون متحمسون للعمل فيما تقوم أنت بتوفير الدعم وتحريك الخيـــوط مـــن

خلف الستار، ولذلك تسمى الواجهة السياسية.. في الحقيقة في فـــترة ما كان هناك مكتب يسمى أمانة الواجهات وكنت أنا أمين الواجهات! فلا تتحداني في اللعبة التي وضعت أنا قواعدها من فضلك..

سألته بحذر:

– كيف يعني؟..

أجاب بصورة مباشرة:

– محتاجين ندخل بعض الكوادر معـــاكم عشـــان يجنـــدو الطلاب.. عرفنا إنو عندكم أكثر من ألف طالب في القوائم بتاعتكم..

أجبت بضيق واضح:

– ما ينفع تستخدموا الجمعية للتجنيد لأنو الطلاب أول ما يعرفوا مـــا حيجوا تاني..

لم يهتم كثيراً وواصل:

– ماف مشكلة.. أدينا القوائم المسجلين فيها الطلاب بأسماؤهم وأرقام تلفوناتهم ونحنا حنتصرف..

تضايقت كثيراً.. لو عرف الطلاب بأن أرقام هواتفهم قد تسربت من خلال جمعيتي للأخوان المسلمين فسأكون أنا المتهم الأول.. لم يكـــن ذلك يهمني بقدر خوفي على أحلام الشلة مـــن أن تتحطـــم ويـــذهب مجهودهم هباءاً منثوراً..

أجبت بفتور وأنا أغادر:

– صعبة جداً.. لكن بشوف..

عرف الرجل أنني لن أسلمه القوائم.. وصل الموضوع للأمين العـــام

بالطبع والذي كان يكرهني في ذلك الوقت لأنني كنت أثبت أنهم حمير في كل لحظة قبل أن أغادرهم، ثم أنني غادرتهم وهو ما لم يحدث معهم من قبل، والأكثر إثارة للغيظ أنني لم أتحدث عنهم بخير أو شر ولم أسرب معلومات عنهم كما كانوا يتوقعون..
بدأوا في التحرك.. ذهبوا لنائب العميد وزنّوا في أذنه حتى أقفل أبواب المكتبة الالكترونية في وجهنا.. رفض حتى الحديث معنا في الموضوع وطردنا من المكتب كالكلاب الضالة..
كنت أنظر للشباب وهم متضايقون، ينظرون لي ويتساءلون: ماذا حدث؟ وأنا لا أستطيع أن أجيب..
ماذا أقول؟ جماعتي القديمة قررت أن تركبكم وتحطم أحلامكم وطموحاتكم وعملكم الطوعي وكل ما عملتم لأجله ودفعتم من جيبكم وزمنكم وجهدكم لتحققوه؟.. كانت تلك أحقر حركة يمكن أن يفكر فيها أحد.. أكثر دناءة من أن تتوقعها ولذلك لم آخذ حذري لأنني لم أتوقعها حقيقةً فقد كنت منغمساً حتى النخاع في العمل الطوعي وتجاهلت أبسط قواعد الحيطة والحذر..
وهكذا كنت قد اعتزلت العمل مع هؤلاء الأخوان تماماً، ورحت أفكر في حزب آخر أنضم إليه عسى أن أعوض وقتي الذي ضيعته مع هؤلاء..

حاولت الدخول لأنصار السنة.. صرت أجلس معهم في دروسهم بعد صلاة العصر في جامع كلية الطب، ولكنني لم أستطع استساغتهم.. لم "ينزلو لي من زور".. حاولت كثيراً أن أقنع نفسي أنهم حفظة الحديث والقرآن (قصدتها هكذا بهذا الترتيب لأنهم يستخدمون السنة

سلاحاً فتاكاً ضد من يعارضهم).. حاولت أن أقنع نفسي أنه إن كانت هناك فئة ناجية فهم هؤلاء.. ولكنني لم أستطع أن أواصل الكذب على نفسي.. هؤلاء منافقون كذابون أكثر من الأخوان المسلمين، ولو أنهم لا يتخيرون عن بعض.. هؤلاء يحملون لفظة التكفير على يدهم اليمنى، فما أن تسلم على أحدهم حتى تكون اللفظة لصقت في يدك حتى قبل أن تقول شيئاً!..

يكفي أن تختلف مع أنصار سنة في لون باب الجامع فتقول: أبيض، ويقول هو: أصفر، ليتم تكفيرك في التو واللحظة!..

هؤلاء قوم يؤمنون تماماً أن ما يقولونه هو الحق وعين الحق، وأن ما يقوله غيرهم هو الباطل شر الباطل، ولا أدري ما سيحدث حينما يجتمع أنصاريا سنة اثنان في مكان واحد.. هذا سيكون صراع ديناصورات يستحق المشاهدة فعلاً!..

تركت كل هؤلاء الأحزاب الذين يتشدقون بالإسلام، وكنت قد تركت الشيوعيين من قبل، فماذا تبقى؟.. تبقت مجموعة من الأحزاب أنا أسميها كلها (أحزاب سِيدي).. و(سِيدي) هذه لا بد أن تنطق بكسر السين وإلا لم تعطِ التأثير المطلوب..

أحزاب (سِيدي) هذه تتميز جميعها بشئ واحد: أنك تترقى في الحزب لتصل أعلى مراحله، وأعلى المراحل هي أن تكون (حُوار سِيدي)!.. حقيقةً لا أمزح.. هذا يشمل أحزاباً كبيرة كحزب الأمة (حزب الصادق المهدي) والحزب الإتحادي الديمقراطي (حزب الميرغني).. حاولت أن أدخل معهم، وأومن بفكرهم، ولكني لم أستطع استساغة الفكرة.. كيف يكون أقصى طموحي أن أكبر لأصير (حُوار

سِيدي)؟.. بعد أربعة عشر قرناً من الإسلام لا زلنا نفكر بطريقة العبيد؟.. متى يتحرر الفكر يا أخي، متى؟.. والإجابة كما كان يقول أستاذ الجغرافيا في مرحلة الأساس حينما تسأله سؤالاً عن (متى سيكون الامتحان) أو (متى سنستلم الشهادات) فيجيب بلماضة:

– يوم القيامة العصر..

وهو يوم لن يأتي أبداً، لأن يوم القيامة ليس به عصر!..

حتى عندما انفصل (مبارك الفاضل) عن حزب الأمة وأنشأ حزبه (الأمة الإصلاح والتجديد)، كنت أعلم أنه لن ينجح، لأنه خرج من عباءة (سِيدي) وهو حوار (سِيدي) فسيعود للحظيرة يوماً ما.. وقد كان ذلك ما حدث فعلاً..

وبمناسبة هذه السيرة العطرة لأستاذ الجغرافيا، دعك من عفن السياسة.. أنا لم أحك لك عن فترة التعليم الأساسي، أليس كذلك؟ إذاً هيا بنا!..

(11)

كنا ندرس في ذلك الوقت في إحدى المدارس النموذجية، وهي مدارس حكومية كان بها أساتذة أكفاء (ليس بالتشديد وإلا صاروا عمياناً) وكانت نسبة التحصيل ونسبة النجاح في الشهادة الأساسية عالية، فكان الدخول صعباً لمن ليس له درجات مرتفعة..

كنت أنا وصديقاي (جعفر) و(مجدي) – حكيت لك عنهما من قبل، كنا في صف واحد في السنة الثامنة، وهي سنة ضاغطة لأنها سنة امتحان الشهادة.. كان لدينا الكثير من العلوم لتحصيلها والقليل من الوقت لفعل ذلك..

كان هناك ذلك الأستاذ – أعتقد أنه كان يدرس الرياضيات أو التاريخ لا أذكر – وكنا نخاف منه لسبب بسيط جداً: أنه لا يستخدم الجلد كعقاب، بل يستخدم الكف!.. نعم كانت لديه كف غليظة مربعة، حينما تهوي على وجهك تحس أنها (بسطونة) تسلخ جلدك.. ماذا؟ لا تعرف (البسطونة)؟ إنها تلك العصا الغليظة التي يحملها (كلاب لهب) يفرقون بها الجموع أثناء المظاهرات.. لحظة، هذه النظرة البلهاء معناها أنك لا تعرف (كلاب لهب)! في الحقيقة أنت تعرفهم وربما ذقت (بسطوناتهم) من قبل، لأنهم جنود (الاحتياطي المركزي)!.. وهم عن بكرة أبيهم فواقد تربوية لم تكمل الأساس، لذلك فهم بالطبع الجنود المثاليون لقمع مظاهرات طلبة الجامعات!..

ولسبب ما لا أذكره كانت مدرستنا قد خلت فجأة من المدرسين.. لا

أدري السبب وراء نحسنا ولكن يبدو أن المدرسين كانوا يهربون منا طوال سني دراستنا..

كان لدينا أستاذ للرياضيات، رجل عبقري جداً اسمه (طـــه).. كـــان رجلاً قصيراً أصفر اللون أصلع الرأس إلا من شعيرات خجولة تنمو على جانبي الصلعة.. كان عبقرياً في الرياضيات وفي أشياء أخرى.. كان يأخذ مادته – الرياضيات – بكل جد.. يجبرنا أن نحفظ نظريات حساب المثلثات كأنها قرآن.. وفي كل يوم خميس كان هناك تســميع لإحدى النظريات، حيث نجلس متفرقين كيفما اتفق، يخرج كل واحد منا ورقة بيضاء، ويكون الأمر:

– سمّع النظرية رقم ثلاثة..

فتبدأ في الكتابة، بداية باسم النظرية التي تحفظها مــن رقمهــا، ثــم الفرضية والإثبات.. كان قد قسم الفصل المحتــوي علــى بضــعة وثمانين طالباً لمجموعات، كل مجموعة تتكون مــن عشــرة طلاب، وعليهم رئيس مجموعة.. يقوم الرئيس بتصحيح الأوراق بــالحرف، ولو وجد خطأ واحداً فإنه يرفعه للأستاذ.. كان مضــطرلًـلــذلك لأن أستاذ (طه) يعيد تصحيح الأوراق بنفسه، ولو وجد تغاضياً عن خطأ فإنه يعاقب رئيس المجموعة ويترك المخطئ! أســلوب فعــال فــي العقاب كما ترى..

يجعلك ذلك تتذكر وصف (محيي الدين الفاتح) الأسطوري[41]:

(وسياط الناظر تتبعنا..

واللحم لكم.. والعظم لنا..

---

41 من قصيدة (أتطلع لإمرأة نخلة).

ومخاوفنا تكبر معنا..
السوط الهاوي في الأبدان:
ضرباً.. رهباً.. رعباً.. عنفا..
الباعث في كل جبان:
هلعاً.. وجعاً.. فزعاً.. خوفا..
والصوت الداوي في الآذان:
شتماً.. قذفا..
نسيتنا الرحمة لو ننسى يوماً رقماً..
أو نسقط في حينٍ حرفا..)

كان رؤساء المجموعات الثماني تحت إمرتي، فأنا رئيس الرؤســـاء، أفعل بهم ما يفعلونه هم ببقية الطلاب..
وكنت أنا تحت الأستاذ (طه) مباشرة، فهو الذي يسمع لي النظريات، ويا ويلي لو أخطات في رقم، عندها يكون عقابي مضاعفاً، فأنا أول المدرسة كما تعرف..
كانت هذه البداية.. ثم خطرت للأستاذ (طه) فكــرة جهنميــة وهــي (الكرت الأحمر)..

كانت الفكرة بسيطة جداً.. على كل رئيس مجموعة أن يحضر كرتاً لونه أحمر.. قد يكون كرتونة ملونة بالأحمر، أو غطاء علبة (تانج) مقصوصة في شكل كرت، أو أي شئ في حجم الكرت ولونه أحمر..
يبدأ الماراثون في الفسحة.. يأتي حلمــل الكــرت لأي فــرد مــن مجموعته، يأمره أن يترك سندويتش الفول ويجلس ليحل مسألة ما..

لو رفض فسوف يرفع الأمر للأستاذ (طه) الذي سيجلده ثم يعطيه الكرت الأحمر.. لو استجاب وأجاب الإجابة الصحيحة تتركه وتبحث عن فريسة أخرى.. لو أخطأ ترمي له الكرت وتجري لتتركه يبحث عن فريسة..

كان الكرت الأحمر يلف أعضاء المجموعة بسرعة جهنمية.. ثم يدق جرس انتهاء الفسحة وبداية الحصة الرابعة، فيأتي سئ الحظ من وقع عنده الكرت الأحمر مجرجراً رجليه للصف ينتظر الحصة السابعة.. لماذا؟ ليجلد طبعاً!..

يأتي أستاذ (طه) في الحصة السابعة حاملاً سوط العنج الطويل (الكرباج) وينادي:

– ناس الكرت الأحمر اتفضلوا قدام..

هذا طبعاً بعد أن يمسك الطبشور ويرسم على جانب السبورة رساً طفولياً لدفار يركبه مجموعة من الناس وأحدهم يصيح: الكشة جات!..

يخرج حاملو الكرت الأحمر أمام الصف وأحدهم يحاول أن يستدر عطف الأستاذ:

– يا أستاذ أنا ما غلطت في المسألة بس الجرس..

* ولا كلمة!..

يتقدم أولهم ليرقد على الكنبة الأولى.. يرفع الأستاذ السوط ويهوي به على مؤخرته.. ثلاث جلدات تهوي كالسم على بدن الولد.. يأكل الجلدات الثلاث ويقوم حاكاً مؤخرته ليرجع لمقعده.. وتتوالى الآهات!..

وطريقة الجلد عند أستاذ (طه) فريدة جداً لو لم تكن تعرف..
كان يقيم لنا اختباراً شهرياً في الرياضيات.. ودرجة النجاح على مستويين: بالنسبة لطلاب الصف جميعهم تكون درجة النجاح 25 من 50.. بالنسبة لرؤساء المجموعات تكون درجة النجاح 35 من 50.. المستوى الثالث هو لي! حيث درجة النجاح لي خصيصاً كانت 45 من 50!..
يأتي الأستاذ (طه) حاملاً أوراق الامتحان المصححة مرتبة ترتيباً تصاعدياً.. يبدأ في النداء:
- (محمود محمد أحمد).. 15 من 50.. عشرة جلدات..
- (أحمد شعيب ناصر).. 20 من 50.. خمسة جلدات..
وكما تلاحظ فإن عدد الجلدات هي درجة النجاح ناقصاً درجتك!.. فلو كنت ناجحاً لن تجلد، وهذا يعتمد طبعاً على نسبة النجاح وهل أنت من العامة أم من رؤساء المجموعات، أم أنت رئيس الرؤساء!..
وماذا إذاً لو أحرزت نصف أو ربع درجة؟ تقول أن الأستاذ سيجبر الكسر؟ يا لك من ساذج يا صديقي، هذا استاذ رياضيات وليس أستاذ لغة عربية!.. يخرج (فريد) وهو كان (طيش الفصل) وبالتالي أكثر شخص مجلود في كل الأوقات.. يقف أمام أستاذ (طه) ويقول مترجياً:
- يا أستاذ (طه) أنا جبت تمانية ونص من 50.. تبقى تسعة صح؟..
يجيب الأستاذ بهدوء:
- تمنية ونص.. معناها في الرياضيات تمنية ونص!..
يصيح (فريد) بانتصار:
- وحتجلدني نص سوط كيف؟..

يرفع الأستاذ (طه) يده عالياً بالسوط:
– كدة سوط كامل..
ينزلها قليلاً:
– كدة نص سوط..
ينزلها أكثر:
– كدة ربع سوط!..
ينظر (فريد) للسوط يائساً ثم يركب الكنبة!.. يقول أستاذ (طه):
– انت عارف أنا ما بجلد أكتر من خمستاشر سوط في اليوم.. تاخد حقك الليلة وتكون طالبنا سوط ونص بكرة!..

كان أستاذ (طه) يكن لي معزة خاصة، تتجاوز حدود الأستاذية والأبوة معاً.. كان يرى فيّ شيئاً لا أراه في نفسي: الأمل.. كان يعتقد جازماً أنني سأكون رقماً وشخصاً مؤثراً في يومٍ ما.. ولذلك حينما وزع أوراق الاختبار في يوم ما، ولم يعطني ورقتي بل غادر الفصل مسرعاً، جريت وراءه للمكتب وأنا ألهث:
– أستاذ (طه).. انت ما أديتني ورقتي..
نظر لي بحزن وجلس خلف المكتب:
– أديك ليها كيف وانت ساقط؟..
تهاوت الأرض من تحت قدمي وأنا أردد:
– ساقط؟..
أخرج الورقة من درج المكتب، وضعها على سطح المكتب وهو يقول بحزن:
– جايب لي 49 ونص من 50؟..

لا أصدق لأي درجة كان هذا الرجل يحبني!..

رغم كل شئ كنا نعشق أستاذ (طه)، فهو خارج الفصل رجل نكتة.. تقف معه فتضحك وتنسى السوط الذي أكل لحمك قبل ساعة.. كل الطلاب كانوا يحبونه، وكم من طالب استلف منه شريط (خواطر فيل) للنور الجيلاني ليسمعه في البيت.. كان رجلاً فريداً..
ولأنه فريد فقد كان يحس بالمسئولية الأبوية تجاهنا.. امتحان الشهادة اقترب ونحن نشكو عجز الأساتذة.. فكر كثيراً ثم وصل لحل: أقنع الإدارة بأن يستلفوا لنا أستاذاً صارماً من المدرسة المجاورة، حتى لو كانوا سيدفعون له من جيوبهم.. جاء الأستاذ الجديد – وللصدفة – كان اسمه (طه)!..
لم يكن لنا بال رائق لننادي كل أستاذ باسمه الكامل، فاخترعنا اسماءً حركية: (طه) القديم هو (طه القصيّر)، والجديد هو (طه الطويل)!..
قام الـ(طاهتان) بتوزيع المواد بينهما بالتساوي..لك الرياضيات ولي اللغة العربية.. لك الإسلامية ولي التاريخ.. وهكذا.. وهو مجهود رائع ويدل على عاطفة الأبوة لدى الأستاذين..
المشكلة كانت أن (طه القصيّر) لا يفقه شيئاً خارج حدود الرياضيات.. لا يعرف هل المبتدأ مرفوع أم منصوب، بل ما معنى مرفوع ومنصوب أصلاً؟..
وهكذا كان علينا أن نسمّع التربية الإسلامية لـ(طه القصيّر) الذي لا يفقه شيئاً عنها.. كل ما يعرفه أنه يمسك الكتاب، يفتح الحديث الثاني ويقول:
– سمّع معاني الكلمات!..

تنظر له مندهشاً ثم تتمتم:

– طيب يا أستاذ (طه) أديني كلمة وأنا أديك معناها!..

ويهدر صوته مزمجراً:

– سمّع معاني كلمات الحديث الثاني!..

تبدأ في التذكر، وتقول الكلمة الأولى ومعناها، فيوقفك رافعاً السوط:

– دي الكلمة التانية ما الأولى.. أرح السوط!..

وهكذا اضطررنا لحفظ كتاب التربية الإسلامية من الغلاف للغلاف!..

لم يكن (طه الطويل) بأحسن حالاً.. فهو يمسك كتاب النصوص ويقول:

– سمّع القطعة الرابعة!..

فتتمتم مرتجفاً:

– يا أستاذ دي مقررة شرح ما حفظ!..

فيهدر مزمجراً:

– سمّع القطعة الرابعة!..

تسكت وتقف كما وقف حمار الشيخ في العقبة، تعطيه مؤخرتك إشارة على أنك لا تحفظ القطعة، وحان وقت السوط!..

ورغم كل تلك المعاناة فقد كانت نسبة النجاح للمدرسة 98%، وهي نسبة محترمة كما ترى.. يبدو أن السوط له تأثير فعال رغم كل شئ..

* * *

عانينا كما تكون المعاناة.. جلدنا حتى (بان لنا صاحب) كما يقول (عادل إمام).. مارسنا الشغب كما يجب أن يكون الشغب.. دخلنا

الجامعة فأحببنا وغدرت بنا الحبيبة.. قرضنا الشعر النزاري من نوع (أحبك يا سيدتي فأنت سيدتي) وكتبنا خواطرنا الطفولية للتي لم يقرأها أحد.. علقنا البوسترات السياسية ليلاً وجرينا من بوكس الإحتياطي المركزي (الذين نسميهم كلاب لهب) لأيام مظاهرات الطلبة.. وقفنا مع المعارضة حيناً ومع الحكومة حيناً آخر.. شربنا السجاير والشيشة والبنقو والعرقي.. درسنا بـ(أم كرنيد) أو كما يقول المصريون (بالعافية) وتخرجنا وأصبحنا أطباء وتخصصنا.. هاجرنا وتمرمطنا ومسحت بكرامتنا الأرض.. رجعنا السودان فلفظتنا بلادنا كما يلفظ جسمك بقايا الطعام من مؤخرتك.. حاولنا أن نعيش في عالم أبيض بلوننا الأسود الذي لا خيار لنا فيه..
أعتقد أنه يمكن أن أقول أننا عشنا..

(12)

هذا الجزء ليس موجوداً في المذكرات وأنا أحكيه لك لتكتمل عنـــدك القصة..

* * *

حينما عدت بعد ست ساعات وسألت الممرضة في استقبال الحـــوادث وجهتني بوجه متجهم لأقابل دكتور (مايكل) وهو نفس الدكتور الـــذي حدثني المرة السابقة.. ذهبت لأقابله فوجدت في الممر يتحـــدث إلـــى ممرضة ما فوقفت انتظره حتى انتهى وهم بالمغادرة حينما بادرته:

– دكتور (مايكل)؟..

* مممم؟..

– أنا أسأل عن حالة المريض (خالد أبنعوف)؟..

صمت لحظة وهو يتذكر ثم أضاء شئ ما في عقله فقال:

– آآآه نعم مستر (أبناءوف).. هلا أتيت معي لحظة هنا؟..

قادني إلى غرفة صغيرة مكتوب على بابهـــا (مرافقـــو المرضـــى)، وأجلسني على أحد الكراسي بالداخل وهو يسأل:

– منذ متى تعرف المستر (أبناءوف)؟..

* منذ فترة..

– حسناً.. ماذا تعلم عن حالته حتى الآن؟..

* لقد أخبرتني من قبل أن حالته خطرة وأنه يحتاج لعمليـــة مســـتعجلة ولكن دورته الدموية لا تسمح..

– مممممم..

كان هو يفكر لحظة قبل أن يقول:

– لقد حاولنا المستطاع لإنقاذ حياته.. أعطيناه خمسة لترات من السوائل الوريدية وهي كمية ليست هينة.. حاولنا نقل الدم له ولكن لم تتوفر فصيلة دمه وعندما حاولنا نقل أي فصيلة كحلّ اضطراري كان قد دخل في حالة هبوط حاد أدى لفشل الدورة القلبية التنفسية.. حاولنا إنعاشه ولكن لم نتمكن من استرجاعه للأسف..

قال ذلك ثم سكت.. سكت بدوري لحظة ثم سألت:

– إذاً أنت تقول أنه مات؟..

* بالضبط.. أنا متأسف للغاية.. لقد حاولنا فعل المستطاع ولكن فشلنا..

صمت لحظات أخرى ليتركني أستوعب ثم نهض وهو يقول:

– يمكنك استكمال الاجراءات واستخراج تصاريح الدفن مع سستر (شيلا) في الاستقبال.. مرة أخرى تقبل تعازي الحارة..

ونهض مغادراً المكان تاركاً إياي بدون كلمة أخرى..

* * *

مرت فترة بعد وفاة (خالد)، حاولت فيها الاتصال بأقربائه ولكني فشلت تماماً.. حاولت أن أعرف من هم أهله: والداه، إخوته، أعمامه، أي معلومة تفيد ولكن مكتب الهجرة كانوا رافضين بإصرار تزويدي بأي معلومات طالما أنني لست المذكور في خانة أقرب الأقربين (next of kin).. كانت المستشفى قد اتصلت بي من قبل بناءً على رغبة (خالد) وليس لأني الـ(Emergency contact).. شرحت لهم الوضع وأنه كان سيفضل أن يدفن في بلده ولكنهم أصروا على موقفهم، ونصحوني بإكمال الإجراءات لدفنه هنا حيث أن العلاقات السودانية الأمريكية لا

تساعد لإكمال إجراءات ترحيله للسودان..

المهم أنني في ذلك الوقت كنت قد أكملت إجراءات استلام الجثمان، وصلينا عليه في مسجد (أم بركة)[42] وهو مسجد صغير يقع بالقرب من مركز مؤتمرات (ريتشموند) الكبير، حوالي ثلاث أو أربع دقائق من الحديقة.. ثم دفناه في مقابر (البرزخ) للمسلمين وهي تقع شمالي مدينة (ريتشموند) على مسافة أقل من نصف ساعة بالسيارة..

والحقيقة أنني قد نسيت الرجل وقصته تماماً.. ولكني وبعد فترة من الزمن كنت أقلب في أشيائي فوجدت تلك المذكرة الصغيرة ذات الغلاف الأسود، فتذكرت وصية (خالد) لي بأن لأقرأ المذكرات ثم أتصرف بعدها..

والحقيقة أنني حينما بدأت قراءة المذكرات صدمت تماماً.. هذا رجل لم أكن أعرف عنه أقل القليل يطل علي من السطور.. هذا عالم أسود دموي يتعامل بعنصرية مخيفة وقاتلة لم أكن أتخيل وجودها على أرض الواقع.. هذا رجل حاول أن يتكيف مع العالم ولكن العالم رفسه بكل قسوة بين رجليه.. لا أجد وصفاً أفضل من هذا لأصف شعوري وأنا أقرأ..

قرأت لك بعض المذكرات محاولاً أن أرتبها ترتيباً زمنياً منطقياً فهي غير مرتبة جيداً في المذكرة الأصلية..

لا أدري ما حكمك على الرجل..

لا أدري هل توافقه فيما وصل إليه وفي حكمه على العالم..

---

42 كل المواقع الجغرافية المذكورة في القصة صحيحة تماماً ويمكن التأكد منها من جوجل مابس.

ما أعرفه هو أن هذا الرجل قد مر بتجربة قاسية جداً في مرحلة مبكرة من حياته، وشاب في عمره لا ينبغي أن يعاني بهذه الطريقة.. ولكنه عانى، وحاول أن يتكيف مع المعاناة حسب طريقته الخاصة.. احتفظت معي بجزء من المذكرات.. ربما أحكيها لك في مرة أخرى..

* * *

فذلكة لا بد منها..

جميع الحوادث والقصص الواردة في هذا الكتاب تنتمي لإحدى هذه المجموعات الثلاث:

(1) الجزء الأكبر منها هو حقيقي تماماً وقد حدث وعايشته، ولكنني قمت بتغيير أسماء الأشخاص فقط لئلا يغضب أحد من ذكر اسمه هنا.

(2) جزء بسيط جداً حدث مع أشخاص آخرين ولكنني لأخفف تعقيد القصة جعلته من بطولة الدكتور (خالد).

(3) حوادث قليلة للغاية لم تحدث فعلاً، ولكن بعض الأصدقاء أعطاني فكرتها، وبضعها وليد خيالي المريض فحسب!.

نبذة عن المؤلف

د. محمد عصام محمد عبد الماجد

- من مواليد الخرطوم 1984م
- تخرج من كلية الطب جامعة الخرطوم 2008م
- عمل طبيباً بمستشفى الشرطة بالخرطوم وبوزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية، وبوزارة الصحة بسلطنة عمان
- عمل في التدريس بقسم الطب الباطن بكلية الطب، جامعة السودان العالمية
- قام بالمشاركة في العديد من المنتديات الشعرية والمناشط الثقافية المتنوعة
- لديه ديوانين منشورين بعنواني "يمشي القمر" (2005م) و"أطياف وظلال" (2013م)، وكتابين منشور بعنوان "الإسلام: أسلوب حياة" (2015م) و"دولة محمد" (2015م) بالإضافة لعدة كتب أخرى يمكن تصفحها عبر موقع أمازون
- الموقع الالكتروني: http://sites.google.com/site/mohammedisam2000.

سأحدثك عن العبودية..
سأحدثك عن متلازمة (ستيفن)..
سأحدثك عن عقيدة (الجرذ)..
فلتحمل قهوتك ولتقف قريباً، فإن
ما سأقوله لك لا يمكن أن يقال إلا
مرة واحدة فقط..